د. كِفاح أبُو هنوُد

فقه بناء الإنسان في القرآن

مكتبة عصير الكتب ٦٥٧

مكتبة | 657
سُر مَن قرأ

فقه بناء الانسان في القرآن

الكتـــــاب: فقه بناء الانسان في القرآن
المـــؤلـــف: كفاح أبو هنود
تنسيق داخلي: سمر محمد
الطبعة الأولى: سبتمبر 2020
رقم الإيـــداع: 2020/14210
I. S. B. N: 978-977-992-124-2

مكتبة
t.me/t_pdf
٢٠٢١١١٣٠

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي
مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428
مراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع

فقه بناء الانسان في القرآن

د. كفاح أبو هنود

مكتبة | 657
سُر مَن قرأ

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى الباحثين عن نور شجرة المعنى وقد آنسوا من نارها فهمًا.

إلى الراحلين إلى حكمة القرآن، وسره المكنون.

إلى الهاربين من غسق الجهل إلى اكتمال الرؤية.

إلى السائلين عن أقصى معارج الوعي.

هنا بعض الجواب لسؤال عميق:

كيف صنع الله إنسان الرسالة العليا!

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، ونشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، أكمل الله به الدين وأتم به النعمة على المؤمنين؛ بلَّغَ رسالة ربه ونصح أمته وجاهد في سبيل الله حق جهاده حتى أتاه اليقين فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

لقد أودع القرآن سر بناء الإنسان في آياته، وجعل قانون بعثه من الهامش إلى التمكين وأسباب حياته بينة في ثنايا القرآن الكريم، وقدم القرآن في ذلك منظومة تربوية متكاملة في صياغة القلب والعقل والسلوك، وابتدأ تلك المهمة الكبرى في أول سور التنزيل القرآني في العهد المكي المبارك.

وفي هذا الكتاب محاولة تربوية مسكوبة في قالب أدبي نحو قراءة النص القرآني الكريم قراءة تستلهم قيمه وتصوراته ومعانيه

ومقاصده في تشكيل إنسان الرسالة وإنسان الحضارة وإنسان الوظيفة العليا، وظيفة العمارة للأرض والخلافة فيها.

محاولة تقوم على تدبر خطاب القرآن في سوره المكية الأولى وغاياته من معان محددة زخرت بها سور القرآن المكي واختصت بها غالبًا، فجاء من مجموعها نظرية شاملة في فقه بناء الإنسان في القرآن.

ويقينًا أن هذا الأمر يحتاج إلى الكثير من الجهود العلمية والفكرية والدراسات المؤسسة على استلهام المعاني التربوية من الدلالات البلاغية وخصوصية الخطاب القرآني في العهد المكي وتفرد بعض المفردات القرآنية وأساليب التعبير التي تميزت بها سور القرآن المكي، لذا؛ فإن محاولتي في هذا الاتجاه إنما هي محاولة من يبذر بذرة في فضاء فكري واسع يحتاج الكثير من الجهود المعرفية حتى ينبت وعيًا مؤصلًا يستكشف نظرية بناء الإنسان في القرآن الكريم.

وتتبدى الحاجة إلى هذه الجهود كلما تأملنا السياق الحضاري والتاريخي والواقعي لأمةٍ أراد الله لها منصة الشهود على الأمم وموقع القيادة، لكن انتكاستها عن الفهم القرآني بلغ بها حالة من النكوص عن مهامها الحضارية ومهامها الاجتماعية ومهامها الفردية، بل بلغ بها حالة من الانكفاء على مستوى من الفهم الديني ابتعدت بها عن مقاصد القرآن الكبرى.

إن استئناف الأمة لوجودها الحضاري يتطلب اكتشاف المنظومة التربوية التي صاغت ملامح المسلم العقلية والنفسية والسلوكية، وبعبارة موجزة: إن أمامنا مهمة بعث إنسان الرسالة المفقود.

تلك المهمة التي غابت عن رؤيتنا الدعوية يوم انشغلت الأمة بمجموعها العام في إحياء الشعائر والوقوف على الأحكام دون ارتباط بالمعاني والمقاصد.

وأخيرًا، ربما تبدو هذه المحاولة في أولى خطواتها لاستلهام قيم القرآن الكريم وفقهه في بناء الإنسان، لكنها تملك أسسًا يمكن أن يبني عليها الباحثون والمهتمون ما يؤسس لبناء نظرية متكاملة في هذا الاتجاه، نظرية ربما تساهم في تصحيح مسار السير، ومسار الوعي، ومسيرة البناء.

ولا يفوتني في ختام هذا التمهيد أن أشكر كل من ساهم في ولادة هذا العمل وأعان عليه وساهم في توجيهه بالرأي أو التصحيح أو الحوار.

ولله المنة من قبل ومن بعد فيما أنجز، ومنه العفو والستر في كل نقص.

●●●

مكتبة
t.me/t_pdf

مَدْخَل

قرأ العنوان فقال:

لماذا البحث عن فقه بناء الإنسان في القرآن؟ وما جدوى فقه المعاني!

لماذا هذا البحث في فقه سور العهد المكي؟ بل ماذا يعني فقه بناء الإنسان في القرآن؟!

قلت له:

لماذا نمتدُّ في السراب؟

لأن القرآن في عالمنا ما زال في طَورِ «التَّرتيل»، ولم نعلُ به إلى دور (التشكيل). نحن نُتقنُ في القرآن الأداء الصوتيّ ونعجزُ كأُمّة عن الأداء السلوكي.

وما زال القرآن يتردد في (الحناجر)، ولم نبلغ به أن يغيّر (المصائر).

نحن نمضي إلى الله فارغين من رسالة القرآن، أو ربّما ناقصين من المعاني، محمّلين بالصوت فقط!

هل تدرك أنّنا قبل حدث التنزيل القرآني كنّا نزحف على حاشية الحضارات، ولا صوت لنا إلّا صوت الزحف الغائب في القاع؟!

فهل تدري متى بُعثنا من غيابنا؟!

ومتى انفرطت عنّا الأكفان؟!

كان ذلك يوم نزل القرآن بغاية ﴿مَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤)

كان القرآن حينها يخلّص القوم من بُعد المسافات عن الشهود الحضاري، ويسحب لهم منصّةَ القيادة، ويعلن أنّ بين زمن الموت وزمن الحياة فقط فقه القرآن.

كان يغلق لهم صفحة الجنازات، ويفتح لهم عواصم الشهود على التاريخ، ويزرعهم في تربة الخرائط التاريخيّة دون رحيل.

وكانوا هم يومها صامتين في حضرة الصوت القرآنيّ، يسمعونه من محمّد ﷺ، يسمعونه بإحساسه وتفسيره التفاعليّ، ويصفون قراءته؛ بأنّها قراءة حزينة، شهيّة، بطيئة، مترسّلة كأنّه يخاطب إنسانًا.

وقد كان؛ إذ كان يخاطب روحه وأمّته بكلّ معنًى، ويأذن لنفسه وأمّته أن تُخلق خلقًا من بعد خلق بالقرآن.

كانوا يسمعون مشاعره إذ يشكو له أبو بكر ماذا حلّ به حين سمع: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ (النساء: ١٢٣) قائلًا: (فلا أعلم إلّا أنّي قد وجدت انفصامًا في ظهري حتّى تمطّيت لها)، وكان ذلك؛ لأنّه فهم

الأمر في قوله: ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ (مريم: ١٢) فكاد ظهره ينفصم للفهم وينفصم للمعنى!

لقد كان القرآن مع كلّ تَنزُّل يخيط للصحابة أثوابهم الجديدة، وينسج لهم أرواحًا من نوره،كان ينزعُ عنهم لباسَ الجاهلية الأولى مع كل سورة تُتلى.

لقد أُشرب الصحابة القرآن في قلوبهم، لقد أُشربوه حتى تنفسوه سلوكًا، ولقد ورث الجيل الأوّل الفقه النبويّ للتلاوة والقراءة والتعامل مع القرآن، وتوحّدوا مع الآيات حتى ازدحم القرآن في تفاصيلهم، كان القرآن يفيض لهم ويفيض بهم، وتشرّبوه؛ حتّى صاروا في معاشهم جنانًا!

انظر إليهم في تواصلهم مع النصّ كيف ينبتون! فهذا ابن مسعود -رضي الله عنه- يمكث زمنًا من اللّيل لا يردّد سوى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤) كان يفقه أن العلم مقامٌ فكان يستلهم من الدعاء سبب القرب من دماء الشهداء.

ويذكر أحدهم أنّه دخل على أسماءَ بنتِ أبي بكر رضي الله عنهما وهي تقرأ: ﴿فَمَنَّ الله عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ (الطور: ٢٧) قال: فوقفتُ عليها؛ فجعلَت تستعيذُ وتدعو، فذهبتُ إلى السوق، فقضيتُ حاجتي، ثمّ رجعتُ وهي فيها بَعدُ تستعيذُ وتدعو.كان والله ذلك تذوّقًا تُبنى به حياةٌ جديدة!

ويقول آخر: (بِتُّ مع أحمدَ بن حنبل ليلةً، فلم أرَه ينام إلّا يبكي إلى أن أصبح، فقلتُ: يا أبا عبد الله، كثُر بكاؤك اللّيلة! فما السبب؟ قال أحمد: ذكرتُ ضَربَ المعتصم إيَّاي، ومرَّ بي في الدرس قولُه تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ (الشورى: ٤٠)؛ فسجدتُ وبكيتُ وأحللتُه مِن ضربي في السُّجود).

كيف استطاعت هذه الآية أن تمسح آلاف اللحظات الأليمة! أن تمسح كل ذلك القهر وكل ذلك الوجع وكل تلك الذكريات الدامية.

لقد كان ذلك كلُّه توقّدًا بالقرآن؛ إذ كانت الآيات في أرواحهم كأنّها كفّ المطر؛ لا تمضي دون أن تزرع فيهم ربيع القرآن.

كان كلُّ قارئٍ فيهم يترك شيئًا منه على سطور الفهم للنصّ القرآنيّ، يترك لنا بعضًا من عقله، وينشِئ لنا بالقرآن مدائنَ من الوعي لن ينساها الزمان!

فها هو أحدهم يقول: (بِتّ مع الشافعيّ، فكان يصلّي نحو ثلث اللّيل، فما رأيته يزيد على خمسين آية يردّدها ويتدبّرها؛ وكان ذلك سبب تلك المصنّفات الّتي أخرجت لنا فهمًا مبصرًا للإسلام).

كان أحدهم يظلّ مع القرآن تدبّرًا حتّى يتعدّى بالآيات مجرد الفهم المباشر، ويزهر به موسمًا جديدًا يتعدّى به إلى أسرار المعاني، يتشرّبون القرآن فينبجس من الحِجر ماء الفهم؛ كأنّ عصا موسى تكمن في الكلمات؛ فيغدو معها الجدب شلّال حياة!

ثمّ كان وكان، وها نحن اليوم نقف على حافة الصوت الجميل؛ تنطفئ التلاوة بنا منذ أن انشغلنا بحركة الحناجر، وظلّ القُرّاء يدورون في فلك الحرف؛ حيث مات صوت المعاني، وبقي صوت الهمس والجهر دون إعلان للرسائل الّتي ثقلت بها الكلمات!

إذ قل لي بربّك:

من يسمع القرآن اليوم في النوايا؟!

من يسمع القرآن في الخلوة والخبايا؟!

من يسمع القرآن في الخطوات وفي الحنايا؟!

من يسمع القرآن اليوم سلوكًا في حياتنا.

ها نحن نكبر في التلاوة، ونعيش بحاضر منقوص من المعاني متسمّرين على أسوار الحروف المتقنة، ليس في تلاوتنا أمكنة آمنة لجيل قد أرهقه هلع التِّيه.

تكاد تتقن أفواهنا شدّة الإحسان في القراءة، وعلى الجهة الأخرى يكاد يسقط واقعنا من شدّة الاهتراء!

تتجلّى الكلمات في فم الجماهير، ونفقدها في ثيابهم وعيونهم، وفي ملامح الوجوه، وفي توقيع الحضور على منصّة التغيير!

يقتفي القادمون من بعدنا خطوَ التِّيه في أقدامنا، وتضيع البوصلة القرآنيّة؛ إذ بين إتقان الحرف وارتداء المعاني تاريخُ أمّة كانت تفقه

ما معنى المدارسة، كانت تتفقه معنى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران: ٧٩)؛ لذا كانوا: (إذا تعلّموا عشر آيات لم يجاوزوهنّ إلى العشر الأخر حتّى يعلموا ما فيهنّ؛ فكان الأمر كما وصفوا: (نتعلّم القرآن والعمل به).

ثمّ ماذا..؟؟ ثمّ كان ما تنبّأت به فراسة الإيمان (وسيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء)، لا يجاوز تراقيهم الّتي تتغنّى بالأحرف المقامة على أوتار الحناجر، وليس على أوتار الحياة.

وهانحن اليوم ننتكس إذ نَعُد الختمات عدًّا عدًّا، ونفرح إذ سبقْنا الأقرانَ والأنداد، ولو بُعِثَ فينا عمر الذي مكث في سورة البقرة عشر سنوات لأنكرَنا، ولنالنا من دُرَّتِه نصيبٌ كبير.

يا لله! ويكأنّ السطور اليوم تنزف وجعًا من ألم الهجر ومِن فَقْدِ الراحلين إليها؛ إذ ما أصعبَ الهجر لآبار المعاني القرآنيّة.

ويالله كيف ننسى أنّ الاستعمار كان يشجّع مراكز الحفظ ويقتل العلماء؛ إذ لا أثر للنصّ إذا فرغ من الفهم؟! ألا ترى عُمُرَ الأمة كيف صار باهتًا؛ تقطعه بنصف إغماضة أو ربما بعمى تام، تقطعه براحلة مثقوبةٌ سلالُ الزاد عليها.

ثم ها نحن اليوم على خطى التوجيه نحتشد على القراءة وجمع القراءات، ونغيب عن تفعيل مدارس الفقه والتدبّر والتفسير.

فيبقى صوتنا متهدّمًا، أو متهدّجًا، أو مرتجفًا بين الأمم، ولن يستقيم إلّا إذا عدنا إلى: ﴿فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾ (القيامة: ١٨)،

فارفق بالقرآن وتوقف عن الهجر؛ فبعض معاني هَجرِه أن تكون له تاليًا؛ وحياتُك منه فارغة.

هل تراك أدركت أنّ قدرنا كان أن نكون مع القرآن، ولا قدر لنا بدونه إلّا هامش الإهمال؛ لهذا يا سيدي كانت سلسلة فقه البناء والمعاني محاولةً لإضاءة قنديل في فقه المدارسة بعدَ أن ذبل زيت القناديل في صحون مساجد الأمّة.

محاولةً لاكتشاف كيف صنع القرآن إنسان الرسالة؟ كيف بنى قامات شيّدت حضارة إسلاميّة مبهرة؟ وكيف كانت الكلمات تعيد تشكيل العقل والنفس والسلوك؟!

ولهذا كان كتاب: (فقه بناء الإنسان في القرآن) محاولة لاستجلاء لَبِناتِ الصياغة الأولى التي سكبت في سور التنزيل المكي.

لَبِنات فاضت بمعانٍ هائلة عبر سوَرٍ قصيرة وبضعِ كلمات، كل كلمة كانت كونًا من المعاني، هنا أولى الكلمات وهنا أول الفهم، وفهم فقه بناء الإنسان يبدأ من سؤال: بماذا بدأ القرآن؟!

●●●

اللَّبِنَة الأُولَى

﴿اقْرَأْ﴾

﴿اقْرَأْ﴾ (العلق: ١)، كانَ الظَّنُّ أن يكون أوّل حديثٍ بَينَ الله وبينَ قَلبِ محمد الباحث حتّى الوجع عن الحقيقة: كان الظن أن تكون البداية ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ (طه: ١٤)، أو رُبّما كانَ الظَّنُّ أن يَكونَ أوّلُ أمرٍ لمحمّد ﷺ أن يَصدحَ بالقولِ أمَامَ قَومِه: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ (مريم: ٣٠). لكن البداية كانت مختلفة؛ لأنّ مهمّة مُحمّد ﷺ ستكونُ مختلفةً، والنهايات الجليلة إنما تكون للبدايات الثقيلة.

نزل الوحي وكانت مكة غارقة في صمتها ونبض محمد يلهج بسؤال اللهفة: أين الله! وكان الجواب غريبًا: (اقرأ).

يتوهج الكهف بنور غريب في عتمة الغار، تتحرك حبيبات الرمل تحت خطى جبريل، يدنو الوحي وينهمر في غار حراء ويرتل وِردَ البداية: (اقرأ)، يرتجف قلب محمد فثمة صوت ينفض عنه دامس الجاهلية، يشتعل النبي بردًا، وتتراقص على شفتيه نار الرفض ما أنا

بقارئ، وتهرول في صدره رياح الدهشة، ويشتد التساؤل في نفسه حول الكلمة الأولى، حول لغة البدء (اقرأ)، تلك لحظة لا يشبهها شيء!

﴿اقرأ﴾، يئن قلبه من الظمأ لكنه لا يملك أن يقرأ؛ فيرد: ما أنا بقارئ! يدنو الوحي منه، اقرأ ولا تُعجزك أُمّيَّتُك، فجأة، يتراءى له المعنى، ويعرج محمد إلى أفق الاصطفاء ويستجيب: ما أنا بقارئ، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١)، فهذه أول أبجدية في نص سيكتب مسيرة التغيير، وبها وَحدَها يا محمد سَنَمحو كُلّ فُصولِ الجَفافِ، وتاريخ أُمّةٍ كان وَزنُها هَباء، كان وزنها داحس والغبراء.

﴿اقرأ﴾؛ لأن الكلمات لن تبقى في الخارج، ستعبرهم عميقًا وتهدم بالوعي ألف هُبل وبها سنَعلو بك إلى قمّة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ (الزخرف: ٤٤)، ذِكْرٌ لقومك الغائبين في سراديبِ المَوتِ وسراديب النسيان والغايات الهامشيّة، ذكرٌ سيرتفع بقومك ما بقيت فيكم فريضة اقرأ.

﴿اقرأ﴾؛ لأنّها وحدها من ستُعلّم الأَعرابَ كيف يُصبح لخُطواتهم على الرِّمالِ صدًى، صدى تهتزُّ له عُروش الحضارات المُمتدة على فَقرِنا، والممتدة على جَهلِنا.

﴿اقرأ﴾؛ لأنّها وحدها من ستَكتُب لكم حُضوركم على منصة القيادة، وفي كلِّ تفاصيل التاريخ، بل وفي تَفاصيل النعيم في عِلّيّين!

﴿اقرأ﴾، وليس بين يدي محمّد ﷺ صحيفةٌ ولا قَلَمٌ ولا ﴿مَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم: ١).

﴿اقرَأْ﴾ ، وعقلُ محمّد ﷺ يلتفتُ يمنة ويسرة فلا يَرى إلّا غارًا ورمالًا، وفراغًا يلتهمُ صدى قومه، ويُبقيهم في المجهول.

﴿اقرَأْ﴾ ، وما لمحمّد ﷺ وهذا النداء!

﴿اقرَأْ﴾ ، وتتوالى عباراتٌ من السَّماء لا تهمّ العقل العربيّ، منها: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (العلق: ٤).

﴿اقرَأْ﴾ ، تلك هي الكلمة التي ستلد صورة الحضارة الإسلامية، صورة أمة تقوم على المعرفة، أمة دينها الكتاب، ونسيجها كلمات تضيء، كلمة سترسم قرونًا من تاريخ لا ينطفئ، يورق الكهف ويسيل العطر من الكلمات، وفي فجأة الدهشة يغيب الوحي إلى ما وراء الغيب، فيهرول النبي إلى خديجة، تجر قدماه أربعين عامًا من الانتظار، وفي القلب ألف سؤال: لماذا (اقرأ)؟ أكان هذا صوت العبور نحو المستحيل!

ترتعش روحه وهي ترتشف هيبة الرؤى، دثروني دثروني؛ ثمة ما يهرب منه فقد كان يخشى ما رأى.

دثروني، يرددها ويعيذ بها نفسه من خوفه، تضمه خديجة فيهدأ بها، وتهمس له: (لن يخزيك الله أبدًا)؛ تتوضأ روحه بالأنس، ويذوق لذة الوصل، ويلتفت فلا يرى في ليل الأقدار سوى كلمة (اقرأ)، فقد أعلنت السماء نهاية الغسق، وما بين عتمة الانتظار وآخر خطوة في رحلة الضياع تتوهج كلمة لم يتوقعها العقل العربي، لقد كانت (اقرأ) أول أبجدية في نص سيكتب مسيرة التغيير.

﴿اقْرَأْ﴾ يا محمّد؛ فَهي وَحدَها والله من سَتَقلِبُ الوثنيَّةَ، وتُفقد الأصنام ثَباتَها، وتمنَحُك نِهايةً نشيدُها: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١).

﴿اقْرَأْ﴾ بإطلاق الفعل وإذا غاب المعمول اتسع المدلول، وقد اتسع كثيرًا؛ فإذا بالكلمة الأولى تفيض بحضارة معابدها مكتبة وتسبيحها قراءة وصلاتها صناعة المعرفة.

﴿اقْرَأْ﴾ هي الكلمة التي كُتب بها تاريخ الحضارة الإسلاميّة، وبها وَحدَها سَتَرتَفعُ المرأةُ من حالَة: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ (التكوير: ٨) إلى مَقام: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ (المجادلة: ١) وسَينتهي زَمنُ الاستضعاف، وتُصبح (لَبنة) إحدى الإماء الّتي سُبيَت في زمنِ الفُتوحات الاسلامية عالمة الرّياضيّات وعالمة اللّغة في جامعة قُرطبة أشهر جامعة علميّة في القارّة الأوروبّية حينذاك، وَيَذكُر لها التّاريخ أنّها كانت تَسيرُ في الطُرقات فَتُعلِّم الصِّغار الحساب؛ لأنَّها فَقِهَت أنّ أوّل التّنزيل كان: ﴿اقْرَأْ﴾ (العلق: ١) تطل من الكلمة على أروقة تأويلها، وترى المعنى شامقًا في بَيت الحِكمة في بغداد.

﴿اقْرَأْ﴾ بهذه الكلمة سَيَكتُب ابن الجوزيّ بِأصابعه ألفي مُجلّد، ثم يَجمعُ بَرّايات أقلامه، ويأمر أن يُسخَّن بها ماءُ تغسيله إذا مات؛ لأنّ الله يُحبّ القَلَم!

﴿اقْرَأْ﴾ وأخواتها من: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم: ١) حتّى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ، عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ، خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ، عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ١-٤)

هي روح دين جَعلت ابن عقيل يقول: (وأنا في الثمانين من عُمري أنشَطُ في طَلب العِلم ممّا كُنت في العِشرين)، وما ماتَ حتّى سطّر لنا آلافَ الأوراق في العلم.

﴿اقرَأْ﴾ حتّى تعبُدَ الله ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ (يوسف: ١٠٨)، ﴿اقرَأْ﴾ وسيمَنُحكَ الفَهمَ ﴿رَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ (العلق: ٣)، ﴿اقرَأْ﴾ كي تبلغ مقام: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣)، كُلّ النّاسِ من المشرقِ حتّى المغرب.

﴿اقرَأْ﴾ ولا تَهذَّ القرآن هذًّا؛ فإنّ هذا القُرآن جاءَ لِتُجاهِدهم ﴿بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٢).

﴿اقرَأْ﴾ يا محمّد أنت وأُمّتك قراءة هي أعلى من التَهجِئة ومجرد إقامة الحروف، قراءة توقظ فيكم مراد الله، وتَنبَّه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ (القيامة: ١٦)؛ لأنّا ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ (الأعلى: ٦) فما ماتَ محمّد ﷺ إلّا وقد قَرَأَ القرآن قراءَة التفعيل وقراءة التأويل؛ لذا قالت عائشةُ رضي الله عنها في وصفِ حياتِه: (كان يتأوّل القرآن) أيّ: يُفسِّره سُلوكًا، ويَتذوَّقه مَعاشًا.

﴿اقرَأْ﴾ كلمة بِها كان البدءُ، ولن يَصلُحَ الحال إلّا بما كان به أوّلُ الأمرِ، لو أنّ عقل الأُمَّةَ يتفطنُ كيف بدأ التنزيلُ، وكيف صار التشكيلُ، وبماذا بدأ الله أوّل كلمةٍ في مسيرة التغيير!

●●●

اللَّبِنَة الثَّانِيَة

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾

كانَ خَلق آدم ﴿مِّن طِينٍ﴾ (الأنعام:٢) ﴿مِن صَلْصَلٍ﴾ (الحجر:٢٦)، لكنَّ الخَلقَ كانَ بخارطة استثنائية، ولحياة لا تُشبهُ حياةَ الملائكة مطلقًا، وكانت نَفخةُ الرُّوح في المخلوقِ الجديد تُعلن بدء أحداث الدّنيا كُلّها، وتُعلن أنَّ حكاياتِ التّاريخ سَتُكتَب، وأنَّ قُرآنًا وتوراةً وزَبورًا وَكذا الإنجيل سيُقرأ، لَم يكن آدمُ قبل تلك اللحظة سوى حَمَأ مَسنون مُلقًى في غَيبوبةِ العَدَم وفي عَتمةِ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ (الإنسان: ١)، ثُمّ غَدا آدمُ فجأة مِثل نُقطة نُورٍ تَثورُ حَولَها أسئلةُ الكونِ الغارق في التسبيح وفي التهليل وفي التقديس، أسئلةُ الملائكة المَدهوشة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾! (البقرة: ٣٠) وها نحنُ ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة:٣٠) كان الكونُ فعلًا حينها مغمورًا في أهازيجِ التسبيح وتراتيل التقديس، كانت السماءُ تَئطُّ أطًّا «فما فيها من موضعِ شبرٍ إلّا وفيه مَلَكٌ ساجدٌ أو مَلَكٌ راكِع»، لكنّ الملائكة لم تكن تَعلَم حِينها أنَّ المسافةَ بين مقام ﴿وَنُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: ٣٠)، ومقامِ ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

(البقرة: ٣٠)؛ كما هيَ المسافةُ تمامًا بين مَقامِ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾ (البقرة: ٣١)، وقول الملائكة ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ (البقرة: ٣٢)، وكانت تلك لحظةً فوقَ إيقاعِ الكونِ المُعتاد، لحظةَ العِلمِ إذ يَتَجلّى في الإنسان، ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم﴾ (البقرة: ٣٣).

التسبيح الواعي:

تلك لحظةٌ أدركَ فيها الخَلق السابق أنَّ ثمَّةَ مهمّةً أعلى من مجرد التَّسبيحِ والصلاة، مهمّةً جِسرُها العِلمُ، ووظيفَتُها أن تكونَ ﴿خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (ص: ٢٦)..

وفي لحظةِ الوعيِ الجديد ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ (ص: ٧٣) فقد بدا هذا الكائن الجديد في نسيجِه وَتسبيحِه يختَلفُ عن الملائكة؛ إذ سَيَغدو التَّسبيحُ للهِ بأبعادٍ جَليلة، وبممارسة عظيمة، بعضُ معانيها عِمارةُ الأرض.

ثمّةَ تسبيحٌ جديد، تسبيحٌ بِلُغةِ العِلم، وَتَرتيلٌ، الوعيُ بَعضُ مُفرداتِه، والعقل أداته.

إذًا، لم تَكن مُصادفة أن يكونَ أوّل حديثٍ عن أوّلِ نَبيٍّ في أوّلِ تَرتيبِ سور القُرآن ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ﴾ (البقرة: ٣١)، وأن يكونَ أوَّل أمرٍ في أوَّلِ تَنزيلٍ لآخِرِ نَبيٍّ ﴿اقۡرَأۡ﴾ (العلق: ١) فَبينَ البِداية والنهاية سِرٌّ، لو تَتَنَبّه!

انتكاسة الفهم:

اليومَ نحنُ نَعكسُ المشهد ونقلبه، ونَتَشبَّث بمرتَبة: ﴿وَنُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ (البقرة: ٣٠) كأنَّنا نَرغبُ أن نَعودَ مَلائكة! نَتَشبّث اليومَ بمسابِحِنا، ونَغيبُ عن المهمّةِ العُليا: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠).

يتنبّهُ الاستعمار الفَرنسيُّ في الجزائرِ للفارقِ الدقيقِ بينَ مقام التسبيح وبين مُهمّة إعمار الأرض؛ فيُشجّعُ زوايا التصوّف، ويدعَمُ طُرُقَ الصُّوفية المنعزلة، وحركاتِ الاستغراق في المدائحِ والتَّراتِيل!

يَنشُر الغَربُ كُتُبَ التَّصوّف المشغولة بالتسبيح، ويدعَمُ طُرُقَ الدّروشة الغائبة، ويأذن لنا أن نَدُورَ في فلك العبادة وتفاصيل الشَّعائر، ويدورُ هُو في فلكِ الفَضاءِ وفلك استعمارِ الأرض، وفَرَّقَ وفَرقٌ بين (إعمارِ الأرض) مهمّتنا المغيّبة، وبين (استعمارها) المهمّة الحاضرة.

ولقد قال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم﴾ (البقرة: ٣٣) فَتلكَ هي مُهمّتُك، وذلك قدرك الّذي خلقت لأجله، ولن تَسجُدَ قوانين الحياةِ لكَ خاضعةً إلّا إذا كنتَ في مَنزِلةِ ﴿أَنۢبِئْهُم﴾، لو تَفَطّنت!

●●●

اللَّبِنَة الثَّالِثَة

﴿آقۡرَأۡ بِآسۡمِ رَبِّكَ﴾

ثمة شيء كانَ في ضميرِ الكونِ يُولَد، حياة على ضفائرِ النُّجومِ تليقُ بأُمّةٍ اختار الله لها أن تَحيا بعيدًا عن غُبار العُبوديّة!

لذا؛ لم يَكن عَبثًا أن يَقولَ اللهُ لِنَبيِّه: ﴿آقۡرَأۡ بِآسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١)، فَيجمعُ الله له بين الإيجادِ من العَدَمِ، وبينَ البَعثِ بِـ ﴿آقۡرَأۡ﴾ من ظُلمة الغَرق!

لم يكن عبثًا أن يَجمعَ اللهُ في الآيةِ حياتَين؛ الأولى من عَلَق، والثانية ستكونُ من الكلمات!

لم يكن عبثًا أن يَمنَحنا اللهُ هِبَةَ الميلادِ، ثُمَّ يُكرِمُنا الله بِهِبَةِ الإمداد!

كان الله في أوّلِ آيةٍ يَهَبُ الأمّةَ أعظم هِبَة؛ أن يولَدوا ثانية بِقرارٍ ذاتيّ، وكان لا يريدُ لهم أن يَظلّوا هباءً على رِمالِ الصّحراء!

﴿آقۡرَأۡ بِآسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ وسَينتَهي قَدر الانتظار للحُريّة؛ لأنّ القُرّاء هُم الأَحرار.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ قِراءةً تَهديكَ إلى (الفَجرِ) وإلى (الشَّمسِ) وإلى سُطوعِكَ في كلِّ تفاصيلِ (العَصر).

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ قراءةً تُبَلِّغُكَ مَشهدَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ (النصر: ١)، فبعض القراءةِ هي وَقودُ المَعركَةِ، وهي جِهاد الأمّة.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ قراءةً تُوصِلُكَ إلى بُؤرةِ الضّوءِ، وإلى سورةِ (النُّور)، ونقطةِ وعيٍ تَسبقُ (اللّيل) بِها فلا يَبلُغُك!

اقرأ وقُل: سأُسقى حُلُمَ العُبور إلى اللهِ بمداد المِحبَرة.

اقرأ قراءةَ مَن يعلم أنّ ربّه عليمٌ يُحبُّ العُلماء، واعتكف في محراب العُبوديّة الجديد، واثنِ الرُّكَبَ على مَصاطب العِلم، والزَم ﴿ٱقْرَأْ﴾؛ فهي الفريضةُ الأولى والفريضةُ الغائبة، أو رُبّما هي الفَريضةُ المغيَّبةُ، فَثَمّةَ من يعلمُ جيّدًا أنَّ مَن يَمتَلِكُ مفاتيحَ المعرِفةِ يَمتَلِكُ قُوَّةَ السِّيادة، وثمّةَ من يُريدُنا أن نعودَ أعرابًا، بلا وزنٍ إلّا وزن القافِية، أعرابًا بِلا غايةٍ إلّا قَصَص عَبلةَ وعنتَرة، أعرابًا جلّ حكايَتنا معركة كمعاركِ داحِسَ والغبراء، وطواحينُ هواءٍ لا تَحصُدُ إلّا عُمرُنا.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ هي الفريضةُ الغائبة أو المُغَيَّبة، وبِها سَيكونُ تصحيحُ البَوصَلة.

تصبح الأرض بيدر قمح إذا كانت المعرفة متصلة باسم رَبِّك، وبدونه تصبح حدثًا تدميريًّا، وعملًا منقطعًا عن غايته، ولقد كان القرآن في هذه الكلمات يؤسس معنىً عاليًا وعميقًا أن القراءة فعل لصالح هدف التواصل مع المعنى الموجود في الكون والذي يدلك على

الخالق، لذا؛ ابتدأ أول خطابه بقوله ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ (العلق: ١)؛ لأن الفعل المعرفي مهمته اكتشاف مراد الله.

يتعثر هودجنا ونتوارى في الظلال ونغيب في المتاهات إذا غابت عنا فريضة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وهانحن اليوم نفقد ترتيب الفرائض كما رتبها القرآن، ونفقد فهم المعاني وفهم فقه البناء.

●●●

اللَّبِنَة الرَّابِعَة

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

رُبّما لم يَخطرعلى قلبك ذاتَ يوم أنّ هذه الآيَةَ ستكونُ «موضوعًا للسّؤال»، أو سؤالًا للعتاب، أو لعلّهاً ستوقفُكَ؛ فَتُناقشُكَ الحِساب، وتنضَمّ لأختها: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ (الصافات: ٢٤). ربّما لم يَخطُر على قَلبِكَ، أنّها تحمّلُكَ أمانةً؛ إذ يقولُ لكَ الله: كم أنتَ قادرٌ على التعلّم! فقد خَلَقتُ فيكَ من المواهب، وهيّأتُ لَكَ من المِنَح ما يَجعلُكَ تَعلمُ ما لم يكن يُعلم؛ إذ إنّهُ يوحي لَكَ أنّكَ بَحرٌ لا ساحِلَ لهُ بِما وَضَعَ فِيكَ من إعجازِه. فأينَ من إعجازِه إنجازُك؟!

لذا؛ قال أحدُ السّلف وقد تَفطّنَ للمعنى: (لَئِن عَلمَ الله فيك أنّكَ كُنتَ بالغًا بما وَهَبكَ ﴿مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٧)، ثُمّ انتَكستَ عنهُ لِعَجزٍ أو قلّةِ سعيٍ؛ فإنّهُ سائلُكَ عمّا لم تَصله).

لَقد وَضَعَ فيكَ قُدرةَ أن تُتقن «أربع لُغات» في أوّل طَفولتكَ، وتبلُغ ما فَعَلهُ –موسى بن نُصير– في السّبعين يومَ فَتَحَ إفريقية، ثُمّ شَكّلَ جُيوشَ الفتحِ للأندُلس في الثّمانين.

لَقَد مكَّن لك أسبابَ الذكاء، ولكنّنَا اليومَ أشبه بِمَن امتلَكَ الحَديد، ثُم انتَظَر ذا القَرنَين حتّى يَبنِيَ لهُ سدًّا، فما قال لهم سوى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾ (الكهف: ٩٦) وقد غفلوا عنهُ؛ لأنّهُم كانوا ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا﴾ (الكهف: ٩٣).

تَخيّل مَعي كيفَ يَنتَبِهُ الغربُ اليومَ لكلِّ ذلكَ، فيتعلّم الطفلُ الغربيّ ثلاثةَ عشرَ ألف كلمة ما بين (٣-٦) سنوات، بينَما يتعلّمُ الطّفلُ العربيّ ثلاثةَ آلافِ كلمةٍ فقط؛ ممّا يُشكّلُ فارقًا مهمًّا على مُستوى الذّكاءِ العقليّ لدى الطّفل المُسلم، ثمّ الأمّة، ولدى مُستَقبَلِنا الآتي كُلّه.

لقد أجرى الإنجليز دراسةً على الطّفل المسلم في بدايةِ الدّولة العُثمانية؛ فوجدوا أنّ الطفلَ كان يتعلّم (٥٠) ألفِ كَلمة في مراحله العُمرية الأولى؛ إذ كان يحفَظُ ألفيّة ابن مالك والقرآن والحديث والسّيرة؛ فكان أوّلُ عملٍ للاستعمار إلغاء الكتاتيب.

المُلفتُ أنّ الحضارةَ الإسلاميّة شَكّلت أطفالَها عبرَ بداياتٍ قَويّة؛ حيث كان الطفلُ يتعلّم في صِغَرِه العلومَ الشّرعيّة، ثم ينتقِلُ الى محراب الطبِّ والفَلَك والرياضيّات، ثم يَبرعُ في فنٍّ من الفُنونِ؛ وذلك كُلّه وهو في أوّل الشّباب.

ولقد بَلَغَ الشافعيّ وابن تيّمية مبلغًا في العِلم وهم في يافعة من الشّباب! ورأينا النوويّ يموتُ في مُقتَبلِ عُمُرِه لم يبلُغ الأربعين؛ فيصنَعُ لِحضارَتِه وتاريخِهِ ما يَقِفُ المُستَشرِقون أمَامَه مَذهولين، وقد قيلَ: إنّ

(الطبريّ) قدّمَ علمًا للأمّة يُوازي جهدَ مؤسّساتٍ عَشرٍ بِكُلِّ طاقتِها وطواقِمِها.

وظلّت أوروبا تَقتاتُ على علمِ المُسلمين حتّى القرن التّاسعَ عشر الميلادي؛ يوم كان المسلمُ يُؤمِن بكلمات ابن القيّم: (لو أنّ أحدَهم وَقَفَ أمام جَبَل وعَزَم على إزالَتِه لأزاله)؛ لأنّ الله علّمه ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٥).

هل تفطّنتَ لماذا جعل الله قولَه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٥) في أوّلِ التّنزِيل!؛ لأنّهُ يُريدُ منكَ أمراً جَليلاً يَليقُ بمرتَبَة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠).

لَكَأنّ القرآنَ اليومَ يَجري على ألسنَتِنا ولم يَبلُغ حتّى اليومَ أن يَمُرّ على عُقُولِنا، لكَأنّ قولَهَ تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٥) يُتلَى تَرتِيلاً، وعَجِزنَا أن نَتلُوهُ وعيًا وتمكينًا.

●●●

اللَّبِنَة الْخَامِسَة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾

(دثروني)، بين لهفة القلب الظمآن وبين خوف الفجأة تتردد الكلمة دثروني دثروني، ترتعش روحه وهي ترتشف هيبة الرؤى، دثروني، ثمة ما يهرب منه فقد كان يخشى ما رأى، دثروني، يرددها ويعيذ بها نفسه من خوفه، لكن صوت الوحي ينهمر:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر: ١-٣) كانت هذه الأغطية الثقيلة تدثر الروح الخائفة بهدوء مؤقّت، تدثر النبي وهو يتوغّل في دفئها حتّى يودّ لو أنّها تحميه من دهشة الحقيقة.

وبين لحظة التصاق النبيّ -عليه السلام- بالفراش الّذي يتمنّى لو أنّه يحتويه؛ وبين صوت الوحي وهو يطرق الصمت بقوّة ويدعوه للنفير تبدو المسافة هائلة!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (المدثر: ١-٢) فقد كان هذا اليوم هو آخر نهار في انتظار الحقيقة!

لقد كانت الشهور قبل تلك اللحظة تلد الأهلّة يتيمة؛ فيظلّ الزمن بلا معنًى، ويظلّ هُبل هو الأقوى! حتى هبط الوحي بـ﴿قُمْ﴾، قم يا محمّد، بهذه الصرامة الشديدة في اللغة.

﴿قُمْ﴾، فالقادر على رمي أغطيته قادرٌ على النهوض!

﴿قُمْ﴾، فإنّما يتدثّر فقط الغائبون عن موعد الشروق!

﴿قُمْ﴾، فأنت الّذي ستمسح كلّ الجراح العتيقة، وستسكت نزف الجراح الخفيّة!

﴿يَأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (المدثر: ١-٢)، هنا يبدو الفارق في الآية بين مشهد (المدّثر) وبين إيقاع (قُمْ) الشديد؛ كما هو الفارق بين حياة نرغبها ونهدأ في صمتها، وبين حياة تنتظرها السماوات والأرض!

﴿قُمْ﴾، مباركون أولئك الذين تصبح خطواتهم جذورًا لمن يسيرون خلفهم على الطريق.!

﴿قُمْ﴾؛ لأن الفعل هو الذي يغير روح الفاعل والحدث هو الذي يعيد تشكيل الإنسان، قم إذن، ثم ماذا، ثم ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر: ٤)، لماذا؟؛ لأننا إنما نعجز عن القيام بسبب تلوثنا، واضطراب خطونا؛ هو من يشعل وقود حرائقنا ويبقينا في متاهات الطريق، تخور قوانا ونعجز عن القيام إذا نبت الإثم في داخلنا، وتفشى في ثيابنا، تفشى في هيئاتنا.

لقد كان الطريق إلى القيام الّذي يليق بمستوى الرسالة يتّضح في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾(المدثر: ٤، ٥)، إذ لا قيام دون الطهارة العميقة؛ تلك الّتي تلتمع ابتداءً في ثيابك، وانتهاءً في قلبك حتّى تنتشلك من عمق التّيه.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾، هكذا تفيض الآيات إذن وتلتحم في معنًى مسبوك!!

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾، هذه هي بداية القيام للأعالي، إذ الطهارة قرار باسق والقرآن يعلمنا أن نتشبث بكل تفاصيلها، من نقاء الثوب حتى هجر الرجز! والرجز كل تلوث فاسد.

لكن، لماذا يبدأ القرآن بأمر الطهارة في أول التنزيل؟؛ لأن بعض الخطايا، أبقت أمّة بأكملها على حافّة الغرق وتركتها تموج كأنّها سفينة معطوبة في وسط الطوفان.

بعض الخطايا تغور في أعماق المكان، تتجذّر كشجرة خبيثة تلقي عجرها في عقول الناس، ولأن بعض الخطايا تشبه مدينة بأكملها، لازال رمادها حارًّا ويقظًا؛ فقد أشعلها أحدهم بكلمة ولم يمت من بعدها الحريق.

وبعض الخطايا حسنة تحتها شهوة خفيّة، تكشفها الصحائف التي لا تخطئ الحساب!

وبعض الآثام من شدّة ضلالها وإضلالها لها دويٌّ في الميزان إذا سقطت!

لذا؛ فإنّ الذنوب في الجزاء لا تتساوى في القصاص، بل تتباين على قدر امتدادها وتعدّي أثرها، فهل تراك سمعت بالذنوب المتعدّية؟!

تلك الّتي لم تبق في الدهاليز؛ بل خرجت تجاهر في العلن، وتفرح وهي: ﴿تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (النور: ١٩).

تلك الّتي جاوزت سياج نفسك إلى سياج غيرك؛ فخرقت فيه ثلمة نفد منها الغبار إلى أرض قلب كان قد عفّ زمنًا طويلًا. تلك الّتي يظلّ أنينها يزحف حتّى يؤتى بالعبد يوم القيامة وقد تعلّق في رقبته الألّف والألّفان، وقد كان هذا بعض فقه السلف، وكانوا لأجله يتواصون بقولهم: (طوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه)!

وهذا ابن عبّاس رضي الله عنه يُسأل عن رجل كثير العمل كثير الذنب؟ فيردّ: (ما أَعدِلُ بالسلامة شيئًا)، يردّدها؛ وهو يقصد أنّ السلامة من الذنب أعظم من كثرة العمل!لذا كانت أولى مفردات التنزل، هجر الرجز واعتناق الطهارة مبدأ.

●●●

اللّبنة السّادِسَة

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾

مكتبة
t.me/t_pdf

التطهير قبل التعمير:

يدهشك القرآن في بداياته الحكيمة المحكمة ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ (المدثر: ٤، ٥)، فما هي قصّة الطهارة؟ وما علّة الاستهلال بها في أوّل التنزيل في العهد المكي؟

القِصّة، أنّ الثياب الّتي سيقبلها القرآن منذ اللحظة لن تتسع لأمرين؛ فإمّا الطهارة المكتملة، وإمّا التخليط ولوثات الجاهليّة الأولى.

فما هي الجاهليّة؟

الجاهلية كانت ولا زالت هي نتاج زحف بطيء للخطايا، وللسوس الناخر في كلّ الدعامات الثقيلة!

الخطايا الّتي جعلت الرقاع في ثيابنا وعقولنا تلتهم بقيّة الستر فينا ثم لا نرى أحوالنا إلا رقاعًا مهترئة!

الخطايا التي تشيخ بها الأمة ويذبل بها الوعي وتضل بها الخطى.

ولقد كان الرجز والرجس والوحل في ثياب القوم واضحًا بعد أن توغّل في رائحتهم وملامحهم كثيرًا، وكان بإمكان الأرواح الّتي تحمل بقيّة من الحنيفيّة الأولى أن تشمّ رائحة الخطايا تفوح من أغلب ثياب القوم كلّ ساعات النهار والليل حتى كأن الخطايا أردية القوم ولباسهم!

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ لذا؛ كان لا بدّ من التطهير أولًا قبل البدء في التعمير، والتخلية من السيّئات قبل التحلية بالحسنات، والتخلّص من العوائق قبل البدء في الانطلاق، فكانت: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ (المدثر: ٤، ٥)، والهجر يعني الترك المطلق، إذ غالبًا ما يكون الزلل في حياة الإنسان خطأ بسيطًا يتناوب عليه المرء حتّى يصير في حياته خطيئة تدخله في عالم: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ (البقرة: ٨١) لذا؛ جاءت الخطيئة هنا بصيغة المبالغة؛ لأنّها غدت صفة راسخة في النفس تخلق سلوكًا لا فكاك عنه حتّى كأنّه القيد يستعبد الإنسان، ولا يأذن له بخطوة الانعتاق، ويحيط به كأفعى لا تغادره إلّا مقتولًا أو مسمومًا.

ولقد ورث السلف هذا المعنى وفقهوه جيّدًا إذ قالوا :(تركُ شهوةٍ من شهوات القلب أنفعُ للعبد من صيام سنةٍ وقيامها، وتركُ فلسٍ حرام أحبُّ إلينا من التصدّق بمِائة ألف فلس).

الترك، الطهارة، هجرة الرجز، مفردات انصبّت في ضمير المسلم الأوّل، وبدأت تخلقه من جديد وتنطقه بفهمٍ سطّرَه عمرُ بن عبد

العزيز يومَ قال: (وددت لو أصوم شهري، وأصلّي فرضي، وأجعل فضل جهدي في ترك السيّئات).

وذاك هو فقْهُ يحي بن معاذٍ يوم نصح قائلًا: (لا تكن ممّن يفضحه يومَ موته ميراثُه) أي: الأوزار وما خفي من انتهاك المحرّمات!

●●●

اللّبنة السَّابِعَة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾

كانت هذه الخماسيّةُ بتكاملها تنحت أولى خُطوات الطريق للهجرة، أولى الخُطُوات للحظةِ استلامِ مفاتيحِ يثرب، خماسيّةٌ تجعل الطهارة من الذنب هي الطريق؛ حيث يختارُ الله التعبيرَ عن كلِّ ذنب يُعطّلُ مسيرة التغييرِ بوصفه بـ(الرُّجز)، والرُّجزُ في اللغة العربيّة: (هو داءٌ يُصيب الإبل فترتعشُ منه حتّى تعجزَ عن القيام)، حتّى كأنّ المعنى هنا أن الذنبَ يحمل معنى كلِّ ارتعاش واضطرابٍ!

فانظر إلى دقّة تعبير القرآن، وإلى دقّة اختيار الكلمة في القرآن؛ إذ يريد الله أن نتصوّرَ كيف يُصبحُ الذنبُ، وكلّ خلل فكريّ أو تشوّه سلوكيّ سببًا في اضطراب خطُواتك نحو الغاية القادمة.

وللقرآن لغته الخاصة التي يعيد بها خلق المعاني وتوظيف المفردات حتى كأنما تنبت به نباتًا جديدًا، لذا؛ قال ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾؛ لأن الرجز اضطراب وارتعاش. كي تصل، لا بدّ أن تفهم أن البدايةَ باتّساق الخطوة وسلامة السعي، ولن تبلغ ذلك إلّا بـ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ (المدثر: ٥).

لقد أبدع القرآنُ في استكشاف المشكلة يوم سمّى الخَطيئة رجِزًا والّتي تحمل معنى الاضطراب؛ إذ قُل لي بربِّك: كيف يتوازن في بلوغ القمة مضطربٌ في خطوه، وكيف يتوازن مختلٌّ في سعيه؟!

أو كيف يصلُ مَن تَتِيهُ خُطُواته فلا يدري المشرقَ من المغرب؟، ويظلُّ كعاصفةٍ تدور في فراغ ثمّ تموت في صمت!

وكيف يحمل الأمانة من يتعثّر في سيره فلا يبقى في كفّه حينئذ إلّا البقايا!، لذا كان الأمر بـ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾، وقد كانت هذه البدايةُ في التنزل القرآني فاصلةً ودقيقةً وبليغةً؛ بداية صنعت هجرةً لا تذبذبَ فيها، ولا وقوفَ بعدها في منتصف القرار.

هجرةً تُوقِفُ كلّ انطفاء أو انتهاء أو ذوبان، هجرةً لكلّ رجز، إذ المثقلون بأوزارهم وضجيج عاداتهم الفاسدة وموروث أفكارهم الميّتة لا يقدرون على السباق.

ولقد كان القرآن دومًا يصارحُهم بالوجَع، ثمّ يصفُ لهم سبيل الخروج من النفق المُظلم، لذا؛ لم تكن قصّةً طارئةً أو مفاجئةً أن تنتهي مسيرة محمّد - عليه الصلاة السلام - بالهجرة الثمينة، إذ كانت هذه البداية في التنزل القرآني تنحت حركة المسلم إلى المدينة بانهماك وتمكّنٍ عجيب، وكانت تضبط إيقاع خطوته كي تليق بإيقاع أنشودة تنتظر في رحم الغيب أهلها، أولى مقاطعها: (طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع)؛ حيثُ ستبدأُ مع هذه الترانيمِ بذورُ نخيلٍ لا يعرف التصحّر أبدًا.

لقد كان القرآن بقوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ (المدثر: ٥) يغسل عنهم كلَّ لحظات التاريخ الّتي امتلأت تيهًا وضلالًا، وكان يوقفُ تكرار السنين المملّة حتّى الموت؛ يُوقفُ الضبابيّةَ في الرؤية، والزيغَ في الخطوات، والتعثّرَ في الطرقات!

لذا؛ ثِق يا أيّها القارئ أنَّه كلّما توغَّل الرجسُ في ضمائر القوم فإنّهم لا زالوا في (الجاهليّة الأولى)، تلك الجاهليّة التي كان القوم فيها مسكونين بحرائقَ لا تنجب إلّا رمادًا يزيد الصحراء سخونة ولهيبًا.

ولربّما كان في العرب طهارةٌ متخفيّةٌ في عمق الروح الإنسانيّة، لكنّ القرآن فقط من كان يزيح عنها (إصرَهَا والأغلال)!

لذا؛ كانت آياتُ سورة المدّثر في معانيها تَتخطّى بهم عتبةَ الخطايا المتعبةِ؛ تلك الّتي تزيد عزلتهم عن العالم، خطايا العقل وخطايا الفكر وخطايا السلوك وخطايا النفس، كلها رجز يستحق الهجر!

ولقد كان القرآنُ بديعًا وبليغًا يوم وصف الذنب بالرجز -الّذي هو معنى اضطراب الخطو-، فهل تراك تلمح في مُصابنا اليوم غيرَ ذلك؟!

ثم ماذا! ثم ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر: ٣)، هذه عقدة المعنى كله حيث تتوجه النفس الإنسانية إلى الحقيقة الكبرى التي منها وحي الرسالة، وإليها تنتهي الرحلة كلها.

وهنا مفصل الحضارة وعلامتها الفارقة حيث حركة الإنسان متصلة بالله، هنا يتصل الإنسان بالله وينفذ إلى ما وراء الغيب.

●●●

اللّبنة الثَّامِنَة

﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ، قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ، قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (المزمل: ١، ٢)، إذ أوّلُ الابتداء خلوةُ المُتَعَلّم، لذا؛ حُبّبَ إلى مُحمّدٍ -صلّى الله عليه وسلّم- الخلاءُ في غار حِراء أوّلَ الأَمر؛ ليَكمُلَ لهُ المِيراثُ، ويَصحَّ لهُ الانبعاث، وعَلَّمهُ سُبحانهُ الصّمتَ المُقدّس في حَضرةِ الجَواب؛ فأقامَهُ لذلك في غار العُزلة، وأرهَفَ سَمعَهُ لِهَمسِ الكونِ ورسالةٍ ثقيلةٍ تقتربُ منهُ في أَناة.

﴿يَٰأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾، يمس الصوتُ أعماق محمد -صلى الله عليه وسلم-، فقد كان النداء لحظة اضطفاء فوق دهشته المرتجفة، ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ ومن الليل ستنتهي إليّ!

كانت مكة تضج بالطرقات الموحشة، ومحمد في غاره يتفتق تساؤلًا كلما أرخى الليل صمته، تنذره الرمال الممتدة بحياة مدفونة، بمساء جاف، بفراغ لا يتناهى، وبصمت لا جواب له، حتى أتاه الصوت ﴿يَٰأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾.

﴿يَأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِلُ﴾، يرتجف النبي من فجأة الوحي، تزمله خديجة ويمد عينيه لعينيها، فتمد روحها له وشاحًا، يمتد النداء بـ(يا أيها) وترى اللام في (المزمل) تنثني عليه عطفًا كأنه بها يتزمل بكل ما في يديه، لكن النداء يعلوه وكلما تناءى بخوفه دنى منه الصوت: ﴿ يَأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِلُ، قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (المزمل: ١، ٢)، إذ اللّيلُ هوَ خَلوَتك الآتية بديلًا من اللهِ عن خَلوةِ الغارِ وصمته السَّاكن.

لقد كان هذا الصمت صَمتًا جديدًا يا مُحمّد، صَمتًا مُمتلئًا، فَفيه عُزلَتك الّتي سَيملَؤُها: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل: ٤)، عُزلَتُك الّتي رُبّما تَستَغرِقُ اللّيلَ كُلّه أو نِصفَه، عُزلَتُكَ الّتي سَتتلقى فيها كُلّ الإجاباتِ وبَصيرةِ الطَّريق!

﴿ يَأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِلُ، قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فهذهِ عُزلةٌ بِفَهم جَديد حيثُ يُصبِحُ للصَّمتِ والسُّكونِ حكمَةُ التأمّلِ، وحيثُ يَتلقّى قَلبُك في هَدأةِ اللّيلِ رسائِلَ السَّماء، وينفَتِحُ عَقلُكَ لِكلماتِ الله، وفي محراب اللّيل تولَدُ الحِكمة، وفي اللّيل فقط يستيقظُ ما هو أصيلٌ وكامنٌ فينا.

نحن في الليل نَلتَقي بأنفُسنا، بانحناءاتنا، وبِكلّ عَجزِنا، وبكلّ تباريح الضَّعف فينا، وفي قيام الليل تبدأ مدرسة جديدة، مدرسة الإصغاء العميق، وكلَّما تَكثَّفَ الصَّمتُ سَمِعنا صوت الحقيقة دون مجاملاتِ القوم، وعرفنا مَن نَكون.

ترى كم ينقُصنا لنتعلّم كيف نَخلِق حاسَّةَ الإصغاءِ للتّيه الّذي يكبُر فينا! وللوجعِ الّذي يتمدّد فينا وينتظرُ صوت الشّفاء كي لا يستمرّ فينا.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ ؛ إذ اللّيل هو زمنُ الشّجاعة؛ حيث يُعلّمنا كيف نعترف بين يدي الله بكلِّ تشوّهنا، وبكلِّ الشّهوات التّي لا يَسمعُ دَبيبها في السُّويداء إلّا الله.

اللّيل زمنٌ يكتُبك أو يرسُمك أو يبعثُك من جديد بعد أن نالت الضَّوضاءُ من صمتِك كثيرًا، تغتالنا معاركُ النّهار، وتلتهِمُ منسأتَنا كأنّها تدلّ القوم على موتِنا أو تعجّلَ به، نتلوّث في أحداث الحياة حتّى يُلقى بنا في آخر السَّطر، أو آخرِ الأمر، أو حتّى في ذيلِ القوافل كلِّها.

فيأتي اللُّيل كلحظةِ سلام أبديّة، يغشاها تجلٍّ إلهيّ، يقتربُ منك وتكادُ تشعرُ به إذ يقول لك: «هل من مستغفرٍ فأغفرُ له، هل من سائلٍ فأعطيه»، ها هو بكلّ أسمائه الحسنى وصفاته العليا يأتيك أنتَ أنت، فاعبُر إليه، استلهِم من فضّله فَضلَك، ومن قوّتِه قوّتَك، ومن سَعَته سَعةَ أحلامِك، اعبُر إليه، ها هو يُبيحُ لكَ كُلّما توغّلتَ في النّافلةِ أن يكونَ سمعَك وبصرَك؛ حتّى لا تزيغ، ولا تزلّ، ولا تضلّ.

ها هوَ يسألُك أنت أنت: « هل من سائلٍ فأعطيَه »؟ فاجثُ على رُكبَتيكَ، وارفع يَديك، ودَع المناكبَ تنحَسرُ عنها كُلُّ الأغطِية، وانخَرِط في بُكاءٍ وتوسُّل طويل؛ فقد أراد أن يَمنَحك.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ حتّى تتعلَّم الوَصل، قُمِ اللَّيلَ حتّى يزيدَ القُرب، قُمِ اللّيلَ حتّى ينتهيَ من عالَمِك معنى المُستحيل!

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ فلن يُفلح العَجز ولا الرُّعبُ ولا كلّ الفَوضى أن تبلُغ مَنك.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ ورتّب أوراقك، وتدبّر كيف أمَرَ الله بعد قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ، وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ (المدثر: ٤، ٥) بقيام اللّيل؛ إذ اللّيلُ مِمحاةُ الذّنوب.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ فكلُّ معرفةٍ لا بدَّ أن تُبنى على العِرفان؛ والعِرفانُ هو أن تعرِفَ رَبَّكَ بدمعك، وبتسبيحة خفيّة، وببَثٍّ يَحملُكَ إلى أن تقول: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٦٢) اللَّيل يرفعُ مَقامك؛ ولهذا كان به الابتداء.

فيا كُلَّ مُتَّبِع، ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ إن كنتَ تَبغي حياةً ذاتَ مَعنًى وأَثَر، ثِق أنَّ الرِّسالةَ في الأرضِ حِرفَةٌ متجرها الخَلوة، وقفْل الحانوت لهُ مفتاح، اثنِ الرُّكَبَ على عَتَباتِ الصّمت حتّى تبلُغَ جَلوة الوعي، ويَليقَ برُوحك أن تسمَعَ كَلِمة: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ (العلق: ١) تتلوها أنت مِن بَعدُ على مَلأ مِن النَّاس؛ فللصَّمتِ والعُزلة مُهِمَّةٌ في بِناءِ الذّات، وما المرء إلا نتاج خلواته، فللخلوة رسائلها وإلهامها ووعيها، لكن لاتكن في الخلوة من إنصاتك خاليًا، ولا تحمل ضوضاءك إلى الخلوة، فتكون بها منشغلًا ولا تكن منها خاليًا، وقد قالها السَّكَندَرِيُّ: (ادفُن وجودك في أرضِ الخُمول؛ فما نَبَتَ مِمّا لم يُدفَن لا يَتِمّ نِتاجُه).

لذا؛ كانت مَدرَسةُ القيام في اللّيلِ هيَ الخَطوة الثّانية بَعد قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ، قُمۡ﴾ (المدثر: ١، ٢) فتَدبَّر.

وكان قيامًا هادئًا تَتَجذَّرُ معهُ أقدامُ النبيّ ﷺ كُلَّما رتَّلَ ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾؛ يرتَفِعُ في القِيام وَترتفِعُ مَعه أمّتُه. فقد قال له الله:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ (الإسراء: ٧٩)، وقد كان!

تأمّل مَعِي كلّ ما قَيل، ثُمَّ انتَظِر بَقِيّة المعنى: (كيفَ تكونُ البداية في الخَلوات)!

●●●

اللّبنة التَّاسِعَة

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَ أَقْوَمُ قِيلًا﴾

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ (المزمل: ٦) أيّ: كلُّ ما يَنشأ من أوقاتِ اللّيل، وعبَّرَ القرآنُ بالمفردة القرآنيّة: ﴿ناشِئةَ﴾ إذ ألمحَ للمعنى الخَفيّ؛ حيثُ ناشِئةُ اللّيل تُنشئوكَ وتُربّيك كأنَّكَ طفلُ اللّيل الوَليد!

تَنشأ أزمِنةُ اللّيل في قيامك زَمَنًا زَمَنًا؛ لتُنشئَ في عُمرك أوسمةً تتهيّأُ بها لِزمنِ الفِردوس الأعلى، وبعضُ القومِ يَسيلُ عُمرهم في اللّيل والنَّهار، وأنت تُولَد كلَّ ليلةٍ بألفَ حياة؛ يبعثُكَ ربُّك بعدها ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٩).

ينساب الترتيل فيك، ويفيض صوتك فيك، ويستيقظ المعنى في عقلك، تصغي لحزن الآي وإيقاع المد فتسمو روحك بعيدًا، نسيم الجنة يحرك أشواقك وتتسع في السماء، تتساقط أوجاعك كأنها يبسًا وأنت تتلو على روحك وعد الله، ترتوي ويميل بك فرح غريب وتود لو أن الليل لا ينتهي.

ولقد وصَف القرآن اللّيل بأنّهُ ﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾ (المزمل: ٦) أي: أثقلُ على النّفس، وفي معنًى آخر: أثبتُ في صناعة الخير.

ربما كان هذا بعضًا من معنى قول العلماء أنّ الصّوت يُعيدُ بِناءَ الخلايا من الداخل، أو ربّما برمجتها؛ إذ يتفاعلُ الدّاخل الإنسانيّ مع ذَبذبات الإيقاعِ والتّرتيل، حيث إيقاعِ الكلمةِ ينغمسُ في الخليّة فيُشكّلُها وينشِئوها كطفلٍ يشتدّ على غناء أمّه.

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل: ٤)، هكذا إذن يبدو المعنى؛ حيث يُمسك القرآن كلّ كَلِمة مَتلوّة من صوتِك فيملؤُها حوارًا في داخلك، ويخلُقُ بها أحاسيسَكَ وأفكارك ويصنَعُك من جديد، ينساب الترتيل فيك، ويفيض صوتك فيك، ويستيقظ المعنى في عقلك.

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، ها أنت تصغي لحزن الآي وإيقاع المد فتسمو روحك بعيدًا، يحرك نسيم الجنة أشواقك وتتسع في السماء، تتساقط أوجاعك كأنها يبسًا وأنت تتلو على روحك وعد الله، ترتوي ويميل بك فرح غريب وتود لو أن الليل لا ينتهي.

قم الليل إذن، ففي قيام الليل تنغمرُ الرّوح في عُذوبة عجيبة؛ حتّى كأنّها تتوسّلُ لنهاية اللّيل ألّا يأتي، فثمّةَ سقيا لا تكون إلّا في هدأه اللّيل!

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَ أَقْوَمُ قِيلًا﴾ (المزمل: ٦)، ترى ماذا يصنعُ القرآن وهو يسحَبُك من فِراشك ولذيذِ اختيارك! إنّه يصنعُ الإنسانَ الجديد، ويحيي ما انهدم من بقاياه، يملؤه بالقرآن، ويعيد تشكيله، ويصب في سراديب روحه زيت الوحي حتى يكاد يضيء.

كان القرآن يصنعُ الإنسانَ الجديد، وما أشقَّ أن تبني إنسانًا بخطى لا تشيب!

ما أشق أن تسند إنسانًا بإرادة لا ترتبك، إنسانًا فوق اللذة وفوق الفراش؛ تحمله روحه ولا يهزمه الليل! ما أشقَّ أن تبني إنسانًا، بل ما أشقَّ أن تكونَ إنسانًا!

ما أشقَّ الإرادة التي يصنعها قيام الليل وقرآن الليل، حتى تُطيق نفسُك البشريّة حَملَ ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشمس: ٨) بكلّ تناقُضِها، إذ ما أشق أن تستقيم! بل، ما أشقَّ أن تمتَلِكَ القرارَ للاختيارِ بين شحوبِ اللّيل، وبين شُعلةِ النّور الأبديّة!

ما أشقّ الاختيار بين شهوتك الّتي تَلتَهِمُك، وبين لحظة الشّوق في روحِك إلى طيفِ رَفيفٍ ينبضُ نورًا يمسحُ عنك أثقالًا، ويغيبُ بك في دندنةِ الملأ الأعلى.

ما أشقَّ أن تقدرَ أن تبكيَ على ظلامِ قلبِكَ حتّى يُضيءَ، أن تقدِرَ ألّا تودِعَ قلبك في غير خزائن السّماء! وتلك كانت مهمة القيام صناعة القلب الجديد.

كان القيام مدرسة التحرر وصناعة الإرادة، وكان القيام طويلًا طويلًا، وهكذا البدايات التي تصنع إنسانًا لا ينتهي، وفي كل ليلة كان صوت المعنى يعلو، أنت ما تغدو عليه وما أنت تعدو إليه.

كان الصوت يعلو في القيام: يا هذا، شقيٌّ من يَهَبُ قلبه لغير الله، شقيٌّ من يَرهَنُ قلبه لغير الله.

ها هو سبحانه في قيام اللّيل يعلِّمُكَ الإرادةَ، ويعلِّمكَ كيف تمتَلِكُ بها الحريّة الّتي توقِفُكَ على المسؤوليّة.

ها هو يَهبك ريشةً تمحو بها اعوجاجَك، تكتبُ بها اختياراتِك، ترسم بها ألوانَ سعيِك، وتتصل بالوحي في خلوة طويلة تعيد تشكيلك، وتكتبك أول العابرين نحو الحقيقة.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (المزمل: ٢)؛ إذ القيام مدرسة الإرادة. يُفرضُ القيامُ على محمّد ﷺ وأصحابه عامًا كاملًا؛ فهذه هي التّهيئة الجادّة للتكليف الآتي: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل: ٥)؛ فالرّسالة تحتاجُ مثل شخصِ يحيى عليه السلام حتّى يتقبّل الأمر: ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ (مريم: ١٢)، والشّريعةُ تحتاج ﴿صَبۡرًا جَمِيلًا﴾ (المعارج: ٥) في تكاليفها لا يصنعهُ إلّا مدرسة: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (المزمل: ٢).

ولذلك كُلّه، كان من دَيدَن بعض الصالحين أنّه إذا ابتدأ الطّريقَ أخذَ نفسَهُ بالعزيمةِ في القيام والقرآن عامًا كاملًا؛ يدرِّبُ نفسه لاحتمال القول الثّقيل.

●●●

اللّبنة العَاشِرَة

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾

لماذا القسم بالقلم؟!؛ لأنّ خارطةَ الإنسانِ القادمِ ستَكتُبها سُورةُ القلمِ، وسيقيم القرآن حضارتنا بِالقَلَم.

كانَ القَلَمُ يَمْحُو الوعورةَ التي صَنَعَتها الجاهلِيّة، ويَرسُمُ لوحةَ الغيب الآتي؛ حَيثُ تَنبَعثُ غرناطة الزاهيةُ، وشَوارعُ العِراقِ البَهِيّةُ، وتُربةُ الشّام الوَلودة عُلَماءَ لا انتهاءَ لَهم؛ فَقَد كانَ مدادُ العُلماءِ يُوزنُ بدماءِ الشُّهَداءِ، وكانَ الإسلامُ هُوَ الدِّين الوَحيد الّذي يُقسِمُ فِيه الإلهُ بِأَسِنّةِ الأقلام.

لذا؛ كان أول الخلق القلم، وأول أمر (اُكتُب)، اُكتُب، قالَها اللّهُ للقَلَم في عَلاقة غَيبيّةٍ تُوحي بِقَداسةٍ خاصّةٍ للقَلَم.

اُكتُب، وما أَعظَمَ المفرَدةَ حِينَ يَتَكلّمُ بِها اللّهُ!

اُكتُب؛ لِتَغدوَ الكَلمات تَرتِيلًا أَبَدَ الدَهرِ، وَواقِعًا مَشهُودًا وأَقدارًا حَكيمةً! وقد كان، فقد كان القلمُ يكتبنا ويرسم لوحتنا الجديدة، كان القلم يُصغي لخطى الأَسطُرِ فِينا؛ كَيفَ تَشُقُّ طَريقَها في تَجاويفِ

العُقولِ، فَتَصنَعنا خَلقًا جَديدًا، وكُلّما كان صوتُ صَريرِ القَلم يَعلو في حضارتنا كانَ صَوتُ لَبِنةٍ من جدارِ الجاهليَّة يَتَهدَّم ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ (القلم: ١)، هو الاختيار الإلهي لأداة التغير، ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾، يا لدَهْشة العالَمِ حِين يَدري أنَّ في كِتابِنا المقَدَّس سورةً اسمُها سُورة القَلم!

ويا لدَهشَة التاريخ، إذ يَعْلَمُ أنّ فَضلَ العلم عندنا خَيرٌ من فَضلِ العِبادة ، ولا شيءَ بَعدَ الفَرائضِ أَعْظَم مِنَ العِلمِ؛ حَتّى كَأَنَّ القَلمَ والسَّطرَ هُما مَناراتُ الوصولِ إلى الله تعالى!

لَقد فَقِهَ ذلك الإمام النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ الله؛ إذ كان يُدَرِّس في مَدرسة الحَديث في دمَشقَ أحدَ عشرَ دَرسًا يَوميًّا ثُمَّ يَتفرّغُ للكتابة في اللّيل، وبَقِيَ كَذلك ثمانية وعشرين عامًا على مَصطَبةِ التّأليفِ.

وهذا أحدُ العلماءِ ذَكَرَت السِّيَرُ أنّه كان يكتبُ يَومًا وهو مُستَنِدٌ فَوضَعَ القَلَمَ من يَده، وقال: «إنّ هذا لموتٌ هنيءٌ طَيّبٌ»؛ كأنّه رأى القبول؛ وماتَ من ساعَتِه!

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم: ١)، إذن هِي الّتي جَعَلَت الطّبريّ يَمكُثُ أربعين عامًا يَكتبُ كُلَّ يومٍ أربعين ورقةً في تَفسير القرآن؛ حتى أَنتَجَ لنا أعظَمَ تَفسيرٍ.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، هي الّتي كانَت تُوقظُ الإمام البُخاريّ ثلاثين مرّةً في الليلة كَي يَخُطّ ثلاثين فكرةً اتَّقَدَت في ذِهنِه، وكانَ يَعبد الله بِكلّ سَطرٍ يمتَدّ في التاريخ.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، هي الّتي جَعَلَتِ الخوارزميّ لا تفارق يَدُه القلمَ، وكَتب آخِرَ مسألةٍ وهو يَحتَضرُ.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، هي الّتي جَعَلت شِعارَ الإمام أحمدَ بنِ حنبل: (مع المحْبرة حتّى المقْبرة).

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، هي الّتي جَعَلت الإمامَ النسويّ يَكتبُ حتّى سَقَطَ ماءُ عينه، فَجلَسَ يَبكي على العِلم، فَلمّا نامَ رأى النبيّ عليه الصلاة والسلام يُدنيه ويَسألُه عَمَّا يُبكيه، فيَردّ العالمُ الّذي فَقِهَ مَقصودَ سورة القلم: (فواتُ أجرِ الكتابةِ يا رسولَ الله)، فيقرأُ النبيُّ ﷺ على عَينيهِ؛ فيَستَيقِظُ وقد أبصَر.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، هِي الّتي جَعلت يحيى بنَ معين يَتيهُ فَخرًا، فيقول: (لَقَد كَتَبتُ بيدي هذه ستمِائة ألفِ حديثٍ، وبِمدادِها أَتَقَرّبُ إلى الله).

لذا؛ حقٌّ لأحدِ العُلماءِ أن يقولَ: (لا دِيةَ عِندَنا لِيَدٍ لا تَكتُب)؛ فَهي يَدٌ مشلولةٌ شَوهاء عاجزة أن تصنع خيرًا للبشرية.

فيا ويْحَ قَلبي، لو أنّهُ يَرى أَيدي أمّة القرآنِ اليومَ!

ويا لَحيائِنا منَ الله؛ إذ نُبقي سُورة القلم على الشِفاهِ تُتلى بِلا مِداد، بلا أثر!

يا لَحيائنا، ونَحنُ نغدو أمّةً تُصَفّقُ لِعبقَريّةِ كرة القَدَمِ، ولا تَدري شَيئًا عن عَبقريّة القَلَم!

وقَد قِيلَ: (مَا تَبْنيهِ الأقلامُ لا تَقْوى عَليهِ شَدائِدُ الأيّام).

●●●

اللّبنة الحادية عشَرَة

أَصحاب الجَنَّةِ

قصّة تتّكِئُ عَلى حافَّةِ معنى لَو تَدَلّيتَ فيه بَعيدًا لاكتَشَفتَ مَخزونَ الشُحِّ الّذي يَختَبِئُ فينا عَميقًا، قصة استهل بها التنزيل في العهد المكي فلَقَد كانَ وَراءَها ألفُ عِبرة، كان وراءها نارًا تنتَظِرُ كَي تنهَمِرَ في الحرائق الغَاضِبَةِ الثّائرةِ للقَصّاصِ.

قصةٌ فيها جفاف الشح ونماء النفقة وقَالَها اللهُ لَنا بلُغة ملأى بمعانٍ لَو تَدَبّرناها لَخلقَت نَضرةَ النَّعيم فِينا، قَالَها بلُغة تَحملُكَ على البُراقِ، فَلا تَستَقرُّ بكَ إلّا عَلى ضِفَافِ المنفقينَ، حَيثُ السّنَابلُ الّتي لا تَعرِفُ مَوسمَ الحَصادِ الأَخير، قَالَها بلُغَةٍ تَستَحثُّ جِرارَ الزّيتِ المخبوءةَ في الزّوايَا البارِدةِ أن تَفيضَ في صُحونِ الفُقَراءِ كَي لا تُصبحَ ﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾ (القلم: ٢٠).

تستهل القصة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾ (القلم: ١٧)، وكان القسم بدء العدم لجنتهم، فلقد كانَت خَطَواتُ الفُقَراء في الجَنّة وَهُم يَلتَقطونَ أَنصِبَتَهُم مِنَ اللّوزِ والزّيتون تُثيرُ التُّربةَ وتُلَقِّحُ الجُذورَ حَتّى كَأَنَّها

السَّمادُ المَوهُوبُ؛ فالأرضُ تُجدِبُ إذا مَنَعنا عَنها سَمادَها، وتَتَكسَّرُ فِيها كُلُّ الأشجارِ العَتيقَة.

كانَ البابُ المؤدّي للجَنّة ضَيّقًا، يُجهدُ الأجسادَ المتلاصقةَ في العَبُورِ من خلاله؛ ولَكنّه في طَريقِ العَودة كانَ يَبدو مُتّسعًا للنِّسوة وللسِّلالِ المَليئَةِ بالفَرَح! لكنّهم تحت وطأة الجشع يتّخذون قرارهم ولا يَستَثنُونَ.

تتنزل السورة في مكة وقريش حيث يَصفُ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى لَنا هَمَساتِ الأَقوياءِ يومَ يَستَبيحُهُم الجَشَعُ الّذي تَرقُدُ فيه آلافُ النيّاتِ السَوداء، وَترقُد فيه نيّةُ حصارِ قَمحِ المستَضعَفينَ لألفِ دَهر، الحصارُ اللئيمُ لرائحةِ اللوزِ والبُرتُقالِ ألّا تَمُرَّ؛ فَرُبّما تَشبعُ منها الأُنُوفُ الجائعةُ، الحصار الذي عاشه الصحابة في شعب أبي طالب ولم يستثن منه أحدًا!

ولقد كانَت كَلمةُ: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ (القلم: ١٨) كَلمةً تُلَخّصُ مليَونَ كلمة؛ فَقَد ضاقَت أَودِيَتُهُم عن احتمالِ عابرِ سَبيل.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾: فاستحالت النَّوايا السّوداءُ حَطَبًا يَتَّقِدُ في الثِّمار الّتي ﴿أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ (القلم: ١٧).

ياللّه ويالجهلنا! هل تَعلَم أنَّه في دَفاترِ الغَيب كانَ عَدَدُ المحرومينَ دَقيقًا وواضحًا، وكانَت كُلُّ لُقمةٍ يطعمونها مَعدودَة.

شَقيٌّ إذَن، مَن يَصنَعُ يَأسَ المَحرومينَ!

بُؤَساء إذَن، مَن يُطوِّقُونَ صَبرَ الضُعَفاءِ بالحُزنِ الثَقيل؛ فَيُثقلونَ الحَياةَ عَليهم مَرّتَين، مَرَّةً بالفَقرِ؛ ومَرّةً بالحرمان!

وتَنَبّه، لقد أَحَبَّ اللهُ التَخافُتَ الهامسَ في عالَم الصَدَقة؛ إذ تُطعمُ تَمرَتَك بخفية كَأَنّها طَيفٌ لا تَلحَظهُ العُيونُ، لكَن هذا التخافتَ في سُورة القَلَم يغدُو مَوقفًا خَفيًّا مَلعُونًا، وتَبدُو وَسوَسةُ الشّياطينِ الّتي تَستَحقُ ﴿طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ (القلم: ١٩)، طائف لا تَلحَظُه العُيون الغَارِقةُ في نَومِ الخَطيئَة وبُعدِ العَزمِ ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ (القلم: ٢٤).

ثمّ ماذا كان! في المشهد الغائب عن العيون بَدا لَهيبُ الجُوع في بُطونِ الفُقَراءِ دُخانًا يَتَصاعَدُ في الفَضاءِ، ثُمّ صار يَرسُمُ حَريقًا مُفزِعًا لِطُغيانِ الإنسان!

كانَت جُيوشًا من الأنّات الخَافتة تَزحَفُ في إيقَاع صَامت، يَحشُدُ الصَّمتَ والسُّكونَ جيوشه قَبلَ لَحظَة التَوقيتِ الإلهِيَّة، يَشتَدُّ عَزفُ النِّهاية، ويَبدو الحَريقُ سَيِّدَ الليلِ وسَيِّدَ الكَلمة!

فجأة، يَنتَهي ضَجيجُ الجَنّة، وصَخَبُ القطاف، وألوانٌ تُشتَهى، وذكرياتٌ تَفيضُ بها ظلالُ الأشّجار، ويَمضي ذَلكَ كُلُّه في التهامِ جَشِعٍ لِلنّار يشابهُ جَشَعَ النُفوسِ المُعتِمَة.!

هَل كَانُوا يَدرونَ أنَّ السَّماءَ كانَت تَضحَكُ لِصَوتِ مَوائِدِ الفُقَراءِ وهِي تَصطَفِقُ بِالأطباقِ لِلصِّغارِ!

هَل كَانوا يَعلمونَ أنَّا نَموتُ بِالجَشَعِ، نَموتُ بِالتَراكُم، نَموتُ بِالتَكاثُرِ، نَموتُ يَومَ نَجمَعُ ثِيابَنَا ونَغدو ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ (القلم: ٢٥).

وما أَبشَعَ الحَردَ في جِرسِهِ وفي حَرفِهِ، حَتّى كَأَنَّهُ جُرذٌ يَقضِمُ أعمدة البيوتِ الواقِفة!

أما كانوا يَفهَمونَ أَنّه لا يُحيينا إلّا سَلّةٌ مَثقوبةٌ، نَحمِلُها فَتَسقطُ منها حُبوبُ القَمحِ، يَتَناوَلُها عُصفورٌ جائِعٌ، وتَنمو بَعدَنا على الأرضِ سُنبُلَة.

يُحيينا دِرهَمٌ يَتَورَّدُ به خَدُّ أرمَلةٍ إذ تَرى طِفلَها يَغفُو عَلى دَفتَرٍ رَسَمَهُ شَبعَانَ رَيّانَ من صدقة خفيّة!

يُحيينا دَمعةُ فَرَح تَسقُط في مَوازِينِ السَّماءِ فَتَتَعاظَمُ حَتّى تَفورَ وتَفُورَ وتَملأَ الميزانَ فيُنادى في عَرصاتِ القِيامة: (قَد نَجا فُلانٌ؛ فَقَد اشتَرى بِمالِه دَمعةَ يَتيمٍ دَفعةً واحِدة).

هذه السورة تتنزل في العهد المكي ويبزغ فيها معنى العطاء، في مكان كانت قيم القوة هي الحاكمة فيه على نصيب الضعفاء والعبيد والفقراء، وكانت لغة الحصار هي تهديد الأقوياء للضعفاء، فإذا بالسورة تربط بين النماء وبين العطاء، وما سوى ذلك إلا حريق يلتهم المشهد.

اليوم في نهاية القرن العشرين مايقارب ١٠٠ مليون شخص قُتلوا بدوافع الطمع والجشع والرغبة في الاحتكار، فهل أدركت لماذا كانت هذه المعاني في أول التشكيل!

سورة (ن والقلم)، سورة اجتمع فيها: القَسم بالقلم مع قصّة الجنّتين، لماذا؟ وما صلة الوصل بين القلم والصدقة، وهل يحقّ لنا أن

نتساءل: ما الّذي تَفعَلُه الكتابةُ؟، إنَّها تُطيلُ أعمارَنا!وما الّذي يَفْعَلُه العَطاءُ؟، إنّه يُطيلُ أعمارَنا، ويُبقِي عَلينا مُتَجذّرين؛ لذا؛ اجْتَمَعَ في سُورة (القلم) القَسَمُ بِالقلم مع قِصَّةُ أصحابِ الجَنّة.

خاتمة المعنى:

الحِبرُ الطيّبُ واللُّقمةُ المبارَكةُ بالعطاء سَبيلُك **﴿لأجرٍ غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾** (القلم: ٣) لذا؛ تَنَبَّه، فَقَد كانَت السُّورةُ تَرسُمُ لَكَ الطريقَ للأَثَرِ، الطَّريقَ لِعُمرٍ يَتَطاوَلُ ولا يذبلُ، لعمر لايَصْفُرُ مُبَكّرًا، أو يَمضِي كَرَمادٍ اشتَدّت بِهِ الرِّيحُ.

●●●

اللّبنة الثَّانِيَةَ عَشَرَة

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾

تتنزل الآية فيَنفعِل العقلُ المسلم بهذا المَعنى الهائل، بالحَقيقة الجَديدة، بالإعلانِ الإلهيّ، ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ (القلم: ٣).

ما المعنى، بل ما مَعنى أن تُصبح حَفنةُ العُمر الضَّيئلةُ دهرًا مُمتدًّا؟!

ما مَعنى أجرًا غير ممنون!

ما معنى أن تُنصِت، فإذا للسَّعيِ المَحدود على الأرضِ صدًى في عُمق الوُجود؟!

ما مَعنى أن تُنقَشَ أسماؤُنا في لَوحةِ الكَونِ فلا تغيب؟!

ما مَعنى أن نُوَقّع حُروفنا على وَرقةٍ أبدية لا تَذبُل، ما معنى أن تكون زيتونَةً تظلّ تَلِدُنا زَيتونًا أبديًّا في طعام الفقراءِ وأفراحِ الشّتاء؟!

ما مَعنى أن نَظَلَّ نَتدفّقُ فلا يَمَسّنا الجَفاف! أن نُصبح خَبزًا بِلا انتهاء!

كان ذلك كُلّه من معنى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ (القلم: ٣)، هذه الآية، تَنقُلك من الازدحام الضَيّقِ في المَكان إلى المدى المُتَّسِع، إلى حيثُ يظلُّ النّوار في روحِك لا ينطفئ.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ وغير مَقطوع؛ فأنتَ على خطى هذا المفهوم سَتَظلُّ حاضرًا في صميمِ الكَون.

يتلقف العقل المسلم فقه المعنى من الآية؛ يتلقفه ثُمَّ يخلق به فكرة لا تنتهي، يتلقفه ثم يصوغه على تواقيعَ ابتَكَرها وسَمَّاها (وقفًا لله)، وكانت تلك قَفزةً حضاريَّةً لم تَسبِق إليها البَشريّة؛ إذ يُقرر القُرآن أنَّ الحياةَ يُمكن ألّا تَمُرّ بانعطافَةِ الموت، بمحطَّة التَّوقُّف، بلحظَةِ الصَّمت.

أجر غير ممنون، وَقفٌ، أو صَدَقة جارِية، أو عملٌ لا يَنقَطِع، كانت تلك مُسمَّياتٌ لِفَلسفةٍ جَديدة تَزَيَّنت بِها الحياةُ الّتي صُنعت على إيقاعِ القُرآن؛ حيثُ يتجذّر فلان ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ إلى قيامِ السّاعة.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ (القلم: ٣)، آية فعلها العقل المسلم فرأيناها تَتَجلّى في الأوقافِ الّتي بُذلت لِطلّاب العِلم والمُعتَكفين على حِراسةِ الثُّغور.

رأيناها في القِباب الّتي عَكَف تَحتها العلماء يُعلِّمون النّاس لله، ويَرفعون صوتَهم فوق السّحاب، ويُنقِذون أعمارهم من الدَّفن تحتَ التُّراب.

رأيناها في مُحسن يُوقف ماله للفَتيات القاصِرات عن إتمام تكاليف زواجِهنّ، فيُقدِّم لهُنَّ الحليّ والزّينة جَبرًا للخواطر؛ فتظلُّ لهُ حَسَنةً تتمَدّد في جَنباتِ الكَونِ إلى قِيام النّاس.

رأيناها في وَقف الحُجّاج؛ لمن يَشتهي الحجّ، ولا يَملك نفقتَه، ليظلَّ صَدى السّعي للحجاج والطّوافِ مكتوبًا له في سَمع الملأ الأعلى يُدندَنُ باسمه حَولَ العَرش.

رأيناها في وَقف الزّبادي؛ وما أدراك ما وقف الزبادي!؛ حيث يَضعُ مُحسنٌ صُحون اللَّبن المملوءَة يُعطيها لكلِّ طفلٍ يَشتري لأمّه لَبَنًا، فإذا عَثَر الطفل في الطّريق وانكسر صَحنه؛ أعطاهُ بديلًا مُمتلئًا، فلا تَسقُط له دَمعة وتُسجّلُ له الملائكةُ أنَّهُ أشاعَ الفَرحَ في الطّرقات.

رأيناها في وقف دارِ الثّقة في المغرب؛ حيثُ هُيِّئَت دارٌ لِمن غَضبَت من زَوجِها؛ فتُستَقبَلُ ويُطيَّبُ خاطِرُها، ويُصلَح بَينهما، ثمّ تعودُ مُكَرَّمةً بِهديّة يُسمونها: (تَسكينُ الخَواطر).

رأيناها في المُستشفيات؛ حيثُ تُوقَفُ الأموالُ لِمَن مَرِضَ من الغُرباء؛ فَيُعالَج ثُمّ يُعطى تكاليفَ سَفَره خمسَ قِطَع ذهبيّةً، وثيابًا، وطَعامًا، ودواءً لبقيّة الطّريق، فَيأمَن، وتُسَجّل تلك حالة أمنٍ لِمن أنفقَ يَلقاها يومَ تَفزَعُ العِباد في العَرَصات.

رأيناها في نِسوةٍ يكتُبن المخطوطاتِ؛ ثُمّ يوقِفنَ أثمانَهُنَّ على فَكِّ أسرى المسلمين.

رأيناها في وَقف أراض مِن دِمشقَ تُسمّى: (بالمرج الأَخضر) للقِططِ الضَّالة، والخُيول الَّتي أُرهقت من كثرةِ الجِهاد. يالرقي الأمة ورقي عقلها ورقي التدين في وعيها!!

رأيناها في شبابٍ يَتسامرون بالضَّحك والنُّكات تَحتَ شبابيك المشافي؛ حتّى يَجتَمِعَ عليهم المرضى فَيضحكون، ولا يُغادِر هؤلاء الشباب إلّا بَعد أن يَنامَ المَتعَبون من كثرة الفَرَح.

رأيناها في الوَقف على طعام الطَّلبة؛ فيتفرَّغ الآلاف للعلم والبَحث في عواصِم الحَضارةِ الإسلاميّةَ، وزادُهم يأتيهم من كلِّ حَدَبَ وَصَوب.

رأيناها في وَقف عُمرَ ﷺ للأرامِلِ والمُطلَّقات؛ حتّى لا يَحتَجِنَ رجُلًا لا حقَّ له فيهِنّ.

رأيناها في وَقف نُقطة الحَليب؛ حيث يُوزَّعُ على المُرضِعاتِ حليبٌ وسُكَّرٌ؛ كَي يَتَدفّقَ الحَليبُ في الصُّدور ولا يَنضَب.

رأيناها في صَوت عَبد الحَميد الثّاني يومَ أعلَنَ أنَّ الأقصى وقفُ للمُسلمين؛ لا يَجوزُ بَيعُه، وظَلَّ أجرُ الكلمة لَه إلى قيامِ السّاعة.

رأيناها في أُمّةٍ أرادَت حَياةً لا تَنطَفِئ، وامتِدادًا لا يَنقطِع، و(أجرًا غيرَ مَمنون).

كان القرآن يخلق أمة تتفتح الحياة في أنفاسهم، ثم تلهث الخطوات ولا تدركهم، فقد كان لهم أجر غير ممنون، كانوا على خطى نبيهم، وكان القرآن في العهد المكي يصنع أعمارًا لا تنتهي.

●●●

اللّبنة الثّالثَةَ عَشَرَة

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾

التاريخ: العام الأوّل والثاني والثالث من بعثة النبيّ ﷺ حتّى آخرِ الدهر.

الحدث: ميلاد اليقظة في منتصف الليل.

الجمهور: غارق في فراغ داحس والغبراء.

كان جمهور يفتح القبور للإناث قبل المعركة، يرفع الرايات الصامتة لقتال تنتصر فيه الفوضى دائمًا، لم تكن في الجزيرة العربيّة كلّها ذكرى تستحقّ الحرب، وكان دبيب الجيوش لا يستحقّ أن تحفظه الذاكرة؛ لذا بُعثَ محمّدٌ ﷺ متوهّجًا بالنور، بُعث كي يعتق الخيل من الحزن، ويعلّمها حمحمة الانتصارات الزاهية، بُعث كي يصحّح قبلة المعركة.

وعلى وعد بناء أمّة وقف أبو لهب بكل حريقه يُشعل العاصفة في الوادي النحيل، يشعل الحريق في وجه المزن الّتي تحمل القرب كي تفيض على الجبال الجرداء المنسيّة من خارطة الحضارات الجليلة.

أبو لهب فكرة!

إذْ لم يكن أبو لهب في السورة اسمًا فقط؛ بل كان فكرة اجتمعت فيها كلُّ الآثام، كان عزفًا فاسدًا نفثته الآلهة بفزع تدفع به عن عروشها الخاوية، ومعه استعدّت الجاهليّة، وأخذت مكانها بين الجبهات، وكان أبو لهب يُبقي الحرائق دونها مشتعلة.

بيته كان بيتًا مشؤومًا في مكّة؛ تجمع فيه امرأته طوال الليل حطب المؤامرة ليتّقد زوجها به لهيبًا في وجه عناقيد النور الشهيّة.

لقد كانت يدُ أبي لهب تجمع الأذى من أفواه الأصنام؛ ثمّ تنثره ملحًا أجاجًا في عيون القوافل القادمة بالأحلام الخصبة.

أبو لهب، ولا يكره الفجرَ دومًا إلّا أبناءُ العتمة! ولا يكسر مفاصل الأمل إلّا يدٌ تختزن الوجع في خطوطها، ثمّ ترسله غربان شؤم على أسراب الحمام القادمة.

ورغم ذلك السعي المشؤوم؛ يكتمل القمر المحمّديّ؛ فلا يزداد أبو لهب إلّا تلمّظًا، يودّ لو أنّه النار؛ فتلتهمَ القمر.

أبو لهب، يا لَلعجب! كيف تنسحب النار إلى شخص، تبقيه ملتهبًا، ثمّ يتوحّد في معانيها، يتوحّد بها حتّى كأنه هو أبو اللهب!

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد: ١)، يردّد الضعفاء في سرّهم هذا الدعاء، يحاول هو أن يفلت من فزع النهاية بمشقّة، وتظلّ خيالات الخوف تلاحقه؛ فالدعاء سلاح الضعفاء وبالعجز الأقوياء أمامه.

﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ (المسد: ٢)، يبدو الدّعاء قويًا هائلًا؛ حتّى إنّه يخشاه في تمتمة صلوات المقهورين، ويظلّ الدعاء يسحقه، تشيخ يداه كلّ يوم، وفي قدر رتّبه الدعاء يموت مرجومًا بحجارة تشابه الحجارة الّتي أدمى بها عقب الحبيب.

يا لَتناسق القرآن في مفرداته! اللهب والحطب والنار وحبل من مسد، وفاصلة تنتهي بصوت قويّ وبجرس القلقلة!، حتّى كأنّ الباء في قلقلتها تهد البيت وتحطم أبا لهب.

﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾، أو تظنّ بعدها أنّ هذا الكسب الخبيث يليق به غير (تبّت) و(تبّ).

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ (المسد: ٤)، كان في البيت المشؤوم أنثى تنزع طبيعتها إلى طبيعة أبي لهب، فإذا هي أسيرة الحطب ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ (المسد: ٥)، ولو أنّها تحرّرت باكرًا لما بقي في جيدها.

أمّا أبو لهب، لو أنّه غمر نفسه بالوضوء الّذي في جرار محمّد ﷺ لكان اللهب انطفأ.

في سورة قصيرة إذن، تختزل لك حقيقة أنّ ما يشتعل فيك هو ما سيتّقد لك يوم القيامة، ما يتوهّج في ملامحك؛ ربّما هو نارك غدًا، أبو لهب ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾ (المسد: ٣).

وهذا من بديع القرآن إذ وصف الحال بالمآل، ووصف الواقع بالمتوقّع.

فما هو مقصد السُّورة؟!

هذه السورة هي صوت الوضوح، كأنها تقول لك فتِّش في جوانبك، في نواحي روحك، وما اشتعل فيك سيشتعل لك، والصدأ لا ينتج إلّا صدأ!

يظل السوس مختفيًا؛ لكنّه يتبدّى في لحظة انهيار أعمدة البيت!

القشّ الّذي يتراكم بشدّة يشتدّ في نهاية إحدى الليالي العسيرة، ثمّ يشتعل على غفلة منك، فيأكل أوّلَك وآخرك، ولا يبقي لك حتّى الفتات.

هكذا نحن؛ سننبت في البعث بتفاصيلنا تمامًا كما كنّا مشدودين إليها، نبعث من دروبنا الّتي سلكناها بنيّاتنا المخبوءة.

هكذا إذن سنبعث هناك، بملامحنا الصريحة، بتجاعيدنا الحقيقيّة، وبكلّ الشهوات النابضة فينا بقوّة، بتشوّهنا، وبكلّ اعوجاجنا، ثمّ نرتسم هناك، بألواننا الصارخة والهادئة، تشتمّ الأرواح بعضها بلا مواربة، بلا عطور ثقيلة، فقط برائحة الحقيقة، بروائحنا المخبوءة.

لم تكن (تبّت) إذن إلّا نتيجة منطقيّة لسعي لا ينتمي للّه!

لم يكن (تبّ) إلّا خبرًا متوقّعًا لعمل لم يتّصل باللّه!

ما المعنى؟

المعنى: أنّنا نحن من نكتب رواية حياتنا، مشاهدها، خواتيمها، والمقطع الأخير فيها، ثمّ نلوّنها بما يتوهّج فينا، وفي الزمن القادم ينادى علينا بما كان يستتر فينا، أو يشتعل فينا أو يتوهج في خبايانا.

كانت السورة مكية وكانت تكتب ألقاب القيامة، أبو لهب هو اسم لكل حقيقة مخبوءة، فقد غاب الاسم (عبد العزى) وبقي اللقب اسمًا خالدًا وهو المآل يوم القيامة!

●●●

اللّبنة الرَّابِعَة عَشْرَةَ

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾

هكذا بكلّ صرامة؛ يعلن القرآن أوّل ميثاق في رفعة المرأة، إذ كانت الجاهليّة وفي غفلة من الإنسانية تقرّر أن تغيب المرأة، أن تتساقط على الهامش، أن تنتعل الموت حذاءً قهريًّا.

كانت القبور تطوي مشاريع الحضارة فيها، وتسحب الربيع إلى مواسم الخريف، وكان عقلًا أمّيًا ذاك الّذي عنون الأنثى بأنّها عار الحياة، واختزل المرأة في جسدٍ ورغبة!

وكان لا بدّ أن يشرق زمن لا يتوقّف فيه غيث النساء، وقد كان القرآن وحده على رمال الصحراء يعلن ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير: ٨، ٩)، للمرة الأولى ثمة صوت يزعج القوافل السائرة، ثمة صوت ينادي، أيّها السائر على أرض الجزيرة العربيّة إيّاك أن تنسى أنّ ثمّة الكثير من القبور المخفيّة هناك.

ربّما يلتقط نعلاك في لحظة صمت صوت أنين عميق اغتالته فحولة كاذبة، يتسلّق الصوت المخنوق في القبور إلى فؤادك، وعبثًا تقدر أن

تصمّ أذنيك عن الماضي، تتشبث الأرواح بقدميك، تصبح خطوتك أثقل حتّى كأنّك تتعثّر بهم.

وينبعث العذاب المدفون فيك، تتمهّل، تحاول أن تنفضهم عن قدميك؛ لكنّهم يسكنونك ويطلبون القصاص، عندها تلتحم مع الضعفاء المقبورين في الأرض، وتدرك لماذا بقيت الصحراء يومها مجدبة!، لماذا بقيت مجدبة حتّى نزلت سورة التكوير.

هذه السورة تدهشك وأنت تسمع فيها هلع النهاية، صوتَ اندثار الوجود!

ثم تدهشك وهي توقف البشريّة كي تسألها عن حالة قتل منسيّة!

ورغم انفراط الكون كانت السجلات لا تنسى المظلومين.

تأمّل معي فقط جيّدًا، هل تلمح في أجواء السورة شيئًا؟! هل تلمح كيف ﴿ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ (التكوير: ٢)؟ و﴿ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ (التكوير: ١)؟ وانطفأ الوجود قبل لحظة السؤال عن الموءودة ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ (التكوير: ٩)؟!

هل تلمح علاقة بين تصوير القرآن لانهيار منظومة الكون، وبين السؤال عن وأد النساء؟!

هل تلمح الغضب إذ يعتدى على حياة من يصنعن الحياة؟!

ثمّ هل تراك تلمح صلة بين ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ﴾ (التكوير: ٨) وبين ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ، إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ (التكوير: ١٨، ١٩)؛

حتّى كأنّ الموءودة تنفض عن ضفائرها تراب الليل وتتنفّس؛ فقد بُعث محمّد ﷺ وبعثت النساء معه إلى زمن تقف البشريّة أمامه مشدوهة!

ماذا صنعت سورة التكوير؟

لقد نقلت المرأة من زمن ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ إلى زمن ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ حيث سيصبح للمرأة معانٍ وأسماء من بعضها.

المرأة ستُّ القضاة، الحرّة الكاملة، ستُّ الوزراء، ستُّ الملوك، وسيّدة نساء أهل الجنّة!

زمن يُسجَّل فيه أنّ امرأةً نوديت بستّ العرب؛ وهي "بنت محمّد فخر الدين" مسندة عالمة بفقه الحديث، مكثرة في أخذ العلم؛ فاستحقّت هذا اللقب.

ونوديت أخرى بستِّ القضاة؛ وكانت تلك "مريم بنت عبد الرحمن" حافظة لكتاب الله، وموسوعة في الفقه والقضاء، تتلمذ على يديها العديد من قضاة دمشق.

وهذه "شُهْدَة الإبرِي" تسمّى فخر النساء، ومُسْنِدة العراق، وانتهى إليها إسناد بغداد، ودرس على يديها علماء كبار كابن الجوزيّة وابن قدامة المقدسيّ.

وسيدة أخرى تسمّى "بنفيسة العلم" تلقّى الشافعيّ عنها العلم، وكان إذا مرض أرسل لها غلامه يسألها الدعاء، بل وأوصى أن تصلّي السيّدة نفيسة في جنازته، فلمّا مرّت الجنازة من باب بيتها قامت فصلّت عليه.

زمن كان في الجامع الأموي بدمشق حلقات لبعض هذه العالمات المحدّثات يأتي إليها طلّاب العلم، ذكر ذلك ابن بطّوطة الّذي سمع بنفسه من عدد من عالمات المسجد الأمويّ.

زمن كانت المرأة تصحّح لزوجها وتلاميذه من طلبة العلم فـ "فاطمة بنت أحمد بن يحيى" كانت عالمة فاضلة متفقّهة، تستنبط الأحكام الشرعيّة، وكان زوجها الإمام المطهّر يرجع إليها فيما يشكل عليه من مسائل، وإذا ضايقه التلامذة في بحث دخل إليها فتفيده الصواب، فيخرج بذلك إليهم فيقولون: (ليس هذا منك، هو من خلف الحجاب).

أمّا "فاطمة بنت الإمام مالك بن أنس" فقد رُوي أنّ الإمام مَالكًا كان يُقرَأُ عَلَيه المُوَطَّأُ فَإن لَحَنَ القَارِئُ في حَرف أَو زَادَ أَو نَقَصَ تَدُقُّ ابنَتُهُ البابَ، فَيَقُولُ أَبُوها لِلقَارِئِ: (ارجِع؛ فَالغَلَطُ مَعَك)؛ فَيَرجِعُ القَارِئُ، فَيَجِدُ الغَلَط.

وظلّت النساء العالمات حتّى القرن العاشر الهجريّ يصادقن على صحّة متن الحديث، وأسماؤهن في مخطوطات شهادات الإجازات الّتي تُسلَّم لطلبتهنّ مع توقيع كلّ عالمة.

لقد قال (جولدتسهير) أنّ خمسة عشر بالمِائة من علماء الحديث كنَّ من النساء!

ولقد أحصى المستشرقون ثمانية آلاف عالمة في شتّى العلوم كان يمكن أن يكنّ موءودات!

كلّما انهمرت مفاهيم القرآن في عالمنا ينبت عمر النساء أعمارًا؛ تصبح الحياة بهنّ سخيّة، وتسكب الحضارة النساء أقمارًا، وحين تسير النساء مكبّلة أقدامهنّ؛ يخلعن أدوراهنّ في منتصف الطريق، ويمارسن تفاهة الجاهليّة الأولى عبر جسد مكشوف أو غريزة مزينة، فمن المؤكّد أنّ ثمّة علامة على الطريق تشير إلى أنّنا في اتّجاه الجاهليّة الأولى.

سورة التكوير سورة تهب حق الحياة لمن يصنعن للأمة حياتها، وكل ما يختزل المرأة في جسد العار والشهوة هو جاهلية أولى، وما العولمة اليوم إلا على خطى وأد المرأة في اهتمامات الجسد ودفنها من ثم في قبر العتمة وإبعادها عن زمن الصورة الحضارية، عن زمن ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

اللّبنة الخامسة عَشْرَةَ

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾

هكذا في عبور عجيب للأزمان، واختزال لقرون طويلة نقف أمام الحاجيّات الّتي أحضرناها معنا في رحلة طويلة ربّما امتدّت أحقابًا!كلّ الحاجيّات بلا استثناء، حتّى الهمسة الّتي مرّت دون أن تكتمل.

يا لَلقرآن وهو يقول: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ (التكوير: ١٤)! حتّى كأنّنا نعرف أشياءنا دقّة دقّة، نقطف لحظاتنا لحظة لحظة، ويالجزعنا إذا أغرقتنا كثرة التفاصيل المنسيّة في الصحف إذا نشرت.

ثمّ ماذا؟ ثمّ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ (التكوير: ١١) فجأة نصبح مكشوفين، وتعلن الأخرة موت كلّ الأغطية.

يا الله ما أقسى الحكاية! وما أقسى أن نكون مهمَلين إلى هذا الحدّ بلا سقف ولا رصيف!

ما أقسى حينها انعدام المسافات بيننا وبين الروائح الّتي تنبعث من حاجيّاتنا حتّى الاختناق!

هناك لا مسافات بيننا وبين صوت الخطايا الّتي تطلب قصاصها، الخطايا الّتي تمدّ يدها في ذاكرة الماضي تنبشه حتّى نودّ لو أنّا كنّا ترابًا منسيًّا.

في يوم الحساب لا شيءَ يفصلنا عن هلع تساقط أعمالنا في الموازين، ويومها كم هو عسير أن تتخلّص نفس مما أحضرت!

وكم هو عسير أن تظلّ متشبِّثًا بعذابك طوال الحشر، متشبِّثًا بذاتك، وتودّ لو تفرّ منك أنت، في القيامة كيف يوضع الكلام على الأصابع، على الأفواه المنغلقة بقوّة غامضة، على الألسنة الّتي تفضحنا رغمًا عنّا بلغة لم يتكلّم بها أحد قبلنا، حتّى العتمة الّتي غمرت الكون تخشى في تلك اللحظة من النقصان الّذي ينتظرنا.

نشتهي في زمن ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ (التكوير: ١٢) لو كنّا في حظّ ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ (التكوير: ٥)، لو كان حظّنا فقط غبار النجوم الّتي انكدرت!

وقد قالها عمر رضي الله عنه وسبق بها: (يا ليتني كُنتُ كبشَ أهلي، سمّنوني ما بدا لهم، حتّى إذا كنت كأسمن ما يكون؛ زارهم بعض من يحبّون فذبحوني لهم، فجعلوا بعضي شواءً، وبعضي قديدًا، ثمّ أكلوني ولم أكن بشرًا).

يا لله! ربّما كان يلزمنا إيمانًا أعمق كي تتّسع عقولنا لهذه المشاهد المطويّة في ضمير الغيب!

ويا لخيبة الإنسان حينها يوم يحضر كلّ شيء إلّا ما يستر به عورته.

ربّما هذا ما أرادت أن تبثّه فينا «ميمونةُ بنت شاقولة» الواعظة الحافظة للقرآن؛ إذ ذكرت يومًا في وعظها أنّ ثوبها الّذي عليها -وأشارت إليه- تلبسه منذ سبع وأربعين سنةٍ وما تغيَّر، وأنّه كان من غزل أمّها، ثمّ قالت: (والثوب إذا لم يُعصَ الله فيه لا يتخرّق سريعًا).

﴿مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾!

تحشد سورة التكوير مشاهد انفراط الكون، وتظلّ تكرّر: (إذا، وإذا، وإذا..) حتّى تبلغ بك المطلوب ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ (التكوير: ١٤) حيث العقدة الّتي يجب أن ينتبه لها القلب المسلم؛ أنّ عمرًا كاملًا بانتظاره، وما أقسى أن يدرك حينها، أن من عرج ناقصًا إلى الله لن يكتمل في السماء، وأنّ حضورَه هناك هو ما أحضرَ من هنا!

وهنا السؤال، ماذا يفعل القرآن المكي بالنفس الإنسانية، وكيف يواجهها بالحقائق، ثم ما مقصد السورة؟، أكانت تقول للإنسان هذا العمر هو بضاعتك غدًا، وأن الفردوس يولد من خطاك.

﴿مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾، تلك هي الحقيقة الغائبة عن وعي الإنسان!

اللّبنة السادسة عَشَرَة

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ، مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾

تفجؤكَ هذه النّهايةُ لسُورةٍ فيها حَشدٌ لِكلِّ أشكالِ النهاية الكونية!

فالكونُ في سورة التكوير يَندثرُ، وقُبور الموءودات في المَشهدِ كأنّها خَزّان دُموعٍ ينفجر، وقد كان من حَولَها أُمَّة تَغفو على ذيلِ الوُجود.

في السورة تَبدو الألوان باهتة، واللَّيلُ يَحومُ حَولَ كلِّ رُوح مقفرة، لاشيء في المشهد إلا مطفأة النهاية، وصوت حمحمة النار وزبد العذاب وكون تنفرط ثوانيه.

تلك هي سورة التكوير تتنزل في مكة على عرب ليسَ في أفواههم إلّا صناعة الكَلِم، حيثُ كانت القَصائدُ تلتَمِعُ هُنَيهةً، ثُمَّ تَذبُلُ مِثلَ صَهيل أخير؛ إذ لَم يَكُن في القَصائدِ شَيءٌ ثَقيلٌ قَبلَ أن يُنزِّلَ الله (قولاً ثَقيلًا)، قبل أن تحملهم السورة فوق المكان وفوق الزمان إلى حيث (علمت نفس ما أحضرت)، إلى حيث يفيء السعي لحسابه، ويبتدي من القلب عروج الحسنات.

تلك مقدمة عن تهاوي الكون تنتهي بخاتمة غير متوقعة ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ، وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ، إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٍ، مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير: ١٧ - ٢١).

ما صلة المقدمة بالخاتمة!، هل كان القرآن يحمي الروح من أن تكون رمالًا ظامئة، أن تظل في عري يوم القيامة، أن تنتهي إلى فراغ السجلات، فكان يسرج لها قنديلها بقول رسول كريم!

كانت الجَزيرة العَربيّة كلها في لحظة احتضارها قَبل أن تَنسكب الشَّمس في رِحلَة جبريلَ -عليه السلام-، قبلَ أن يَتَنَزَّل من عَوالم العَرش إلى بُقعةٍ غائبة في فَضاءِ الكَون؛ حيث ستَلتَقي للمرّةِ الأولى الهَباءَةُ التَّائهة في الفَضاءات بسلسِلَة الوَصل، بسلسلة النجاة، للمرّةِ الأولى سَينهمِرُ النّور من رَبِّ العزّة إلى جبريلَ عليه السلام إلى مُحمّد -صلّى الله عليه وسلّم- متّصلًا في سَنَدٍ يَقطرُ شَرَفًا وَعُلوًّا.

كانت الكلماتُ الإلهيّة الهادية مَحميّةً بأجنحةِ النّورِ تَختّبئ مِثل لُؤلؤةٍ في قلبِ مَلَكٍ أمين، تخفقُ الأجنِحَة بروائحَ وألوان وأصوات من الخُلود.

تتنزَّلُ مُعَفّرةً بالمسكِ، ويَهبِطُ بها الأمينُ في ساحاتِ النبوّة؛ حيث تهيئ الكلمات للبشرية موعدها مع النعيم.

كيف كان مُحمّد ﷺ يُطيقُ كُلَّ هذا التجَلّي الجَليل؟!

كيف كانَ يَحتَمِلُ فَيضانَ النّورِ ولَحظةَ انفِتاح الغَيب بِالنَّعيم؟!

لحظة المَزيد من كَلمات الله، كانت لحظة تَمحو كُلَّ التّواريخ قبلَها، لحظةَ استماعِ النبيِّ ﷺ لِكلامِ اللهِ طَرِيًّا نَدِيًّا!

كان - عليه السَّلام - يَتَوحَّد معَ زَمنٍ مِن الغَيب، اللَّحظة فيه تَعدلُ أعمارَنا، فإذا رَحل جبريلُ وانتثَرَ اللؤلؤ من فَمِ النبيّ -عليه السَّلام- أَشعَلَ الوَحيُ فينا وَقودَ عُمرٍ جَديد.

لقد كان يَثقُلُ النبيّ بالوحي حتّى تبرك الدّابة بِهِ؛ فقد تَدَفَّقَ عليه فَيضٌ ينهَمِرُ في كلماتٍ لَيسَت ككل الكَلمات.

كيف كان يُرتِّلها جبريلُ في مَسمعِ النبيّ، أكانَ صوتًا من نعيم أُسطوريّ؟!

كيف كان يُرتِّلها في مَسمع النبيّ، أكان لحنًا من خُلودٍ أَزَليّ؟!

لست أدري، لكنَّ شَوقَ مُحمّد لجبريلَ كان فَوقَ الوَصف؛ فقد كان لقاء تَتَفتَّحُ فيه أبواب السّماء، ويَلِجُ -عليه السَّلام- فيه إلى مَلكوتٍ مُورقٍ بِنورٍ سَخِيّ.

هُنيهة من الزَّمن يَستعذِب -عليه السّلام- فيها ألمَ التلقّي لأَجلنا، ولِأجلِ أن يَصنعَ لنا مَواسم بلا خَريف، كان يَبرد - عليه السّلام- حين يلتقي بالوحي؛ فقَد كان يَطلُّ على أنهارِ الجَلال والجَمال، فيرتَشِفُها القلبُ العظيم دَفعةً واحدة. وكان يَتَهلّلُ وَجهُهُ بعد أن ينفَصِم عنهُ الوَحي؛ فقد امتلأَ روعه وعقلُه وقلبه بالشَّوق.

هل تعرف أنَّ الشّوقَ إلى اللّه يحملُنا خارجَ الزَّمان وخارجَ المكان، ويُبقينا على بِساط القُرب بلا أُمَنية إلّا لقاء الحَبيب!

في كُلِّ لقاءٍ بالوَحي كان وَحده -عليه الصَّلاة والسَّلام- يَشُمُّ ريح المَلأِ الأعلى، كان يذوقُ الجَنّة، أولَيس جبريلُ مِن بعض نعيم الجنّة؟!

وكان في كلِّ لقاءٍ يَستلمُ مفاتيح النُّور، مفاتيح الهُدى لأمّة سَيبقى مَهر بهائِها أن يكون القرآن قدرها.

ألا تلمح كيف جاءت آية: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (التكوير: ١٨) في السورة، حتّى كأنَّ الشّمس بالقرآن تستعيدُ وعيها وتُشرق للأبد.

ولقد ذُكر في التّاريخ أنَّ "نافعًا" المُقرئَ المعروف: كان إذا تكلَّم يُشمُّ من فَمِه رائحة المِسك، فسُئل أَتتطيَّب؟! قال: لا؛ ولكنّي رأيتُ فيما يَرى النائم النَبيّ ﷺ يقرأ في فَمي؛ فَمِن ذلك الوقت أشُمّ في هذه الرّائحة.

من لحظةٍ في رُؤيا؛ ظَلَّ الرّيح ريح المِسك! فهنيئًا لكلِّ مَن عَرفَ كيفَ يتَّصل بالوحيِ الكَريم! اتصالاً يليق بمهمة القرآن العليا.

القرآن طريق الاتصال

كانت السُّورة إذن تُشكِّل رُوحَ المُسلم، وتنفُث فيه الرَّغبةَ كي يَتَّصِلَ بالله، كي يتصل بحبل النجاة، كي تحميه من الانهيار، كي لايكون ذرة تائهة، وكي لا يأت يوم القيامة بلا ميراث، كانت سورة (التكوير) تعلم المسلم أن سند الاتصال هو سند البقاء، ثمّ تقولُ له :إليك الطَّريق عَبرَ القرآن، عبر سَنَدٍ مُتَّصِلٍ كَريم!

●●●

اللّبنة السابعة عَشَرَة

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى، ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ، وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾

لماذا يختار القرآن صفة الأعلى، وما هو المعنى الذي يسمو بك إليه؟!

إن القرآن يَحملُكَ على أن تحلق عاليًا نحو الأعلى، ثمّ تُديرُ ظَهركَ للأدنَى، يَقفزُ بكَ القرآنُ فوقَ كلِّ الاحتمالاتِ، ويَجعلُكَ تنشغلُ بشيءٍ غيرِ مُتوقّع.

يُعطيكَ نَشوةَ المعاني العالية، ويُبقيكَ في إيقاعٍ تَرشَحُ منهُ تراتيلُ عُليا؛ تَصنعُ من عقلكَ وفكركَ وروحكَ قامةً عُليا.

ما معنى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ (الأعلى:١)؟ كرِّرِ الاسمَ الجليلَ في تسبيحك وارحَل إليه؛ ها أنت تتسامى في صعودك، وتُصبح به نجمةً تهفو إلى الأُفُقِ الأعلى.

الأعلى، ياللقلب إذا تناهى إلى الأعلى، وارتقى إلى ذاك المرتقى، وأبى أن يكون في الدرجات الدنى، ثم ماذا؟ ثم ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ (الأعلى: ٢) تَأمّلها، ثمّ أعِدِ النَظرَ في ذاتك؛ فأنتَ العُشبةُ الصَغيرةُ الّتي أبدعها المولى كي تَستحيلَ غابة.

ثم، ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى:٣)، ارفَع الصّوتَ بها، ثمّ أعِدها مَتلُوّةً، ثمّ ارتَشِفها في وَعيكَ كاملة؛ قَدَّرَ لكَ كلَّ الهُدى؛ لأنّكَ أنتَ سِراجُ الكون، ولولاكَ أنتَ ما كانَ للمجدِ صَدًى.

﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ (الأعلى: ٦) حَتّى كأنّ خارطةَ الطريقِ إلى أقدارِ النَصرِ ومَعالمِ التَغييرِ مَخزونةٌ في تِلاوات صَوتِك.

﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾، هل هي تِلاوةٌ مُجرَّدةٌ؟ أم أنّها قراءةٌ ستدعُو كلَّ الغيماتِ كي تُمطرَ غيثًا على المدائِن الّتي عَطِشَت طويلًا؟!

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، قِراءةً تَصْهلُ في داخلك؛ فلا تنسى أنتَ منها إشارةً ولا أمرًا، ولن تنسى منها البشريّةُ آثارَها.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ (الأعلى: ٨)، حَتّى يُصبحَ تُرابُ الأرضِ بين يَديكَ طُرُقَ الخَيلِ الآتِيةِ للفتحِ المبين، ولقد قالها الله بوعده الذي لا يتخلف وبنون العظمة الإلهية، وقد كان كل ما قال جلا وعلا.

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١) تَلحقُها ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ (القلم: ١) يَتبعُها ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (التكوير: ١٨) وبَعدَها ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ (الأعلى: ٦) أكانَ ذلكَ تَواصُلًا وانهمارًا غَيرَ مقصودٍ؟ أم أنّ لُغةً مُستَتِرةً في السُّوَرِ تنتظرُ منكَ أن تكشِفَ عن مَعانِيها الغطاءَ؟!

أيِّ مَدارٍ يُريدُكَ القرآنُ أن تَبلُغَهُ؟!

﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ (العلق: ٤) ثُمّ ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم: ١) ثمّ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ (الأعلى: ١) ثُم يَظلُّ التنْزيلُ يفجَؤُنا في مكّةَ بِمعانٍ كانَ لا يتوقّعُها العَقلُ العَربيّ!

أيّ تَشكيلٍ كانَت السُّورُ تَصُوغهُ فينا قَبلَ أن تَقولَ لنا: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء: ١٠٣).

أيّ لَبِناتٍ كَانت تَرفعُها الآياتُ فينا قبلَ أن تَقولَ لنا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٣) أو تَقولَ لنا: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ (الحج: ٧٨)!

هَل كانَت النَفسُ العاجِزةُ عن (اقْرَأ)، واليَدُ المَبتورةُ عن (القَلَم)، والرُوحُ الّتي لا تَنظرُ إلى (الأَعلى) لا تَصلُح للصّلاةِ ولا لِلجِهادِ؛ فَهِي مَعطُوبةٌ فارِغةٌ مَن وقودها!

كانَ العَربَ يَقدَحُونَ الخَمرَ بالأحلام، ويَنامونَ على قارِعةِ الشِّعرِ، ويُشعلونَ طواحينَ الفَراغِ بالأمنياتِ، كُنّا نحنُ أولئكَ العُربانُ، وكانَ الكَونُ بنا أعمى.

كنّا قَبلَ أن يُدرِكَ عُمَرُ وعُثمَانُ وكلُّ الصَحبِ -رضي الله عنهم- أن صُحُفَ القرآنِ تَصنعُ لنا ذِكرًا عالِيًا إذا بَدأَت الأمّةُ بالفَرائِضِ كما أُنزِلَت؛ الفرائضِ الّتي أوّلها: ﴿ٱقْرَأْ﴾.

الفرائض المنسيّة

﴿ٱقۡرَأۡ﴾، إذَن هي الطَريقُ إلى (الأعلى)؛ لذَلك اختَرنا في هذا الفقه (فقه بناء الإنسان) أن نَتَدَبَّرَ القُرآن؛ لأنّ الوِلادات الحَقيقيّةَ للبَشر تَبدأ على عَتبةِ الوَعي.

دَومًا على الأرض وِلادَةٌ بَيولوجيةٌ لا قَرارَ لكَ فيها، وعلى الطَريقِ وِلادَةٌ يَستحِقُّ تاريخُكَ أن يَبدأَ بها، تِلكَ هي الولادةُ التي تَختارُ أنتَ مِيعادَها.

●●●

اللّبنة الثامنة عَشَرَة

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾

يَتفرَّدُ القرآنُ في التَّعبيرِ عن النَّجاحِ بكلمةِ (الفَلاح)؛ لأنّ الفَلاحَ هو دَيمومةُ البَقاءِ!

(الفَلاح)، مَعنًى يَرتبطُ بالأرض، بِبذرةٍ تُخبّؤُها في رَحم التُّرابِ؛ ثمّ تَحتفِلُ بها جَنائِن مُكتملة ذاتَ حينٍ حتّى لو طالَ اللّيلُ قليلًا.

(الفَلاح)، مَعنًى قُرآنيٌّ يَرحلُ بِكَ إلى الغَدِ حتّى لو كانَ حاضِرُك مُهترِئًا؛ فثَمَّةَ بَذرة تُوشِكُ أن تُزهرَ، تَعرفُها خُطوطُ يَديك الّتي حرثت في الصَّمتِ طويلًا.

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾، و«قَد» للتَّحقيق وللتَّأكيد، حتّى كأنّ بُردةَ القبول تُنسجُ على مَسمَعيك، وعُرسَ الحَصادِ يُوشكُ أن يَكتبَ سَعيكَ عُمرًا مُمتَدًّا فوقَ الفُصولِ، وفوقَ الصّقيعِ، وفوقَ اليَباسِ الّذي كادَ أن يَحرقَك.

الفلاح وليس النجاح

لم يقُل القرآنُ قَد نجَحَ من تزكّى؛ لأنّ المَسافةَ بينَ معنى «النّجاح» ومعنى «الفَلاح» كَما هيَ المَسافة بين حقولٍ يَنتابُها الجَدب وحُقولٍ لَا تعرفُ الشّيخوخَة.

بَعدَ الفلاح يأتي دومًا القَبولُ، والقَبولُ هوَ معنًى فيه سِرٌّ إلهي، وقد قيلَ: (إذا وَقَعَ النِّداءُ منَ اللهِ بِمحبَّةِ العَبد قَبلتهُ جَميعُ البواطِن). هكذا دونَ تَفسيرٍ ولا مَنطقٍ ولا أسباب؛ فَقط لأنّ اللّه «وضعَ له القَبولَ في الأرْض»، وهذا يَكفِي، يَكفي كَي يَقولَ السَلفُ بعدَها كلمَتَهم العَميقة: (أيّها المَقبولُ هنيئًا لك، أيّها المَردودُ جَبَرَ اللّه مُصيبَتَك). يكفي كي يقولَ عَليٌّ: (لا تهتمّوا لِقلّة العَمل، واهتمّوا للقَبول).

أمّا الزكاة في قوله تعالى، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (الأعلى: ١٤)، فتلكَ مُفردةٌ جديدةٌ (الزَّكاة) وهي معنًى فيه وعدُ النّماء، وفوق النّماءِ مزيدُ العَطاءِ؛ حتّى لَتبدو الآيةُ كلُّها مشهدًا احتفاليًّا يُسابقُ دقّاتِ العمرِ المَحدودة.

فلاحٌ وحصادٌ ونماءٌ؛ هو حَصيلةُ من تَزَكّى، ذاك الّذي حَمَلَ المِنجلَ، ثمّ عَكفَ على الشّوك يقتَلِعه من خَفايا النفس.

﴿تَزَكَّىٰ﴾ أيّ: تَطهّر، ثمّ ظلّ يتَكثّر من فِعلِ التَّطهُّر ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة: ١٠٨)

﴿تَزَكَّىٰ﴾ تعني: الطهارة وآثارها؛ فبالطهارةِ تُطوى المسافاتُ إلى اللّه ويَنتهي زمنُ البُعد.

﴿تَزَكَّى﴾؛ لأنّ الخَطايا تُتلِفُ كلَّ المراعي؛ حتّى كأنّ السّعي فيها كانَ سرابًا.

﴿تَزَكَّى﴾ أيّ: تَخَلّص قبلَ أن تَخلص إليه تلك الآثامُ العتيقةُ؛ فقد قيل: (إنّ الخطايا تعودُ لتطلبَ سدادَ الديونِ القديمة).

﴿تَزَكَّى﴾؛ لأنّ ضريبةَ التّقوى هي أهونُ الضرائِب، رُبَّ خطيئةٍ تصمدُ أمامَ إغرائها، أو درجةٍ ترتفعُ بها رغم آلام قدمَيك؛ أهونُ من أن تنزلَ درجةً ثمّ تُفاجَأ بأنّ جحيمًا كان يَغلي تحتَ قَدمَيك.

﴿تَزَكَّى﴾، فإنّ للذنوبِ الخَفيّة دبيبًا يسمعه الّذي ﴿يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ (الأعلى: ٧)، ولها تَبِعاتٌ خَفيّةٌ تنخرُ القواعدَ حتّى إذا خَرّ السقفُ على صاحبه وسَقطت منسأتُه تلفّتَ جَزِعًا فلم يجد إلّا سُوسَ خطاياه يأكلُ قوتَ أيّامه.

لقد فَقِه السلفُ أنّ اللّهَ يريدُ منهم التزكّي من السيّئاتِ قبلَ الاستكثار من الحسنات؛ لذا حين رأى أحدُ السلف صَغيرتَه تَبكيه وهو في سَكراتِ المَوت، نظرَ إليها وقالَ: (يا بُنيّتي؛ واللّهِ منذُ أن أسلمتُ ما نَطقَ لِساني بِخَطيئة).

ذاك رجلٌ فَهِمَ قَلبُه معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (الأعلى: ١٤)؛ إذ الفلاح مآل من تزكّى.

●●●

اللّبنة التاسعة عَشَرَة

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾

ثمانية وعشرون حرفًا، يصنع الله منها كلامًا مستحيلًا؛ يعيد به خلقنا كأنّه نفث الروح.

ثمانية وعشرون حرفًا، يعجز الشعراء والأدباء أن يحذفوا من القرآن حرفًا؛ إذ الحرف وحده مملكة بيان.

ثمانية وعشرون حرفًا، فيها من السخاء ما يفيض بحياة تحملك إلى الخلود.

هل سمعت أنّ ثمانية وعشرين حرفًا قادرة على أن تنقل الأعراب من غناء المعلّقات في سوق عكاظ إلى أسوار فرنسا والصين!

ثمانية وعشرون حرفًا، وتُزرع بعدها المآذن في الهند وفي السند!

ثمانية وعشرون حرفًا، ويُكتب بها تقويمٌ بتواريخ جديدة؛ هي الهجرة وبدر وفتح مكّة والقسطنطينية، ووعودٌ بفتح روما؛ حيث يبلغ القرآن بصهيل الخيل مداه!

سبع سماوات لا تتّسع لفضاء المعاني؛ إذ الكلمة في القرآن تغيّر الوظائف، فيصبح بِهَا الموت شهادة وتصبح الحياة خلافة.

ثمانية وعشرون حرفًا، تتكسّر دلاء البشريّة، ولا زال البحر يتدفّق من الكلمة القرآنيّة.

اليسر اختيار الشريعة

انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ (الأعلى: ٨) في سورة (الأعلى)، هنا وعد إلهيٌّ يتوسّط السورة، ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾، بنون العظمة الإلهية الّتي تعبّر عن إرادة الله المطلقة، والّتي إذا تولّت عبدًا صارت الأسباب له معراجًا.

﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾، وهنا ستنفجر شلالات المعاني، وسيضيء القرآن عقولَنا على مدائن من المفاهيم العظيمة!

سُنُيسِّرك يا محمَّدُ لليُسرى؛ إذ اليُسرى هي خيار الإرادة الإلهية لأمّة محمّد ﷺ؛ فقد قال -عليه السلام-: "إنّكم أمّة أُريد بكم اليُسر".

(اليُسرى) هي إذن الوثيقة الّتي ستمنح الحياة رقيَّها ودلالها، وتمنحها وسطيّة عالية كأنّها ربوة تأنف من الصخور الواقفة بعناد في وجه الصاعدين.

(اليُسرى)؛ لأنه دينٌ سيتّسع لكلّ الظروف والأحوال والأحداث، دينٌ لا يشيخ.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾؛ لأنّ الّذين يختارون التشدُّد لا يعرفون إلّا لونًا واحدًا؛ والإسلام جاء كي يرسم لوحة الحياة بكلّ الألوان البهيّة.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾؛ لأنّ الدعاة الذين سينبثقون في الحياة للبشرية يحتاجون طرقًا ممهّدة من وعورة الأفكار.

(اليُسرى)؛ لأنّها الفجر الضاحك الّذي سيبسم لكلّ أولئك المتعثّرين بذنوبهم، وفي (اليُسرى) سيجدون المأوى.

(اليُسرى)؛ لأنّها ضفّة النّهر الّذي ستأوي إليه كلّ الديانات الّتي أوغلت في القسوة.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾؛ لأنّ دينًا هو عباءة البشريّة لا بدّ أن يجد فيه العاجز بإيماءة عينيه مكانًا في صفوف الصلاة.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾؛ حيث ظلّ -عليه السَّلام- في فريضة الحجّ العظيمة يقول للنّاس كلّما سألوه عن أمر: «اِفعلْ ولا حرجَ»، وظلَّ من بعدُ ينشد لنا: «يسّروا ولا تعسّروا».

رابط الفهم

ألا تلمح رابطًا خفيًّا في السورة بين ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ (الأعلى: ٦) وبين ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ (الأعلى: ٨)؟! ألا تلمح أنّنا كلّما توغّلنا في القراءة الواعية للقرآن اخترنا التيسير؛ فهو قرار العقل الناضج بفهم القراءة.

في السورة وعدان: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ (الأعلى: ٦)، ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ (الأعلى: ٨) ثمّ بعد الوعدين أمر: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ (الأعلى: ٩) كأنّ اليُسرى هي بوابة تدفّق القادمين على دينٍ شعاره يسروا ولا تعسروا.

أوّل السورة تسبيحٌ للأعلى، ثمّ ارتقاءٌ بوعدٍ: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾؛ لأنّها مهاد الطريق ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾، ثمّ أمرٌ بقوله: ﴿فَذَكِّرۡ..﴾!

ثمّ تنبيهٌ إلى علّة الزلل: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾(الأعلى: ١٦)، ثمّ في آخر السورة حديث عن: ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (الأعلى: ١٩)؛ إذ كلاهما الجذور المباركة للأفكار العليا!

سورة الأعلى تختزل معنًى رفيعًا؛ إنّها البشارة بالعلوّ لمن استقى الفكر من: (الأعلى).

●●●

اللّبنة العشرون

﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾

تبدأُ سُورة اللَّيل بِقَسم غريب: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ، وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ، وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ (الليل: ١ - ٣) آيةٌ مُزدَحمة بالألوانِ ومعَاني التَّداخل والتَّكامُل.

لونانِ مُختلفان، وخَلقان مُختلفان، وبتَوحّد اللّونينِ يَكتمِلُ اليوم، وبانصهارِ الزّوجين في كَينونةٍ واحدةٍ تكونُ عمارة الأرض.

يُقسم الله فيها على معنى ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ (الليل: ٤) رُبّما لنلتَفتَ إلى ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ (الليل: ٢) نَلتفت لِنَرى على ماذا تجلَّى فينا؛ إذ حركة الشّمسُ وعاءٌ للعَمل، وزَمن لكشفِ القناديل الباهتة.

غاية التقابل هو التكامل

تُرى هل تَحكي السُّورة في معانيها أنَّ أرواحنا تُشبهُ في جانبٍ (اللّيل اذا يَغشى)، وتُشبه في جانبٍ (النَّهار إذا تجلّى) ولذا؛ كانَ السّعي شتّى!

السعي بالتعبير القرآنيّ وليسَ السَّير؛ لأنَّ السّعي فيه ثلاث معانٍ: (القصدُ، والمَشي، والعملُ بجدّ)، وهنا الكلمة القُرآنيّة تَكشف أبعادَ حركَتِنا؛ فكلُّ خُطوةٍ لا تَنبُت من فراغ؛ بل هي نيّة خَفيّة، ومَشي مَقصود، وحركة نَشِطة لبلوغِ غايةٍ ما.

لذا؛ ظلّ القرآن يردّد: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ (طه: ١٥) ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (النجم: ٣٩) ولَم يَقُل مُطلقًا: إلَّا ما مَشى!

وفي السورة يبدو اللّونُ الأبيض في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ (الليل: ٥)؛ حيثُ هنا آية تَصنعُ إنسانًا بملامح السّماء.

فنحنُ خَلقٌ تَحفظُ الطّرقاتُ خطواتنا، وخَلقٌ يَحتَسي ضَريبة أعمالِه تمامًا مثل شَربة ماء تتغلغَلُ في العُروق!

أعطى

﴿أَعْطَىٰ﴾، هكذا مُطلقة دونَ تحديد لنوع العطاء؛ إذ بعض النّاس يُبعَثُ مُمتلئًا بالأجر حتّى كأنّه قبائل من المطر من كثرة العطاء.

﴿أَعْطَىٰ﴾، في سعيٍ لإنسان يَشتهي حياة تظلّ تُمطر على عُمرِ صاحبها، تَصحَبُه إلى يومِ القيامةِ في ذكريات سخيّة تبدو كأنّها أجوبة السُّؤال الحاضرة؛ تَتدلّى له عَناقيد العَطاء، وتشهدُ له حبّات العِنب؛ أنّه لم يَشبع وحده.

تُرى هل نُحشر نحنُ والزّمن!

هل نُحشر مع كلّ تفاصيلنا؟ مع التّقوى؟!

ما مَعنى ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾؟!

هل هي سُلوك ضامر مخفيّ في العُمق يشعُّ فينا، يشعّ على وُجوهنا رغمًا عنّا؟!

ما معنى ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾؟! هل هو الانسحابُ من ميدانِ الزّينة المَغموسةِ في ضوءِ الشّهرة إلى حيث: ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (الليل: ٢٠)؟!

أم هل هي قرارٌ بتَركِ خطوات الشّهوة إلى سعي سَيحمِله إلى وَعد: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ (الليل: ٢١)؟!

ثم تَنتقل السّورة بنا إلى لونٍ أسودَ يُشبه: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ (الليل: ١) هو لون ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ، وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ (الليل: ٨، ٩).

﴿أَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾؛ فاحتَكرَ مَذاق النّعيم في آنيةٍ ستتشظّى غدًا؛ فإنَّ مالَه لن يَمنحه إذنَ العبور إلى ضفافِ الجنّة.

﴿أَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾؛ فكبّل جود النّدى، ومنَع منه العُشبَ وأيتامًا طُحنوا في حروب كالرّحى.

لكن من هو البَخيل؟

هو إنسانٌ قرّر أن يستفرغَ سنين عُمره في خَزينةٍ صامتة!

هو إنسان أعلن القطيعة مع حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مِائة حبّة!

هو من جفّت ابتسامته، وجفّ وقته، وتجمّد رصيده في قِطَعٍ نقديّةٍ ينتظر وارثٌ أن يحملها!

﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ (الليل: ٩)، بخل وانقطاع عن الإيمان بالجنة، حتّى إنّ خطواته لتراها ضلالًا وخروقًا في ثيابه، خطوات لا تتوقّف عن الانكسارات أمام شهوات كانت أشبه بصدأ يتآكل فيه! خطوات تشمّها في عرق يديه، ويشمّها هو؛ إذ للأعمال روائح!

تأمّل مَعي، لُقمةُ حَرامٍ ذابت في الدّم، ثمّ اشتدَّ عليها اللّحم، واشتدّ بها العظم، فإذا جاءت تنَسلّ بعد سِنين كانت كَصوفٍ ابتلّ ما لقشةٍ فيه من خروج.

لذا؛ إذا رأيتَ من ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ في الدنيا يتناول نصيبه من الخُبز المَسروق، فاعلَم أنّ لليدِ ذاكرةً تشتمّ فيها الآخرةُ رائحة الطّحين المَسلوب.

ربّما تغيبُ عنكَ ذراتٌ مُتناثرة هنا وهناك، تراها وهي تَضيع، لكن اعلم أنَّ ثمَّة أيدٍ خفيّة تجمعُها جيّدًا لتضعها في الميزان، ثمّ تُنادي عليها، لتشهد عليهم أيدِيهم بما كانوا يَكسِبون!

ولقد كان يكفيه يومها لِتبديد شَهوة الغَنائم تلك أن يُصغيَ السّمع لصوتِ الألمِ في ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ (الليل: ١٤)؛ لكنَّ بعضَ النَّاس يعيشُ يومَه المَقسوم له من الدَّهر ورُوحُه جاثيةٌ على رُكبتيها، ونفسُه لا تعرفُ القيام، وأحرف اسمِه ساقطةٌ من ديوان النّعيم.

بماذا تهمِس لكَ سُورةُ اللّيل؟

هل تُخبرك عمّن يُكرّر موته، ويعبُر التّيه مراتٍ عديدة!

هل تُخبرك عمّن يَمشي كلّ يوم في نعشه، ويسمعُ صوتَ تَساقطه؛ لأنّه عن الله ﴿ٱسْتَغْنَىٰ﴾؛ فكان القرار ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (الليل: ١٠)؛ والسِّين هُنا: سين الخِذلان والإهمال، والنّون هنا: نون الجَلال والجَبروت والكمال، وهو الفقير بِبُخله؛ فقد اجتمع عليه حَرفان فقط من الله.

ولو كان السَّعي ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (الليل: ٢٠)؛ لكان القرار ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ (الليل: ٧) بسين التوفيق والإنعام.

في لحظة مُباغتة من ضَجيج سَعينا سيهدأ الحراك، وبعدها ستبرُز الكثير من أسئلة الحِساب، وحينها سنُدرك كم كان المَعنى رهيبًا في قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ (الليل: ٤)، ساعة يُنادى على فلان ليشهد صباحًا شمسه ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ (الليل: ٢١)!

●●●

اللّبنة الْحَادِيَة والعشرون

﴿وَٱلْفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ، وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ، هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾

(الشَّفع والوَتر) ثُنائيّة مُختلفة، (الفَجر واللَّيل) ثُنائيّة مُتناقِضة، ألوانُها مُتباينة، أيُّ بِداية هذه؟! وأيّ سرٌّ تَحتويه؟!

هل هذهِ رسائلُ السَّماء لِمن يكتبون المُستحيل من تَباين الأشياء؟!

لِمن لا يوقِفهم اللَّيل عن انتظارِ الفَجر!

مكتبة
t.me/t_pdf

لمن يُدركون أنَّ الشَّفع يتيمٌ دون الوَتر!

لمن لا يُسقطون الرّاية رغم توغُّل اللّيل؛ فثمنُ الفَجر لا يُضاهى!

في مزيج من عالم الحَقائق والجَمال تتجلّى رسالةُ القُرآن؛ أنَّ الكونَ يموجُ منذ آلافِ العُصور بالأَسودِ والأبيضِ؛ فلا تنحَنِينَّ أبدًا ولو كنتَ في اللَّيل شبهُ مكبَّل؛ فبينك وبينَ انبثاقِ (الفجرِ) مسافةُ صِدق، وأن تُعطيَ عُمرَك فرصةَ الانتظار لزوال اللّيل.

﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ (الفجر: ١)

هنا (الفَجر)، كلمة مَمهورة بـ (ألِفِ الجنس)؛ إذ تَعني: الفَجر في كلِّ الأزمانِ والعُصور والأماكن متوحّدًا ومكتملًا؛ لأنّه أكبر من تاريخِ اللَّحظة، فهو تمامُ الحَقيقة.

أما (اللَّيل)، فمَعدود في السُّورة بعشر ثم هو موثّق بَصفة تُريح المرهَقين إنّه (يَسْر)، عشرٌ فقط، وبعدها ليل يَسري، وفي كلتا القراءتين ظلَّ اللّيل (يسري).

هل يبَدو لَك اللّيل هُنا قيلولةً في عُمر التّاريخ؟ هل يَبدو لك قِطافًا سَريعًا؟ وهل تَرى عرش الفجر بازغًا فوق زمن اللّيل؟

وكما الزَّهر يَشُقّ الصّخر، سيشقُّ الفَجر الليل.

﴿وَٱلْفَجْرِ﴾، يأسِرني هذا القَسم الإلهيّ، وأرى فيهِ كونًا من الكلمات أبديّةً من وعد إلهيّ، يمتدّ كطيفِ النّور وهو يولَد خفيفًا؛ ثمّ فجأة تنسلّ شرارات النًّور، لتمنَحنا جواب الحِيرة.

ودومًا قبلَ انهمار الضّياء، ترى الفَجر يُسافر في دعاء الفُقراء، وتولَدُ حمرة الشَّفق من دِماء الضُّعفاء، وبعدَها يغفو اللّيل أمَدًا طويلًا.

وفي السورة بين الليل وذكر فرعون ذي الأوتاد رابط خفيّ؛ إذ أيّ جَبروت لليلٍ أكثر من أن يكون بُرجًا من الأحجارٍ يظنّ أنّه سيحتلّ السَّماء؛ فإذا به تاريخ ينطفِئ!

أيّ جَبروت لليلِ، أكثر من أن يشتدّ أوتادًا على عَرَق المضطَهدين، ولا يَدري أن حبّاتٍ عرق هؤلاء تنحدر بقهرٍ في شُقوق الأَحجار، تصطفُّ

فِي ضمير الصُخور، تُرتِّل مع تسبيح الجِبال دُعاءَ المَظلومين، وتنتظِر لحظةَ الزِّلزال!

ما أشدَّ بُؤس المُدن التي تتَنشي بغُبارها وبضبابِ الغُرور في عُقول أصحابِها، وتغتال ظلالَ الأشجار!

ما أشدَّ بؤس المُدن المَنحوتة في الصّخر والمُمتلئة بالفراغ! وما أوضحَ ظلال الانهيار على الأوتادِ الظّالمة!

هنا: ﴿ٱلصَّخۡرَ﴾ (الفجر: ٩) و﴿ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ (الفجر: ١٠) و﴿ٱلۡعِمَادِ﴾ (الفجر: ٧) تُوحي بثِقلٍ يُشبه وَزن خطيئةٍ تتدحرج بأهلها نحوَ الهاوية، فقط مَن لم يأثم تكون عوالمه خَفيفة.

في تعرُّجات الصُّخور، وفي أخاديدِ الجبال المَنحوتة تَسمع حِكاية: ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ (الفجر: ٩) لا شيءَ هنا جامِد، هنا تُختزَن ملامح الّذين مرّوا وصاروا هَباءً.

تبدو النُّقوش على الصُّخور مثلَ تَجاعيدِ البشر؛ تكتنز الكثير من الذِّكريات، يوم كانت عادٌ وثمودُ وفِرعونُ يَصنعون نظامًا جبارًا يُدفن فيه نبض الفَجر.

كانت الحِجارة يَومها تَبدو صامتةً، لكنّها كانت في سرِّها تُردّد صلاةً لا يَفهمها الظّالمون؛ فكان ما كان، ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ (الفجر: ١٣) حتّى كأنّ ما مضى كان وهمًا.

أتدري ما الوَهم!، الوَهم: أن تنتهي إلى هباء وأنت تملُك العماد والأوتاد، فقط لأنّك كنت جِسر العُبورِ لِحُمولة (الفَساد).

وصفُ العقلِ بالحِجر

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ (الفجر: ٥) أي: لِذي عقل، ولكنّ التّعبير جاءَ بحروف تُشابه حروف الحَجر!

لماذا يُعبّر القّرآن عن العقل بكلمةٍ تَتقارب فيها الحُروف من حروف الحَجر، الفارقُ فقط في حركة الكَسر؛ كأنّ الآيات تُوحي لك أنّ معركة الانعتاق من أن تكون شِبه حَجرٍ تتمّ بحركةٍ يَسيرة، فقط لا تُغلق الدّروب أمام عقلِك.

فرقٌ يا هذا بين عقل يُنشِئ السُّطور لقصيدة الفجر، وبين حَجر يتجمّع مع آخَرَ ليكوّنَ جُزءًا من وُعورة الصُّخور.

هُنا القُرآن ينتصِر للأَمل، وينتصِر للفكر المحمّل بألوانِ (الفَجر)؛ لكنَّهُ يريد لنا أن نكون على قَدر عَتبات التَّغيير الشّاهقة، وعلى قدر مواجهة ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ. فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ (الفجر: ١١، ١٢).

نحنُ نحتاجُ إلى حارسٍ للكلمات الّتي يفرّغها الطّغاة من المعاني، نحتاج إلى حبلٍ ممتدٍّ إلى السّماء، ونحتاجُ أن نؤمن أنّ تحت كلِّ صَخرة نهرٌ أو غدير.

﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ (الفجر: ١٣) دفعةً واحدة، وبكلّ كثرة العذابِ المُتراكم من خَطاياهم، وبكلّ لَسعاتِ السّوط المُحرقة! صبَّ عليهم وحدهم، ونجَت الأوتاد.

كم هو عجيب هذا المُراد؛ أن تظلّ الحياةُ من بعدك شاهدةً على انهيارِك، شاهدةً على يَديك وهي تَصنع سُلّم الانحدار نحوَ العدَم.

﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ (الفجر: ١٠)

هل مرَرت ذاتَ يوم بقبُور الفَراعنة، بالعيونِ المتحجّرة على رَهبة الفَناء ووَهم البَقاء في اللّفائف المُحنّطة، صوتُ الصّحراء، وَوسوسَة اللّيل، وأشباحُ الماضي كلُّها البراهين الوَحيدة على أنّ القبور الفَارهة تشتدُّ فيها رماديّةٌ باهتةٌ كلّ ليلة.

في السّراديبِ الغَامضة يلتمعُ كلُّ شيء، الأواني المُذهّبة، زينة الرّحيل، شيءٌ واحد فقط يأبَى أن يُبرق أو يُرعد أو يُمطر، يأبَى إلّا أن يزدادَ توحُّشًا وتوغّلًا في العَدم؛ إنّه الجَسد المُسجّى، حيث تنفلتُ فيه الحياة من الحَواسّ، وتتقلّص المياه فلا مدَّ ولا جَزرا لماذا؟؛ لأنَّ (ربَّكَ لبِالمرصاد) فجعلَ البهاء هباءً، وجعلهم في حُكم (كان)!

الفجر شعار المؤمن

ردِّد قَسَمَ ربِّك، ردِّد: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ (الفجر: ١) بيقينِ مَن يعلم أنّها شعارُ المَرحلة، وأن الليل سيسري وأن ربك لبالمرصاد، واهمِس في سِرّك: (والسّاحل لا يتّسع لاثنين؛ إمّا الأمل مدًّا، وإمّا اليأس جزرًا).

●●●

اللّبنة الثَّانِيَة والعشرون

﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾

آيةٌ كَاشفة للحقائق، كأنَّما هي صوتُ المُواجهة مع ذاتِك!

﴿.. لِحَيَاتِي﴾ (الفجر: ٢٤)، إذن لَم يَكن الموتُ سوى لحظة الانتقال لمُشاهدة إنجازِك! ونصُّ القرآنِ هنا يكشِف لك أنّك لا تملُك إلّا حياةً واحدةً، ﴿.. قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر: ٢٤). وكلَّما نَقَصت حياتُك هُنا؛ نَقَصت هُناك، وكلَّما تكامَلت هنا؛ تكامَلت هُناك، وأنتَ مَن بيدِك أن تجعلَ من الزَّمن المَحدود زمنًا مطلقًا كلُّه خُلود، وأنتَ مَن بيدِك أن تَبذُر بذرةً هنا؛ فَتكون لك شجرة طُوبى.

﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، مالذي ينبغي أن نقدمه، وهل لو كُنّا نحيا هنا بأكمل ما وهبَنا الله ثمّ نضعه في أصغرِ عملٍ نُتقنه، مثل نُقطة ماء ظلّت تحفُر في صخرةٍ حتّى انتَهت إلى حفر خندقِ النَّجاة، ترى لو كنّا نفعل ذلك لربما امتلَكنا ناصيةَ النّجاة.

﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، تلك حياة ممتدة، فهل تفَهم منها إلّا أنّها كانت حياةً متّصلة، وكان الموتُ هو توقيتُ بدء الحَصاد!

ما هو الموتُ؟ الموتُ: هو انتهاءُ مواعيد التّعب، وبَدءُ استلام وثيقةٍ مكتوبٍ فيها: «لا نَصَب ولا تعَب»!

وما هيَ تَجربة المَوت إذَن؟ إنّ تَجربة الموت ما هي إلّا ازديادُ مساحةِ الجَمال الأبديّ، هي اتّساع أصواتِ النَّعيم، هي اكتشافُ دَهشة الألوان، هي شَهقةُ اللّحظات المُتوالية من فجأةِ المَخبوء في الجِنان، هيَ لذّة المذاقِ لطعم الفَرح المتواصِل، أو ربّما في وجهها الآخر هي بُقعةٌ من الحياة تتهدّم، أو قطعة من الكون تُبتَلَع إذ ستصمُت الخطوات بعدَها، ولن تصهل الأجور أبدًا! وستتوقّف كلّ العَواصف بعد موتِك، وستَقبض حياتك التي أرسلتَها مثل بِضاعة مُزْجاة تودُّ لو أنّ أحدهم يتصدّق عليك! الموتُ إذن، هو جِسر العُبور فَقط.

وما هي البصيرة؟!

البَصيرةُ: هي رُؤية ما يَعجزُ الآخرونَ عن رؤيته، هي رؤيةُ الخُلود الأزليّ ومعنى النّور حيث لا شيء يُشبه شيئًا من الدُّنيا.

البصيرة هيَ سماعُ حَسيسِها الّذي يَحولُ بينك وبين لوثة الذنب.

البصيرةُ: هي أن تفهَم قولَ النبيّ ﷺ: «يا بلالُ، إنّي لأَسمعُ دَفَّ نعلَيك في الجنّة»، أي: خَشْخَشة صَدى قدَميك على ورقِ النّعيم في الجنّة.

هل تَدري أنّه حيث كان قلبُك ينبِض في الأرض، كانت خَطوتُك تَمضي، فالخطوةُ: هي انعكاس النَّبض، والخطوةُ تستقرُّ حيث يُقيم القلب! وتجذِب ما يُشبهُها.

صَدى خطوات بلال كان يرنّ في مَسمع الجنّة إذن، حتّى كأنّ الطّريق هنا هو الطّريق هناك.

هل تَدري! (نحن لا نختارُ الطّريق؛ نحن نُصبح الطّريق) ثمّ نجدُ أنفسَنا من سالِكيه، نتوحّد مع أعماقِنا، ومع ظِلال أعمالِنا، ونذوب في أفكارنا؛ حتّى لَتَرى فلانًا فتظنّه حَسنةً صالحة، أو تراه سيّئة تدبّ في الظّلام.

﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، بعضُ القوم له حياة مُمتلئة استمرّ فيَضانها مثل انبثاقة زَمزم، وُلِدَ نبعًا صغيرًا في بُقعة من الصّحراء، ثمّ ظلَّ يتَعاظم حتّى سقى البشريّة جمعاء، حياة اتَّسعت آمادُها، واتّسعت من قبلُ آمالُها؛ فاتَّسعت في السّعي خطواتُها!

مصابنا أنّنا ننسَى في غَمرة السَّعي أن نلتقِط وَقع خطواتنا وهي تحمِلنا إلى هُناك، ننسى أن ننتبه إلى تراكُم الصّورة وقد امتلأت بتفاصيل عُبِّئت بريشَتِنا، ننسى أن نُصغيَ إلى دقّات الزّمن وهو يقودُنا إلى ساحة العَرض الأخيرة، ننسى، لكنَّ الله لا ينَسى؛ إذ يُبقي لكَ الخُيوط مُتّصلة نابضة بما كنت تهمِس وبما كنتَ تحيكُ فيها؛ ثمّ يومَ القيامةِ تسمع أُذنيكَ كثيرًا ﴿يَٰلَيۡتَنِي..﴾ (الفجر: ٢٤).

يا ليتني، هوَ صوتُ الحَسرة، حيثُ لا غَمام سيخفّف عنكَ حرارةَ المُشاهدة يوم يُقال لك: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢)، يا ليتَني، وبعضُ الأُمنيات عَذاب!

يا ليتَني، فالأغلالُ لا تُولدُ فَجأةً؛ لكنّها تُصنع زَرَدةً زَرَدة، حتّى إذا اكتَملت صارت قيدًا.

يا ليَتني، وقد كان بعضُ المَهر في مقدورك لو كنتَ مبصِرًا!

يا ليتَني، توجع من يَرى الوُعود تتنفّس أمامه، يراها تَزفر وتشهَق بين يدَيه، وتتلمّظ وتتلوّى، ويودٌّ لو أنّه قدّم لها وِقاء.

يا ليتَني، كلمةٌ يُصبح ألمُها بسعةِ الدُّنيا والآخرة؛ فقد كان يملِك عَتبات القُرب لو أنّه تخلّص من قديمِ عَثراتِه.

لا تُسافر إلى الآخرة؛ بل كُن في الأخرةِ قبل المَوت حتّى لكأنّك ترى عَرش الرّحمن بارزًا.

لأجلِ ذلك، أيقظ عَينيك، واستعِن بالله على بُعدك، وأطِل النّظر إلى نفسك، وتساءَل، هل تَشُمّ في ثيابِك باطِنِها وظاهِرِها بعضًا من ريح الجنّة؟

ثمّ انظُر إلى قامَتِك، هل تُقاربُ قامة الأصفياء؟

انظُر إلى كلماتِك، هل تُقارب حديث أهلِ الجنّة؟

انظُر إلى رُوحك، إلى عينيك، هل يليقُ بها رُؤية الله؟

لا تَرحل إلى الدّار الآخرة؛ بل هاتِها إليك، وابحث عن نَفسِك فيها، أين تجدُ ذاتَك؟ وأين عَثرت عليها؟

صدِّقني، إنّ أشدَّ أنواعِ الألم ألمُ المُعاينة؛ حيث تتألّم بالوعي وبالبَصيرة معًا، حيثُ لا سبيلَ يومَها لدَفن الحقائق؛ لأنَّ الحقيقة مثل الشّمس لا يُمكن وَأدها!

اصنع حياةً لا تنتهي، صدِّقني إنّ بعض المعاني إنْ حمَلتها تجعل العُمر مُمتدًا، لا فواصِلَ فيه ولا انتهاءَ يُضنيه.

وهل تنبّهتَ يومًا أنَّ العُمر لا يُعدُّ عدًّا؟ العمر يُسمع، العُمر يُرى، والعمر يُكتب بالحبر المسكوب من دمِك.

العمر: هو ما اقتُطع منك وأنت تنظُر إليه، تحتَمل وَجع فِراقه وهُم يغادرون به إلى الدار الآخرة، لكنَّهم يَمنحونك به بعد ذلك مقعدًا، أو ربّما مقامَ القُرب.

●●●

اللّبنة الثّالثة والعشرون

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾

دومًا يَشُدّنا المَشهد الأَخير في الرِّحلة، ويستبَيحنا النّداءُ الأَخير، ونَغيب عن بِداية المَشهد، عن لحظة الاتّصال الأولى، عن اللّحظة الّتي إذا تحرّك فيها القلبُ اشتَعلت له السُّرُج في الجنّة، عن شرارةِ المَعرفة الّتي كَشفت للقلبِ مَلكوت الحَقائق؛ فذاقَ معنَى الوعَد ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر: ٣٠).

لكن من نحن قبل المشهد الأخير؟، ربّما قبل ذلك كنا نسيرُ إلى الله في خطٍّ مُتعرّج، يهبِط بنا حينًا حتى نَغيب في قاعِ بئرٍ من الشَّهوة، ثمّ يرتفِع بنا ثانيةً؛ حتّى نَشُمّ في ثيابِنا روائح المَلائكة، ونَكاد نسمع ذِكر أسمائنا في صريرِ أقلامِ المَلأ الأعلى، وبينَ الهبوط والصّعود؛ يبدأ فيضُ الله عَلينا كلّما تجاوزنا مساحاتنا المُعتمة، وقرّرنا الرَّحيل عنها.

يبدأ فيضُ الله حتى يعينكَ أن تبلُغ مقام النّفس المُطمئنّة إذا رآك على عَتبة (المُراغَمة)، تلك «عُبوديّة المُراغمة» التي تسبق الحالة المطمئنة، فهل تعرِفها؟!

المُراغمة: أن تُتعب الشّيطان وقد أرادَ أن يَستريح، أن تُمسك بأوراقِ بقائك في ارتعاشة الخَريف، أن تُوقف النّواح وتَجمع الأكفان، وتُعلن للشّيطان أنّنا باقون ولن نَموت، أن تُفاجِئ الشّيطان؛ فتزَرع الفَسيلة في المقبرة، أن يَفِرّ منك الشّيطان ذاتَ يوم يائسًا؛ وتلك هي الطّريق إلى (النّفس المُطمئنّة).

إن (النَّفس المطمئنّة) هي ثَوابك بعد أن جاوَزتَ عتَبة المُراغمة.

السير المتردّد

ينبّهكَ الله في سورة الفَجر الّتي حَملت ألوانًا متباينةً أنَّ في النّاس من يَحمل مواقفَ مُتباينة؛ عُنوانها: الاضطراب والتذَبذُب، الرَّقص للمصالِح، وانتعال نِصف خطوة؛ حيثُ لا رجولة يشتَدُّ بها ظَهر المَواقف، ولا ثبات إلّا على قدر المكاسب والغنائم.

فحاله: ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ﴾ (الفجر: ١٥) و﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ (الفجر: ١٦) هؤلاء تمتَلكُهم اللّحظة الآنيّة، فإذا اتَّسعت لهم اتّسعوا، وإذا انقَبضت عليهم انقَبضوا.

وهؤُلاء مَن قيلَ فيهم: (النّاسُ في عافيةٍ ما داموا مستورين، فإذا نَزل بهم البلاء صاروا إلى حقائِقهم). هؤلاءِ في هَشاشةٍ شديدة؛ يتكسّرون مع أوّل هزّة، أرواحُهم دومًا في قَلق، وبوصلتهم هيَ المصالح الآنية أولئك مَرضٌ بقاؤه فَسادٌ للحَياة!

انظُر إلى طُغيان الذّات في عالَمِهم، انظُر إلى سلوكيّاتِهم : ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ (الفجر: ١٧) فهذهِ أضعَف الحلَقات الّتي تكشِف أخلاقَنا وتحضُّرَنا!

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ (الفجر: ١٨) وما قيمَتنا إن لم نرقَع ثِياب اللّيالي السُّود!

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ (الفجر: ٢٠) هنا الثَّقبُ الّذي يبتَلِعنا، ويبتَلِع قِيَمنا، ثمَّ لا نَخرُج منه إلّا مُشوَّهين.

إنّ النَّفس المُطمئنّة: هي نفسٌ تصالَحت مع ذاتِها، وقَبِلَت أن تنضمَّ لإيقاعِ التَّسبيح الكونيّ؛ حيثُ كلّ ذرّة كما يُحبُّ الله، وعلى ما يحب الله.

النّفسُ المطمئنّة، رَحلت إلى الله رويدًا رويدًا؛ راغمت ذاتها على ما يرضي الله فقيَّض الله لها أسبابًا كي تَصِل إليه، كي تدخُل (في عِبادي).

النفس المطمئنة سلكت طريقًا أوّله صُحبة؛ وقد قيلَ: (عُنوانُ التَّوفيق في الطّريق صُحبةُ من يُعينك على تَرك عَوائق الطّريق). فإن تمَّت لك فاعلَم أنّ هذا أَوان ارتفاع بُنيانك وتَمام غِراسك.

فإن رَأى منكَ إقبالًا وصَبرًا على بابِه وجهادًا ورباطًا رأيتَ منه المَدَد، ورأيتَه يُمطر عليك (بورود الأمداد بحَسب الاستعداد)، فعلى قَدر مُراغَمتك للشَّيطان وتخلُّصك من عوائِقك يمنَحُك الوُصول.

وَوصْله يكونُ بفضله؛ إذْ يوصِلك إليه (بما مِنه إليكَ، لا بِما مِنك إليه)، ثم يُعينك باحتمالِ اختباراتِ الصّعود، وامتحانات الاصطفاء؛ وذلك كلّه بمنّته وحدَه، وقد قيلَ: (قوَّاهم على حَمل أقدارِه يقينُهم بحُسن اختيارِه).

فإذا رضّاهم بالابتلاء عطَفَ عليهِم بالعَطاء. والعطاء هُنا: أن يبلُغوا مقام (راضيّة مَرضيّة).

لذا؛ اعبد الله بالرّضا، (واعلم بأنّ الرّضا يختصّ من حضَرَ)، يختصّ النَّفس الّتي حَضرت إلى ربّها في الدّنيا بكاملِ اختيارها؛ فاستحقّت أن يُنادَى عليها: ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (الفجر: ٢٨).

غاية المسير بلوغ النفس المطمئنّة

لذا؛ تنبّه إلى أنّ أوّل السورة قسمٌ بالفجر، وآخرها دعوة إلى جنّة صبغت بكلّ ألوان النور والفجر، ومابينهما تعال على لحظات الضعف، وكل قوة في غير مسارها فإن ربك لها بالمرصاد.

يا قارئ سورة (الفَجر)، إن رأيتَ من نفسِك ما تَعلم من النّقص والتّقصير، والبُعد عن المقامات فَقِفْ على البابِ، وقُل:

لا أبرَحُ الباب حتّى تُصلِحوا عِوَجي

وتقـــبَلوني على عَيبي ونُقْصاني

فإن رَضيتُم؛ فيا عِزّي ويا شَــرفي!

وإن أَبيتُـم؛ فمَن أرجو لِعصياني؟

اللّبنة الرَّابِعَة والعشرون

﴿وَٱلضُّحَىٰ، وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾

كانَ - عليه الصّلاة والسّلام - ينَظُر من الغارِ إلى مَكّة، فَلا يرى إلّا خرائِط الجاهليّة قد ارتَسَمت، واستقرَّ فيها اللّيل!

فَقد كادَ اللّيل في الجزيرة أن يَرتَدي كلَّ الحَياة، فَيصبِغها بالسَّواد!

كاد اللّيل، وقَد (سَجى) حتّى ادلَهَمّ أن يَنشر الغَسَق كأنّه قَدرُ العُصور كلّها!

لقد كادَ اللّيل، وكادَ الرّمل أن يشرَب كلّ ماء النّدى، لكنَّ ثَمّة بَرقٌ لَمَع وَمِيضُه في غارِ حراء عبر كلمةِ: ﴿ٱقْرَأْ﴾ (العلق: ١).

﴿ٱقْرَأْ﴾، التّي ظلَّ يُكرّرها الوَحي في مسمع محمّد -عليه السلام-، كأنّه يقول له: يا محمّد! هذا أوان تَصحيح المسير وَزرعِ الصّواب.

﴿ٱقْرَأْ﴾، فهذا كتابُ الغَدِ الآتي، ومِيلاد الرّؤى بعد اتّساع السُّبات!

﴿ٱقْرَأْ﴾، تلحَقها ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم: ١) ثمّ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (المدثر: ٢) ثمّ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل: ٥).

ثمّ ماذا؟، ثمّ لا شيء؛ إذ يتوقَّف الوحي ويتوَقّف المَطر، ولا زالت الفَاقة في الصَّحراء سَيِّدةَ المكان، يتوقَّف الوحي، والجِرارُ تكاد تتكسّر من شِدّة الظَّمَأ، يتوقَّف الوحي دون مقدّمات.

كانت سَنوات الغار تَختَزِل مَلحَمةً طويلةً من البَحث عن الله، تَخْتزِل نَحيب عقلِ مُحمّد وقلبِه على فُقراءِ الرُّوح من قَومِه.

كان غصن الوقت كلَّ مَساء ينَحني؛ فَقد دبّ فيه الذبول ولا جَواب، إلّا أنّ النُّجوم كانت تُضيء لمُحمّد كلّ ليلةٍ؛ حتّى لا تتكاثف عليهِ العَتمة.

أسئلته لا زالت مَنحوتة على جُدران الغَار، وآهات تِلك الأسئلة الحَيْرَى، تَشهد لمُحمّد أنّه رَفض وُجوم الجاهليّة أمام صَمتِ الأصنام، ولا زالت تَطفو على جُدران الغَار ظِلالُ البَحث عن الجَواب، وتَشهد للنُّبوّة بليالٍ وسِنينَ من الدُّعاء!

لا زالت، لكنّ الوحي يومض ثمّ ينقطع، وَمض الوَحي إذن وَمضَةً، ثم انقَطع، هل كانَ ذلك ألَقًا مُؤقّتًا، أمْ لَحظة بهيّة جادَت بها الأَقدار! هل كانَ رَذاذًا خفيفًا مَضى كأنَّما ابتَلعته الرِّمال!

لقد عادَ البَحث إليه إذن ثانيةً، كأنّما هو ظِلّه الّذي لن يَدعه، لكنّه هذه المرّة يبحَث عن وعدِ الاكتِمال!

جزِعَ محمّدٌ من انقطاع النور بعد أن تنفّسه في عقله، واشتمّه بصيرةً تنبض في وعيه.

تُرى! هل جَرّبتَ ذات يوم أن تَلتقي بانتظارِك أن تَلتقي بالجَواب؟

أن تَرى، وتُبصر حتّى كأنّ الدُّنيا كلّها (ضُحى) قَد تَجَلَّت فيها الشَّمس في صَدر السَّماء؟ ثمّ تستيقظُ، فلا تَجد إلّا فَراغ الصّمت يبتَلِع المكان، تجد (الليل إذا سجى).

أتراه عادَ الغُبار مُدَجَّجًا كَي يخنقُ الأُفق المَولُود من تباشير الصَّباح، ثمّ فجأةً وبدون مقدّمات ينهَمِر الوَحي ثانيةً في توقيتٍ إلهيٍّ يَليق بالحِكمة العُليا، في توقيت يعلّمنا أنّ للمطر مواعيد تليق بحكمة الله.

ينهمِر الوحي، وهو يُواسي القلب الّذي أنهَكه الشَّوق إلى الله، ينهمِر بقول الله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ (الضحى: ١) الذي تَجلّى لك ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (الضحى: ٣).

كاف الحبّ

يا الله! أجثُو على رُكبتيّ أمام هذه الآية، ألتصقُ مثل فَراشة بالنُّور المُحمديّ، وأوَدّ لو أحتَرِقُ فيها؛ فيكونُ رَمادي في بُقعةٍ اصطفاها الله لِفَضله، أغيبُ في لحظة سرمديّة، أتخيَّلُ قلبَ مَحمّد كيفَ طاق كلّ هذا القَرب! أيّ ودٍّ هذا! وأيّ عَطاء!

بهذا الفيض يتّسِع عُمر مُحمّد -عليه السلام-، يتّسع بربّه، ويتّسع له الكَون مقامًا عَليًّا، ويتّسع له العطّاء على قدرِ وَعد الكلمات الّتي لو كان البحرُ مِدادًا لنفد البَحر قبل أن تَنفد كلماتُ الله.

لقدْ كُنت ريّانًا يا حبيبي بِرَبِّك، لقد كنت ريّانًا!

لذا؛ صِرت لنا أنت الشّمس والضُّحى بعد اللّيل الدّامس.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ (الضحى: ٣)، أوّاه يا ربّ! كَم هي كلماتك مُفعَمة بأنهارِ الحبِّ الإلهيّ!

(رَبُّكَ) كأنّها لكَ وحدَك!

كم تَزِن الكلمة من الله! بل كم يزِن الحَرف مِنه!، كمْ يزِن صوت التّرتيل بها!

وكم تزِن يا رسولَ الله أنت عند ربّك؛ كي يجعلَك في صَميم الكلِمات الإلهيّة!

هنيئًا لك يا مُحمّد هذا الفَضل، تَفتح لك السّماء أبوابها، ويُناجيك الوَحي، وَيمحو عن ملامِح قلبك خَوف البِعاد. لقَد اصطفاكَ الله، وسّيج عمرك الّذي لن ينتهي بفضلِه.

﴿وَٱلضُّحَىٰ، وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ (الضحى: ١، ٢) الواو: واو القَسَم، والله هو الّذي يُقسِم لكَ بآياته، ويَخُصّك بكافِ المُخاطَب، فلماذا ينَمو الخوف في عينَيك من انقطاعِ الغيث؟ أتَخشى أن يعود عُمرك ورقةً يبابًا على حافّة عُمرٍ يئِنّ من الضّياع؟!

يا مُحمّد، ثِقْ أنّ الخَير يَصهَلُ لك في الغَيب؛ وهذا هو القَسم ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، ثم ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ (الضحى: ٦) تعودُ الكاف ثانيةً في حديثٍ ودود، يرتجِف له قلب الكَون.

﴿فَـَٔاوَىٰ﴾، دون تحديدٍ لطبيعةِ الإيواءِ؛ فالمَأوى هو الله!

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ (الضحى: ٧)، هدايةً ستَعرُج بالبشريّة إلى الله دونَ بُراق ودون خُيول، وسينفَلتُ (الضُّحى) بك يا رسول الله من قيدِ ﴿الليل إذا سَجى﴾، وسيكونُ كلّ الآتي هُدى!

ثمّ ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾ (الضحى: ٨)، وأيّ غنًى يحدّثك عنه الطّير إذا انكسَر قفَصه!

أيّ غِنًى، يُحدّثك عنه الزّيت إذا اتّقد فَتيلُ النّور به!

أيّ غِنًى، يُحدّثك به من كان في حِيرة الغارِ، ثمّ صارَ ﴿سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ (الفرقان: ٦١)، وصارَت للحياةِ به لُغة الرّبيع ولُغة الغُيوم الماطِرة.

لذا؛ قال له الله: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ (الضحى: ١١) والثّاء صفتها الانفتاح؛ لأنّ الثاء وحدَها من تبلُغ إيقاع هذا المَدى الهائِل من النّعمة.

﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ (الضحى: ١)، حكاية الحُبّ الإلهيّ الّذي استحقّه قلب المُصطفى عليه أكمل الصّلاة وأتمّ التّسليم، تَرسم ملامح سُنّة مُحمّد - عليه السّلام - في علاقتِه بربّه؛ حيثُ كانت سُنته حُبًا لله، فتَفطّنْ إن أردتَ الحبّ.

ها هو القُرآن يدُلّك: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١)، اتّبعوه في عُمق شَخصِه قبل أن يكونَ في بَعضِ ظاهر الأمر.

●●●

اللّبنة الْخَامِسَة والعشرون

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾

هلْ تَعلم، ماذا فَعَلت هذه الآية بقلبِ مُحمّد ﷺ؟

هلْ تشعُر بها؛ وهي تتوسّط الآيات بعدَ القَسَم له بالضحى، والتّربيت على روحه بـ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾؟! (الضحى: ٣)

ربّك ثانيةً، بكافِ المُخاطب هو من سيُعطيك، ثمّ يستخدِم معه التّعبير بـ(الفاء) التي تعني سرعة انتهاء الغاية.

والغايةُ هنا ما هي؟! الغاية هنا ﴿فَتَرْضَىٰ﴾(الضحى: ٥) أتراه هذا هوَ الحبُّ الإلهيّ؛ حيثُ يعطي الله عطاءً فوقَ ما مُدّت له الأيدي، واتّسعت له الظّنون.

تأمّلِ الآية وهي تهمس له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾ (الضحى: ٥) الله تعالى بجميع أسمائِه الحُسنى وبكلّ صِفاته يَمنحُ وعدًا سرمديًّا لحبيبه. وعدًا فوقَ الزّمان و فوقَ المكان، أيُّ أمانٍ وأيُّ عطاء ممتدّ عبرَ القُرون!

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ (الضحى: ٥) هُنا لا تُمسح الكلمات، ولا تَتلاشى أبدًا؛ فقدْ رُفعت الصُّحف، وجَفَّت الأقلام. هنا يغرف القلبُ من حِياض النَّعيم ما لا يخطُر على قلبِ بَشر.

العطاء الإلهي

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾، حتّى تورِق من كثرةِ العَطاء كأنَّك أنتَ الجنّة.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾، هنا الكلمات نَعيمٌ حقيقيّ وتحمِل أسرَارها.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾ هنا وُعودٌ تَفيض، سَيقذف بها الغَيب مشاهدَ حيّة في عينِ الحَبيب عمَّا قَريب، هُنا آية ستُصبح كَهفًا يأوي إليهِ المُتعَبون، وتَمشي إليها الأقدارُ هَرولة وسَعيًا!

لكأنّ الآية تقول له: لا تَخشَ يا حبيب الله إذا احتَشد اللّيل كلّه، لا تخَشَ، ولو كنتَ أعزَلَ بِلا سيف ولا رُمح، فمَعك كلمات ستَمنَحُك سَعة العُبور إلى حيثُ لا تحتَمل مُخيِّلة الجَاهليّة بأجمَعِها!

ياللهِ! كم هو الفارقُ، بينَ ألّا تقبِضَ على شيء، وبين أن تتناوَل الأُمنياتِ كلَّها دانية ظِلالُها!

ياللهِ! كم هو الفارق، بين أن يتسرّب السّعي المُضني في شُقوق الضّياع، وبين أن يَنبت زهورًا على أسوارِ أندَلُسَ ستَصدَح كراسي العِلم فيها بالدِّين الّذي لأجلِه هاجَرْت!

يالله! كم هو الفارِق، بين أن يَصنع أبو لهب أُسطورة زعامته، وبين أن يُصبح اسمك يا مُحمّدُ في مساجدِ أوروبّا وعلى ألسِنة الصِّغار في البُوسنة والهِرسك!

يالله! كم هو الفارِق، بين أن تَهمس همسًا في دار الأرقم، وبين أن تُصبح أنتَ حديث الشّرق وحَديث الغَرب وجَدل العُظماء!

يا الله! كم هو الفارِق، بين أن تُطرَد من جبالِ الطّائف، وبينَ أن تبلُغ كلماتُك حدودَ جبالِ الألب!

أيُرضيك يا رسول الله، أن يكونَ في فَرنسا وحدَها أكثر من ألفي مَسجِدٍ تَجري فيها أحاديثك كأنّها حوضكَ الّذي سيَروينا جميعًا؟!

أيُرضيك يا رسول الله، أن تُرفَع المآذنُ في سماء العواصم كلِّها مثل أُصبع السّبابة؛ فلا يُرَدّد في شواهِقها إلّا اسمك واسم اللهِ في عليائِه؟!

أيُرضيك يا رسول الله، بعد أن رُددتَ عن بيتِ الله في صُلح الحُديبية أن يبلُغ عدد المَساجد في العالم أكثر من أربعةِ ملايين مسجدٍ، كلّها تُصلي عليك؟!

أيُرضيك يا رسول الله، بعدَ الحِصار في شِعْب أبي طالب أن تَرحل الجُيوش بالرّايات تهدُر في الأدغال وعلى الشُّطآن؛ تحيي المُدن المدفونة في الحُزن؟!

مِائة عام فقط يا رسول الله، وكانَ الإسلامُ يمتدّ من الصِّين حتّى فَرنسا، وتَموّجُ سفنُ أساطيل المُسلمين في البَحر الأبيض المُتوسط؛ حيثُ تخفتُ الكنائس أصواتَ أجراسِها خشيةً من الأساطيلِ الهادرة!

تسقُط عاصمة بيزَنطة في يدِ الفاتِحين الجُدد، وتُسمّى «إسلام بول» أي: «إستنبول» وتُعلَن عاصمة للخلافةِ المُمتدّة!

تدفَع روما الجِزيةَ عِشرين عامًا للخَزينة المُسلمة؛ الّتي تصنَع من كلِّ درهمٍ كِتابًا!

أيُرضيك كلّ ذلك؟!

الرضى المحمديّ

لم يَكن النَّبيّ ﷺ يبحثُ عن شيءٍ لذّاتِه؛ كان منذُ الغار يبحَث عن الجِسر الّذي يردِم المسافة بين اللّيل وبينَ انبلاج النَّهار.

كانَت الجاهليّة تذبحُ النِّساء بسيوفٍ صَدِئة، وكان مُحمّد ﷺ لا يُرضيه إلّا أن يرى النِّساء قُرّة عينِ الزَّمان، أنَ يَراهُنَّ مثلَ «عزيزة عُثمانة» الأَميرة الصّالحة الّتي نذَرت مالَها وقْفًا سَرمدًا على الخيرِ بلغ تسعينَ ألفَ هِكتار، وكانَت تُخصِّص كلّ عاشُوراء لِكسوة المواليدِ الفُقراء.

أن يراهن مثلَ «أروى القِيروانيّة» صاحبة أوّل وقْف فريد في الإسلام؛ وهوَ وقفُ الضِّياع والبَساتين على تعليمِ الإناثِ؛ حتّى أصبحت النساء بحرًا من العلمِ لا ينزِف.

كانَت «أروى» يومها تَشقّ السُّبل بسنّتك الرشيدة كي تعرِف الغَيمات طريقَها في الصَّحراء.

لقد كان الإنسان يتساقط في الجاهليّة؛ كأنَّهُ كومة رَمل تذرُوها الرِّياح، ومُحمّد ﷺ لا يُرضيه في إنسان الرسالة إلّا أن يراهُ عِملاقًا كنَجمةٍ لا تموت.

كانت الجاهليّة تقفل أبوابَ العَقل، وتُبقي النّاس في دوّامة الغموض، ومُحمّد ﷺ لا يُرضيه في أمّته إلّا أن يَرى كلّ أتباعِه في فلكِ العلم يَسبَحون.

كانت الجاهليّة تصنَع دومًا رصاصاتها باحتراف، ثمّ تختار مَقتلنا، تخترقنا في أحلامنا؛ حتّى لا نرتَدي إنسانيّتنا الكامِلة؛ حتّى لا نَرتدي أعيُننا المُبصرة، حتّى نظَلّ واقِفين بقدمٍ واحدة أو بنصفِ مَسير.

الجاهليّة، تَقتلنا في مَنبعِ الفكرة؛ فتجعَلنا نَغرق في تفاصيلِ الهوامش؛ حتّى يَبلى المَتن، وتضيع كلمةُ النّجاة الحقيقيّة.

الجاهليّة، هي صِناعة العَتمة مَرحلة مَرحلة؛ حتّى نظنّ أنَّ الله لم يخلق فجرًا، ولا شَمسًا، ولا ضُحى.

كانت تلك الجاهليّة، وكان ذلك لا يُرضي مُحمّدًا ﷺ وقد كان الرضى المحمديّ هو اكتمال المهمّة.

﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ (الضحى: ٥) هي معنى ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ (المائدة: ٣)، هي الشّلال الّذي سيظَلّ يتدَفّق حسناتٍ في موازينِ مُحمّد ﷺ، ما ظلّ قلبٌ ينبِض بحُبّ الله.

●●●

اللّبنة السَّادِسَة والعشرون

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

تتنزل سورة (الضحى) في وقت كانَت الجاهليّة فيه تَشدّ الحِبال على الأرواح التوّاقة للانعتاق، وتَحشُد فحيحَ الأفاعي؛ كَي تَعزف صَوت الخَوف، تمتدّ المَسافات الغائمةُ فيها؛ كي تتيه الوُجوه وهي تنَتظر السُّحب.

كانَت الجاهليّة ولا زالت، تُريد لنا أن نَهرم من الانتظار، وأن نسمع حَديث الدُّموع!

لكن القُرآن كان يَتنزَّل في وَهم انتصار الجاهليّة، ويَخصّ الوحي الزَّمن المَكّيّ بسورة (الضُّحى)؛ حتّى يُسطّر الحَقيقة في كَبد الحياة.

هُنا، كان القُرآن يَصنع أولى السّحائب، ويُرتّل في قلب محمّد بإيقاع سيمحُو السّراب ويُبقي المَطر، لذا؛ قال له القرآن: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ (الضحى: ٦)، ففي هذا التّاريخ المَنسيّ من ذاكرة الجاهليّة كان يتَردّد في قلب محمد صدًى عميقٌ للحظة غَارقة في الألم، لحظة يعرفها قلبُ محمّد عليه السلام جيّدًا، فقَد كانَ النّهار حينها ينسَحب؛ لأنَّ بِضع قطَرات من المَطر وقعَت على حجارةِ القبر، مثل دمُوع صامتة؛

فقد ماتت أمه وكان اليُتم أولى مُفردات الحَياة التي تسلّلت إلى وَرقة الزّهر، إلى قلبِ محمّد.

اليتم

ما اليُتم الّذي جاء القرآن يتحدّث عنه ويثير ذكرياته؟

اليُتم: هو انفلاتُ النُّجوم من صَفحة السّماء، وانكسار النُّور فجأة.

اليُتم: هو لَحظة عُبور الطِّفل حافيًا إلى ضفّة اللّيل القاسية.

اليُتم: هو سقوط مَلاءة السرير في وقتِ هجوم العاصفة.

اليُتم: هو فَقدٌ يتَمدّد كلّما هجعَ صغيرٌ في حُضن أمّه، هو دَمعةٌ بلا صَدًى كلّما ناح الحَمام في عُشّه، هو اغتسالُ الغيوم الماطرة بماءِ عينَي طفل حنّ إلى حُضن أمّه.

ربّاه، من يُمسك الحزن! من يرُدّ النّدى على صَفحات الوَرد إلّا من يملك أن يقول: (فآوى).

وحدَه قلبُ محمّد يفهم مدى هذه الآية ﴿فَاوَىٰ﴾ (الضحى: ٦) ووحدَه اليَتيم مَن يعرِف مذاق الوصيّة: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ (الضحى: ٩)؛ إذْ كان له من القَهر ما يَكفيه.

﴿فَاوَىٰ﴾، كَلمة مُطلقة لَيس فيها بيانٌ أو تَحديد للمَأوى؛ إذ يكفي أن يأذَن الله للغَيث أن ينهَمر؛ فيصلّي النّخيل واقفًا.

ثم ماذا؟ ثم ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ (الضحى: ٧) ووَحده من يُكابد الحيرة يَفهم قيمة الهُدى.

﴿فَهَدَىٰ﴾ بتعبيرٍ مُطلق للخَيال؛ كي يلمح كلّ معنى الرّعاية والدّلالة والحِماية.

﴿وَوجَدك عائِلًا فَأغنَى﴾ (الضحى: ٨) غنًى جعل الملوك تودّ لو تُلملم إرثها، ولا تبقي منه شيئًا، ثمّ تظفَر ببعضِ عَطاء ربّك إليك.

ذاكرة الألم

تُرى، لماذا يحكي لنا القُرآن عن ذكريات الزّمان القديم، عن سِيرة الألم، لماذا يعيد القرآن ذكريات الحزن، أم أن القُرآن كان يُبدع في إشعال النِّعَم، فالنّعم قناديل الأمَل.

هنا، يعلّمنا القرآن أن الحزن لَحظة هشّة يمكن مُحاصرتها، يُمكن مواراتها بصوتِ المطر المنهَمر، ويعلّمنا أنّه لا زال في النّعم متّسع للأمَل.

كان القرآن، يعلّمنا كيف نتهجّى الشُّموس، ونصنع منها حروفًا لوعد إلهيّ منتَظر.

يجذِب القُرآن الانتباه إلى الجَمال السَّخيّ في الحياة، لِذا؛ جَعل فاتِحة القرآن كلّه سورةً بدأت بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢).

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١) فكانَ حديثُ النَّبي ﷺ كلّه من بعدُ بِنعمة الله، ومِن نعمة الله، وعَن نعمة الله.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ هو المَقطع الأخير، والمَطلع الّذي يُعلن انتصار (الضّحى) على (اللّيل إذا سَجَى)؛ حيثُ يعلّمنا القُرآن أنْ نَسْتيقظ قَبل الألم وفي ذروة الألَم وبعد الألم.

حيثُ يعلّمنا، أنّ ذِكريات الابتلاء هي طريق الحزن البَطيئة، وهي بقاؤُنا في الحِداد.

تَذكّر بدلًا عنها أنّه (آوَى)، و(هَدَى)، و(أغْنَى) على سَعة هذه النِّهايات المفتوحة، هذه النهايات التي وسعت كل الحزن فما بقي منه شيئًا، لذا؛ قال السّلف الصّالح: (تذاكَروا النّعم فإنَّ ذِكرها شُكر)، وعاشَ ﷺ حياته يُردّد: «أفلا أكونُ عبدًا شَكورًا»؛ فكان جَزاؤه أن يُلهَمَ الحمدَ على بساط العرش بمحامدَ لم يَسمع بها الخلقُ؛ فيكون الحَمد حينها سببًا أن يُقال له: «ارفَع رأسَك، وسَل تُعطَ..»؛ فقَد وعَد الله أن يكون الحَمد سببًا للمَزيد.

احمد الله

حمدُ الله يجلب لك أنفاس المَزيد، هل تَدري ما هو المَزيد؟ هو ما فوقَ الخيال: هو أن ترى دَهشة العَطاء في كلتا يَديك!

كلمةُ الحَمد يا سيّدي، تغطّي سماء الوَجع، وتنقذك من النّقص. لذا؛ ضَع نُقطة بعد التذمّر، ثم انظُر إلى آثار النعمة في أصابع طِفلَيك، في سَهرة المَساء الآمنة، في ليلةٍ ليس فيها مَعنى الأرَق، وعلى وِسادة خالية من الدّمع عُدَّ النّعم مثل خُراف صغيرة، ابدَأ بمعرفة الله، ثمّ لا تتوقّف عند ضحكة طِفلك، أو أسراب العافية الغافية على عتَبة بَيتِك.

ابسُط كفّة يَدك، ثمّ تحسّس حصّتك من نعيم النّوم، ومن بَهجة الأُمومة، ومن حِيرة المَذاق للطّعام، ومن ارتعاشة الفَرح لهَدايا القَدر.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾، كرّرها القُرآن ثلاثَ مرّات؛ كي يعيدنا إلى دِفء البدايات، إلى شَهقة الفرح؛ إذ تدحرجَت الصُّخور عنكَ بعيدًا، إلى دَمعتك؛ إذ انفتَحت أبوابُ الحُلم، إلى خطوتك الواثقة؛ إذ مهّد لك سبيل الصُّعود.

نضِجّ كلّ يوم في انتظارِ ما لم يصِل، ننغلِق على لَحظة المَفقود، ونغيبُ عن الانغماس في فَضاء المَوجود.

يا الله! كَم تغمُرنا الشّكوى، وينسَحب الحَمد من ألسنتِنا، وبَعدها صدِّقني سنَجْمُد رُويدًا رويدًا؛ لأنّ الشّمس رحَلت عنّا إلى آخرِ أزمانها، وحينها سنقول:، أوّاهُ، يا لَهُدوء النّعم في سَيرِها على طُرقات حياتنا، ويا لَضَجيجها إذا رحَلَت!

صدّقني، إنَّ نسيان النّعم هو ابتِداء زَمان العَطَش، لذا:، أغلِق الأبواب عليها بالشُّكر، وإيَّاك أن تكسِر الأقفال بالنِّسيان!

هل تعلم أنّ الحَمد يوقِفك على شَبابيك البصيرة، على رُؤية الفُتات المَنثور كلّ يوم في طبق الحيَاة!

الفُتات الصّغير مثل أنفاسك، دَفقة قدَميك على الأرض، جرعَة الماء الزُّلال، لقمة ساخنة كلّ صَباح، صوت طِفلك، سقف بيتِك المُمتدّ بالسِّتر على عائِلتك، وعينك التي تلتقِط مَشهد الغروب!

وتذكّر، (إنَّ الله ليمُتّع بالنّعمة ما شاءَ، فإذا لم يُشكَر عليها قلَبها عَذابًا).

نحن نحتاج الفرح والبهجة كي نحمل مؤونة الحياة، كل شيء سينتهي قريبًا فلا حاجة لعذاب اللحظة أن ننغمس فيه، تحسس الأرض بقدمك وتناول الجمال من كل شيء، يقظة الصباح وأنت معافى، اكتشف مصادر السرور والفرح في حياتك، استمتع باللحظة، هذه رزق وهبة ونعمة.

كل لحظة لها عالم من الجمال فابحث عنه وتذوقه جيدًا، القدرة على الضحك نعمة، رؤيتك لحياتك بأكملها مصدر للسرور.

السعادة الكبيرة موجودة في التفاصيل، دقق فيها وستصرخ من الاندهاش.

قاعدة: (الفرح متبادل والسرور).

تعلم الاكتشاف للنعم ولكل اللحظات الجميلة والتي تفيض بالثراء والسخاء الإلهي، خذ الحياة بكل روعتها، وخذها كاملة، لا تنقص حظك من سعادتها.

التحديث بالنعمة

﴿فَحَدِّثْ﴾، هكَذا دون تَحديد لموعِد الانتهاء، فنِعمة ربّك من تَتاليها تكادُ تُصبح أزليّة!

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١)، هذه مَخطوطة حَديثك يا مُحَمَّد؛ وهي وثيقة العَهد أن يظلّ التّسبيح في كلِّ فصول الحَياة حَمدًا.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، حدِّث بكلّ الوعود رَغم الحصار؛ إذْ تحت حدِيثك سَينبُت الأمل.

لماذا يتدفق القرآن بهذه المعاني في الزمن المكّيّ؟؛ لأنّ ثمّة معنًى خفيّ لك أيّها السّائر على نهج النبيّ.

إذا رأيت مِعولك يتشظّى على صخرة الخَندق، وإذا رأيتَ ريح الأحزاب تَعصف بكَ وتقلب القُدور من حَولك، وليس لك إلّا عَباءة النبيّ؛ فتدثّر بها، ثمَّ تدثّر، وردِّد القَسَم عاليًا: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ (الضحى: ١)، وتشبّث بذِكرى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ (الضحى: ٦) وافعل كما قيل لك: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١) واعلَم، أنَّ الأمل في وجهِ الجاهليّة شَيء خَطير.

لقد كان القرآن يشعل الشعور بالنعم، ويشعل الأمل، ويخبرك أن مَنْ قَلَبَ المحنَ الأولى إلى منح قادر أن يقلب المحن التالية إلى منح واسعة بسعة الألف المفتوحة على المدى كله!

●●●

اللّبنة السَّابعة والعشرون

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾

تَتَنزّلُ سُورةُ الشّرحِ في مَدينةٍ صارَت مَعبدًا لثلاثمِائةٍ وستِينَ صَنمًا وفي زمن هو زمن قريش وحدها!

تَتَنزّلُ سُورةُ الشّرحِ في مَدينة تُلقي الأصنامُ فيها بمَلامِحِها على الوجُوه الّتي تَطوفُ بالبيتِ، وتتوثّقُ أنّها تَرسمُ تَضاريسَ حياتِهم بمِدادٍ مُميت!

تَخلُقُ لهُم الأصنامُ ثلاثمائة وستينَ سُورًا مُعتمًا حولَ الرُّوحِ وحَولَ العَقلِ؛ حتّى يَظلّ طَوافُهم حولَ بَقيّةِ الحُطامِ وبَقيّةِ الإنسَان.

تَتَنزّلُ سُورةُ الشّرحِ في مَدينةٍ تَرصدُ دَقّاتِ سَاعةِ التغييرِ، وتَتَربّصُ رِمالُها بلَحظةِ الميلاد، في تلك المدينة تنَزّلَت: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشرح: ١)؛ حيث كانَ محمّدٌ -عَليه السّلام- يُواجِه الحَريقَ بِدَلوهِ الوَحيد، وكانَ ذلكَ هو الفداءُ في أرقى مَقاماتِه.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾

ماذا تعني، أكانت تَعني أنْ تَنفَسِحَ الرّوحُ بِبِشاراتٍ تُلقى في رَوعِ النّبي؛ حتّى كأنّه يَرى المَوعودَ يَنبضُ حيًّا!

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ حتّى كأنّكَ تَسمَعُ من وَعدِ اللهِ صَوتَ المفاتيحِ في الأبوابِ الموصَدَةِ!

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ حتّى كأنّك تَرى جُيوشَ الفَتحِ الإسلاميِّ وهي تَحملُ السّيفَ والقَلَم، وتَحمِلُ الدّرعَ والكُتبَ، وتَرى صَحْبَك في فَتْحِ العِراقِ في نَهرِ دجلة كأنّما يَسيرونَ على وَجهِ الأَرْضِ، يَملؤونَ ما بينَ جانِبَي نَهرِ دجلة؛ فلا يُرى وجهُ الماءِ من الفُرسَانِ والرّجال، ويَتحدّثونَ على وجهِ الماءِ كما يَتحدّثونَ على وجهِ الأرض، تُغرِقُهم الطّمأنينَةُ، ولا يُغرِقُهم المَاءُ، ثُمَّ يَبلُغونَ المَدائنَ فاتحينَ!

وتَرَى المُغيرةَ بنَ شعبة يَرُدُّ على رُستم وهوَ يَهْزأُ من رِماحِ المُسلِمينَ القَصيرةِ قائلًا: (ما تَفعلونَ بهذهِ المَغازِلِ)؟!

فيَردُّ المُغيرة: (ما ضَرَّ الجَمرةَ ألّا تكونَ طويلةً). وقدْ كانَ، فقد أصابَت المَغازلُ تلكَ مُلكَ رُستم في مَقتَل.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، حتى كأنك تَرى الشّيخَ «أبا البَركاتِ يُوسفَ البَربَريَّ المَغربيّ» وهو يَفتحُ بلادَ المَالديف وَحدَه من غيرِ جَيشٍ ولا عُدّةٍ ولا عَتاد، يَفتحُها بالقُرآنِ فَقط، ويَظلُّ أهلُها حتّى اليَومَ على دينِك.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، يا مُحمَّد، حتّى صارَ صدرُكَ سِربًا من القَوافِلِ المَلأى بِصهيلٍ لنْ يَشيخَ!

هنا اللهُ بذاتِه العَليَّة يَتولّى أمرَ مُحمّدٍ بكلّ التَّعابيرِ المُوحِيةِ بخُصوصيّةٍ شَديدةٍ له.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؛ لأنّ الجاهليّةَ كُلّها كانت تَترَجّلُ لتَكفين طُيورِ الغَمَام وعَزْف الحداء الأخير، وكانَ الله يُري مُحمّدًا مَصارِعَ الظّالمين؛ حتّى كانَ يُبشّرُ بثِقَة تُودّعُ كلّ اصفرارِ الخَريف قائلًا: «أوّل جَيش من أمّتي يَغزونَ مَدينةَ قَيصر مغفورٌ لهم»؛ فلَقد انشرَحَ الصَّدرُ؛ حتّى رأى سَنابك الخيلِ في رُوما.

ثمَّ ماذا؟ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (الشرح: ٤)؛ حتّى صارَت كلماتُكَ يا مُحمّد سَنابلَ كُلّما حُصِدَت امتَلأت قَمحًا.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾؛ حتّى صَارَت الشّامُ والعِراقُ والجَزيرةُ كأنّها مَهرَجانٌ من نُجومٍ، صحب بَأيِّهِمُ اقتَدَيتُم فَقَد اهتَدَيتُم.

وصارَ أتباعُك بأسماء المُدنِ المُنبَثّة على كلِّ الخَرائط: البُخارِيّ، الطَبرِيّ، الأصبهانيّ، الشِّيرازِيّ، الرّازِيّ، الخَوارزميّ، النَّيسابورِيّ، القَزوينيّ، والنّسائيّ، وصرتَ -كما اعتَرَفَ لك «غُوتَه شاعرُ ألمانيا»- مَنْ تَنبتُ الأزهارُ تحتَ قدَمه، وتَدِبُّ في المَرج الحياةُ من نَفَسه، يُعطي البلدانَ أسماءَها، وتُصبِحُ المدن تحتَ مَوطئ قَدمه عامرة.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ يَرى رُستم في منامه مَلَكًا من السّماء يَنزلُ ثمّ يَدخلُ المُعسكَرَ، ويأخذُ أسلحةَ الجَيشِ، ويَختمُ عليها ختمًا، ويُعطيها لرجل. فيقولُ رستم: من هذا الرّجل؟ فيُقال له: هوَ مُحمّد، ويأخذُ هذا الرّجلُ السِّلاحَ، ويُعطيه لرَجل آخَر. فيقولُ رُستم: من هذا الرّجل؟ فيقالُ: عُمرُ بنُ الخطّاب، فيأخُذُ هذا الرجلُ السّلاحَ، فيعطيه لرجلٍ ثالث. فيقولُ: من هذا الرّجل؟ فيُقال: سَعدُ بنُ أبي وقّاص، فيستَيقظُ رُستم من النّومِ فَزِعًا، وقد أدركَ أنّ العِراقَ آلَتْ لِدينِ مُحمّد.

ثمّ ماذا؟ ثم يَعِدُ اللّه بذاتِه العَليّة مُحمّدًا وصَحْبَه أنّ (معَ العُسْرِ يُسرًا).

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٦)، لقدْ كانَ ذلكَ وعْدًا أزَليًا لِمَن يَحملونَ وَضحَ الحَقيقة في انهمارِ الظلام، لِمَن يَحملونَ على خُيولهم المُزْنَ للبلادِ البَعيدة، لِمَن يَرحلونَ إلى اللّهَ عُلُوًّا، ويَتزوّدونَ باللّه أمَلًا، حتّى تُخاطَ لهم السّكينةُ عُروةً عُروة.

هلْ تَدري، أنّ عواءَ العُسْر يُصيبُ الرّوحَ بالدُوارِ حتّى يُنهِكَها، ويَجعَلها مثلَ بَقيّةٍ من يَأسٍ، يَستمرّ في طَرَقاته؛ حتى تَشتهي الرّوحُ الموتَ، و(يَخسرُ النّخيلُ سِيادَته) في كلّ الوديانِ؟

أخطرُ ما في العُسرِ أنّه يَجعلُك مثلَ تَواقيعِ على الماءِ، أو على الرّملِ، لا شيءَ يَبقى منك إلّا الذّكرى!

العُسرُ، يُبقيكَ بِقيامٍ أُفقيّ، وليسَ عَموديّ، أيّ أنّه يُبقيك دونَ قَامةٍ ولا امتداد، يَضغَطُك بعضُهم كي يَظلّ مَصيرُك مثلَ خطٍّ على السّطرِ دونَ أن يكونَ لكَ ألفٌ شامخة.

واليُسْرُ، هو نَبشُ التُّرابِ عن النّهار المَدفونِ في وَهْمِ العُسر.

اليقين بأن ﴿معَ العُسْرِ يُسْرًا﴾، في الأمَاكنِ الّتي تَتكسرُ فيها المَفاتيحُ نَحتاجُ بشِدَّةٍ أن نُؤمنَ بأن ﴿معَ العُسْرِ يُسْرًا﴾.

في اللّحظَة الّتي نَرتَجِفُ فيها بنِصفِ أمَلٍ نحتاجُ بشدّة أن نؤمنَ بأنّ ﴿معَ العُسْرِ يُسْرًا﴾.

فِي الوَقتِ الّذي نَتنفسُ فيه الحِصارَ هواءً ثَقيلًا نحتاجُ بشدَّة أن نؤمِنَ بأن ﴿مَعَ العُسْرِ يُسْرًا﴾.

وتَنَبّه أنّ مِنْ شَرْحِ الصّدرِ أن توقِنَ بأنّ ﴿مَعَ العُسْرِ يُسْرًا﴾.

﴿أَلَمْ نشرَح لكَ﴾، هذه الآياتُ لنا جميعًا؛ فنحنُ نُشاركُ الأنبياءَ فِي كثيرٍ من لَحظاتِهم، فِي الشّوقِ لطفل، فِي الحُزنِ على رحيلِ ابن، فِي ظُلم ذَوي القُربى، وفِي وَجهِ مُتجَهم يودُّ لو أنّه يَنهبُ من ثيابِك كلّ الستر؛ لكنّهم فِي بَقيّةِ الحِكاية يَختلفونَ عنّا فِي انتصاراتِهم على العُسر.

ثم يقول لك الله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ، وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ (الشرح: ٧، ٨)، إذْ لا فَراغَ فِي حياةِ الأنبياءِ والوَرَثة، لا فراغَ لمن يُريدونَ أن يَجعلوا الإسلامَ هوَ العُنوان الأخير للبَشرية، هؤلاء لابد أن يرابطوا على العطاء.

هلْ تَعلَم! أنّه من الاصطفاءِ أن يَهَبك اللهُ روحًا مُمطِرة، وأقدامًا مُمطرةً، وأصابعَ مُمطرةً؛ فلا يمرُّ عليك لحظةٌ من الزّمن إلّا وتنبت من ورائك فَسيلة، وما يكون ذلك إلا إن بلغت ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ (الشرح: ٨).

إنسان الرسالة

لقد جاءَ القرآنُ المكّيُّ ليَصنعَ الإنسانَ الّذي يَحملُ العَقيدةَ والرِّسالةَ، وقُلْ لي باللهِ عليكَ: ما العقيدةُ بدونِ إنسانِها؟

وتَعَلّم، أنّه على قَدَر الاتّباعِ تَنالُ من طِيبِ الوَعد، من طِيبِ الشرحِ، ورَفعِ الذّكر، ويُسرٍ معَ كلِّ عُسر؛ فهذا ابنُ القَيّم يَصِفُ شَيخَه ابن تيميةَ قائلًا: (وعَلِمَ الله ما رأيتُ أحدًا أطيبَ عيشًا منه قطّ معَ ما كانَ فيه من ضِيقِ العَيشِ وخلافِ الرفاهِيّة والنّعيم بل ضِدها، ومعَ ما كان فيه من الحَبسِ والتهديدِ والإرهاقِ، وهو معَ ذلك مِن أطيبِ الناس عَيشًا، وأشرَحِهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسَرّهم نفسًا، تلوحُ نضارةُ النّعيم على وجْهه، وكنّا إذا اشتدّ بنا الخوفُ، وساءَت منّا الظنونُ، وضاقَت بنا الأرضُ؛ أتَينَاه فما هو إلّا أن نراهُ ونَسمعَ كلامَه فيذهبُ ذلك كلُّه، وينقلبُ انشراحًا وقوّةً ويقينًا وطمَأنينة)؛ وكان ذلكَ كُلُّه من أثَرِ السيرِ على خطى النبوّة.

●●●

اللّبنة الثَّامِنَة والعشرون

﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾

﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ (العصر: ١)، سورةٌ تتنزّل في العهدِ المَكّيّ، القَسم فيها عَميق، ويحتاجُ إلى تأمّل بَطيء.

يتَساءل المرءُ وهو يَتلو هذا القَسم: ما الّذي تبتغيهِ السور المكّيّة مِنّا؟!

أتراها توقف الإنسان أمامَ مرآةِ الذات، وتُعيد تَشكيله وتكتُبه ثانية؟

هُنا، لا يُقسم الله بالكعبة، ولا بالصلاة، ولا بأيّ شعيرة من شعائر الدين؛ لكنّه يقسُم بالعصرِ، ومن قبلُ بِ(الضُّحى) وبِ(الفجرِ) ويقلبُ معهم كلَّ الفكرِ.

يُقسم اللّه بـ(العصرِ) وهو بقيّة النّهار، وما سَبق الغُروب؛ لكنّه ذروة النَّهار، وهو الفائض المُتبقّي من زمنِ الشَّمس، ومن زمن النهار.

يُقسم الله بِ(العصرِ)، والقَسم هُنا قَسَم عالٍ، أشبه بتلكَ الطَّرقة الّتي تَقرع أجراسك؛ فتهتزّ لها كلّ أنحائك، ثمَّ لاَ تَبقى الأرضُ بعدها ثابتة.

﴿وَٱلۡعَصۡرِ، إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ (العصر: ١، ٢)، بإيجازٍ ليس فيه ألغاز؛ حيثُ يحمِلك التَّعبير القرآنيّ إلى لحظةٍ غارقة في الوضوح والبَراءة من كلّ التَّمويه.

الإنسان كلُّه في خُسرٍ مُطلق، إلّا من رَسم مسار الرُّوح على طريقةِ القُرآن.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ (العصر: ٢)، مثلَ رَماد تنفَرِد به غابة تَعاقب عَليها الفُصول، وأنتَ فيه مثل كَومة تَنقص كلّ يوم لصالحِ الرِّياح، ولا شيء غير الرِّياح اليوميّة.

لِماذا يُقسِم الله بِ(العَصر) مُطلقًا؟ ثم يقسم على جنس الإنسان، فهل هو عَصر كلِّ إنسانٍ فينا؟

هل هوَ عُمر كلّ إنسان فينا؟!

هل يُخبرك القُرآن هُنا أنَّ الكثير من النَّاس يولَدون ويتنفَّسون كلَّ يومٍ، لكنَّكَ وحدَك مَن تَعيش عُمرك؟

فالعُمر تَجربة فَرديّة؛ لا يُمكن أن يُشاركك فيها أحد، ووحدك من تعيش خسرانك، العمر هو انفرادُك بكتابةِ قَصيدتك الخاصّة، بأبنِيَتها، وأبياتِها، وقافِيَتها، وإيقاعِها، وبصوتِ المواسم الغنيّة فيها، قصيدة، أبياتها مَرصوفة بِلَبِنات تَحكي احتراقًا ذاتيًّا أصبح فيما بَعدُ توهُّجًا خالِدًا في دَندنة المَلأ الأعلى.

﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾، إذ العَصر هوَ ما تَبقَّى لك؛ حيث يتحرَّك النُّقصان بِحُرّية عالِية في مَمرّات عُمرك، ويكسب كلّ يوم من بَعضِك.

فهل وعيت معنى القسم بالعصر!

العصر في وعي السلف

كان السَّلف الصالح يفقَه المعاني المَخزونة في ثَراء الكلمات القُرآنيّة، ويُدرك أنَّ (المَرء عُنوان أمرِه؛ وأن المرء هو عُنفُوانُ عمره) وأنَّ الزَّمن هو مَناط المُساءلة يوم القِيامة.

﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾، ينغَمِس السلف بوَعي في الكلمات، ويتشَرَّبونها مثل إيقاع يُعيد عَزف حياتهم، يستَوطِنون خَيمة المَعاني في القُرآن، ولا يَخرُجون منها إلّا وهم حَقائق القرآن.

﴿وَٱلۡعَصۡرِ، إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ (العصر: ١، ٢)، تَهُزّهم الحَقيقة؛ إذ قَدر الأشياء والكائنات هُوَ متوالية الصَّدأ، وأن تَطفوَ مثل ورَقة ذابِلة على بِركة صامِتة.

﴿إِلَّا﴾ (العصر: ٣)، وكان هذا الاستِثناء كافيًا كي يخلُق فيهم عُمرًا؛ تجاوَز الزِّينة المُعلَّقة على جُدران الاختبارِ البشريّ عُمرًا تَجاوز الصّوَر الّتي تسرِقنا كلّ يوم، ثُمَّ نكتشِف في نهاية الرِّحلة أنّها بَقِيَت في الإطار، ورَحَلنا إلى الله دونها!

يُسجّل التّاريخ لهم آثارهم، ونَبضهم، وحكاية وَعيِهم!

يُسجّل لهم قَولهم: (إذا مَضَت الليلة من عُمري ولَم أكتَسِب مِنها شيئًا، فإنّا للهِ وإنّا إليه راجِعون)!

فقَد كانوا يفهَمون جيّدًا، أنّ أبعَد المَسافات عنكَ هي الأمس!

يُسجّل التّاريخ أنَّ «ابن جَرِير» مَكث أربَعين سَنة يكتُب في كلّ يوم مِنها أربَعين ورَقة!

لماذا؟؛ لأنَّ المقروء والمَكتوب هُما وثيقَتا الدَّهر، والمَحكيّ يمضي غالبًا في فَضاء الأسماع، وما يبقى منهُ بعمرِ جيلٍ أو جيلَين!

العِلم إذن، هو النّسيج اللّامرئيّ لثِياب البَقاء في ضميرِ الخُلود أبدًا.

يُسجّل التّاريخ مَقولة «ابن الجَوزيّ»: (أقمتُ أعمالًا لأوقاتِ لقاء النَّاس؛ لِئلّا يَمضي الزَّمان، فجعلتُ للقائهم قَصَّ الوَرق، وبَري الأقلام، وحَزم الدَّفاتر). حتّى كأنّ «ابن الجوزيّ» مؤسّس مدرسة: (فُتات السُّويعات الهاربة)، وهي أصل حضاريّ أدركه الغَرب حديثًا.

ويُسجّل التاريخ، شهادة «الفُضيل» إذ قال: (أعرِفُ من العلماء من يَعُدّ كلامَه من الجُمعة إلى الجُمعة).

يَعُدّ كلامَه!، ترى هل هُناك لُغزٌ ما في حياة هؤلاء؛ حتى إنّهم يَبدُون مبصرين على حين نَبدو نحن أنّنا نرتدي أعيننا من الخارج فقط؟!

يُسجّل التاريخ «لابن النَّفيس» أنّه سجّل بعض مباحث الطبّ أثناء استحمامِه؛ ليبدو في فعله هذا مثل أُسطورة تكتمِل بيننا، وتخبرُنا أنّها حقيقة.

ثق أنّ هؤلاء بشرٌ مجبُولون من نفس طينتنا، يسيرون بموازاتنا تمامًا، لكنّنا فجأة نَراهم مثل شِهاب يُضيء ضَباب عجزِنا وتلَكُّؤنا.

في أيديهم كلّ الأوراق الرابحة لامتلاك أثرٍ لا يَفنى!

نحنُ وحَدنا بعدهم من نُصبح رقمًا مجهولًا، أو أثرًا تَذرُوه الرّياح.

يُسجّل التّاريخ «لابن تيّميّة» أنّه توفّيَ عن عمر ٥٧ سنة، وله نحو ٥٠٠ مجلّد تأليفًا!

ترى، هل كان ابن تيميّة يُسجّل بكتبه تلك خطّة لا نهائيّة للبَقاء؟!

يُسجّل التّاريخ «لابن حَزم» أنّه ترك من المؤلّفات ٤٠٠ مجلّد تَشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، وكان بذلك مثل سنديانة عَتيقة تعرف تمامًا أنّ لها في المَلكوت الواسع متّسعًا هائلًا للامتداد.

ويُسجّل التّاريخ للإمام «أبي يوسف القاضي» أنّه كان يُباحثُ -وهو في النَّزع والنَّفَسِ الأخير من الحياة- بعضَ عُوَّاده في مسألة فقهيّة رجاءَ النفع بها لمستفيد أو متعلّم، ولا يُخلي اللحظة الأخيرة من لحظات حياته من كَسبها، فلمّا قيل له: (أفي مثل هذه الحالة)؟! قال: (ولا بأَسَ بذلك، ندرس لعلّه ينجو به ناج)؛ لأنّه كان يُوقن أنّه عند عبورِ بوّابة الموت الغامِضة نُدرك كم كانتْ منحة العُمر غالية!

فنحن بعد الموت نعود إلى زمنِ الصَّمت، إلى حين من الدَّهر لم يكن فيه المَرء شيئًا مذكورًا، وحدَها الكُتب وسطور العلم ستظلّ تتحدّث بصَخَب عن حُضورنا، وقد قالها «ابن الجوزيّ»: (وابعَث إلى صندوقِ القَبر ما يَسرُّك يوم الوصُول إليه).

يُسجّل التّاريخ، أنّ «ابن عَقيل» قال: (فما أزال أُعلّق ما أستفيده من ألفاظ العلماء ومن بُطون الصّحائف ومن صَيد الخواطر الّتي تنثرُها المناظرات والمقابسات في مجالس العلماء ومجامع الفضلاء؛ حتّى جمعت ٨٠٠ مجلّدة).

يا اللهِ، إنَّ بعض الأعمار تَمنح الضّائعين دليل الحَياة!

لقد قيل: (من أمضَى يومًا من عُمره في غيرِ حقٍّ قَضَاه، أو فَرضٍ أدّاه، أو مجد أثّله، أو حَمد حصّله، أو خير أسّسه، أو علم اقتبسه؛ فقد عقّ يومه، وظَلم نفسَه)، وتلك حقيقة؛ إذ بعض النّاس يستيقِظون فيَجِدون أنفسهم قد ماتوا مُبكّرين.

تقول الدّراسات: إنّ هدر رُبع ساعة عند بَليون ونصف مسلم = ٢٢ بليون سنة تراكميّة على مستوى الأمّة؛ تصنَع فارِقًا بيننا وبين قيادة البشريّة. فالوقت لا ينتظِر، ولا يُحابي الفارِغين!

ورُبّما تشبه هذه الدّراسة كلِمات «ابن القيّم» القائلة: (إذا أراد الله بالعبد خيرًا أعانه بالوقت، وجعل وقته مساعدًا له، وإذا أراد به شرًّا جعل وقته عليه، وناكده وقته).

لذا؛ أقسم الله بالعصر، قَسَم جاءَ كي يَخلُق فينا خُصوبة عُمرٍ لأمّةٍ أرادَ الله لها أن تظلَّ فتِيّة، وأن يَظَلّ الإنسان فيها مثل مدينةٍ بأنبيائِها وحُرّاسها ونَخيلها لا تعرِف فرَاغ النِّهايات اليابِسة.

القُرآن المَكّيّ مَدرسةُ التَّشكيل للإنسانِ الجَديد!

إن فهم قيمة الحياة يبدأ من فهم الوقت، من النظر إلى قاع الزمن، من النظر إلى لحظة خلق الزمان، عمر الكون ١٣,٨ مليار سنة، فلقد حدث الانفجار العظيم قبل ١٣:٨ مليار سنة تقريبًا وتكونت أولى المجرات قبل ١٢ مليار سنة تقريبًا، أما الأرض والشمس وتليهما المجموعة الشمسية وكواكبها، فقد تشكلت قبل مايقارب ٤ مليارات سنة.

وفي التقويم الكوني إذا قسمنا هذه المليارات على يوم زمني فإن عمرنا نحن دقيقة كونية واحدة فقط، وهي تعادل ٤٠ ألف عام فقط، وتاريخنا المسجل للإنسانية منذ اختراع الكتابة هو فقط ١٤ ثانية فيها كل ماحدث في تاريخنا من معارك وأحداث ووجود واكتشافات وملوك وحضارات.

من هذه الأحداث: أن موسى ولد منذ ٧ ثواني، وعيسى من ٥ ثواني، ومحمد من ٣ ثواني، وعُمر كل الثورة العلمية ثانية واحدة فقط من تاريخ خلق الكون!

نحن وجدنا في الدقيقة الأخيرة من الليلة الأخيرة من تاريخ عمر الكون، وكل الحملات الصليبية، وظهور المغول، وخروج المسلمين من الأندلس، والإمبراطورية العثمانية، والنهضة فى أوروبا، والثورة الفرنسية، والحربان العالميتان، وغزو الفضاء، وعصر الإنترنت، كل التاريخ البشري في هذه الدقيقة!

ولقد بقيت الديناصورات لمدة ١٠٠ مليون سنة سيدة للأرض بما يعادل ٣ أيام من تاريخ عمر الكون، ونحن فقط وهبنا دقيقة واحدة،

وكل شخص منا له منها ربما جزء لا متناهي من صفر الوقت لايزيد عن نبضة واحدة من عمر الكون! إذ يبلغ عمر الإنسان حوالي ٧٠ سنه فقط، مما يعني أقل من لحظة كونية!

السؤال هو، كيف نقضيها؟!

ولماذا كل هذا الغرور وهذه المعارك في حياة عمرها نبضة!!

عمرك كله في مقياس عمر الكون يساوي لحظة كونية واحدة!

تأمل جيدًا، فهذه هي لحظتك الوحيدة لتكتب بها قصة حياتك وتكتب بها غيبك في الآخرة، وفي هذه اللحظة يكمن كل الآتي المنتظر في الآخرة.

﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، إذ العصر هو المتبقي من عمر اليوم، وربما هذه هي الحقيقة، أنه لم يتبقَّ سوى العصر!

●●●

اللّبنة التّاسِعَة والعشرون

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾

هذهِ السُّورة تَقِف وَحدَها كأنَّها مُعجزة مُنفردة، تتَوالى فيها المَعاني والكَرامات والعَطايا في بلاغةٍ مُنقطعةِ النَّظيرا

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ (الكوثر: ١)، ولم يقُل: آتيناكَ؛ لأنّ الإيتاءَ مُنتهى العَطاء، وأمّا العَطاء فهوَ بعض الإيتاء، فالكوثر بعضٌ من عَطاء الله لنبيّه، ولا زالَ له في الغَيب مُتّسع من عطاءٍ لم يخطُر على قلبِ بَشر.

بلاغة التعبير

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾، بكاف المُخاطب المُباشرة، وحُقّ للُّغة العربيّة أنْ تُسمّيها: كاف الحُبّ لمُحمّد، وكاف الخُصوصيّة الهائلة.

﴿إِنَّآ﴾، بصيغة العَظَمة الإلهيّة؛ إذ العَطاء على قدر المُعطي، وأنّى لعقلك أن يبلُغ مَدى ﴿إِنَّآ﴾ التي يُصبح الوُجود بعدَها كلُّه مَسرحًا لتفاصيلَ وأحداثٍ يَصنعها عَطاءُ الله لمُحمّد ﷺ

يلهَثُ العُظماء يا رسول اللهِ وهم يُلاحقون خَطواتك، ثمّ يعجَزون، ولا يبلُغون ظِلّك؛ لأنّ الله قال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ (الكوثر: ١) لَك وحدَك!

الكوثر، هل هي نبوّتك الممتدّة كأشعة الشمس في القارات كلّها، وقد قال أحدُ المُستشرقين صراحة: (ما زالَ الانطباعُ الرّائع الّذي حفَره مُحمّد في مكّة والمَدينة له نفسُ الرَّوعة والقوّة في نُفوس الهُنود، والأفارِقة، والأتراك في البِقاع البَعيدة، رغمَ مُرور اثني عَشر قرنًا من الزّمان).

وها هيَ يا رسول الله الحَضارات تلهَث خلفَك، وتُسرِج ذاكرة البشريّة فلا تَجد الألقَ حليفَ أحدٍ سواك، وعندَ شمسِ الحَقيقة يُعلنُ مُفَكّرو أوروبّا (أنَّ البشريّة لَتفتخر بانتساب رجلٍ كمُحمّد إليها، وسنكونُ نحنُ الأوروبّيون أسعد ما نكون إذا توصَّلنا إلى القِمّة الّتي يُقيم عليها مُحمّد).

التعبير بالكوثر

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ (الكوثر: ١)، فالكَوثر، صيغة مُبالغة، وتَعبير عن الخَير العَظيم، صِيغة توقِظنا، وتُحيلنا على رُؤية خارِطة العَطاءِ، فَلا نطيق أن نبلغ رؤية كل العطاء.

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، وكان الوعد يكفي، فها أنت ترحلُ يا رَسول الله عن الأماكنِ والمُدن، لكنَّنا نَشمّ عِطرك آسرًا في العَواصم الجَديدة، والجِبال البَعيدة، وفي أقاصِي القُرى، وفي وجُوه أطفالِ الشّيشان.

يَحتشد الأهالي في الشّيشان فرَحًا إذا صادَف ميلادُ أطفالِهم ذِكرى مولدك من شهرِ ربيعِ الأوّل، ولا يخرُجون من مَشفى "جَروزني" إلا وقَد قلّدوا الصِّغار وِسام الشَّرف بتَسمِيتهم مُحمّدًا.

كيف حطَطتَ الرِّحال في الشِّيشان يا رسول الله؟! كيف؟!، وكيف تَوسَّدتَ القُلوب عُشبًا، كلّما ذُكِرتَ هاجَ لك حُبًّا وشَوقًا؟!

تنتَشي السُّهول والهِضاب بأغَاني الشَّوق لك، وتؤرِّخ الوثَائقُ حَقيقة هادِرة أنَّ اسم مُحمّد ﷺ هو أعلَى الأسماء انتشارًا في العالم؛ إذ بلغ تعداد من حمَلوه أكثر من ١٥٠ مليون.

سيّد البَشر أنتَ، واسمك سيّد الأسماء، و﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ (الكوثر: ٣).

وحُقَّ لغاندي أن يقول حين عكَف على قراءة سيرَتك: (أردتُ أن أعرِف صفات الرجل الّذي يملِك بدون نزاعٍ قلوب ملايين البَشر).

يتفوّق اسمك في المَملكة البِريطانيّة بين المسلمين على اسم جورج بين المسيحين؛ ففي عام ٢٠١٧م فقط يُسمّى ٣٧٣٠ طفلًا باسم مُحَمّد.

نتّجه إلى إيطاليا، فنَرى اسمك يحتلّ مرتبة عليا بين أسماءِ المَواليد المسلمين في بلدٍ يستقرّ عرشُ الفاتِيكان فيها.

وفي فَرنسا، يبلُغ عدد الفرنسيين المسلمين الّذين اختاروا اسم مُحمّد نحو ٥٣ ألفًا ويصبح الاسم الأكثر رواجًا.

فرنسا، الّتي أرادَت مَحو الإسلام من الجزائِر؛ فإذا بها تكتُب اسمك بالحِبر الفرنسيّ في تاريخِ الوثائق!

وصَدق الله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ (الكوثر: ٣) أينَما كان، وفي كلِّ البقاع؛ فأنتَ تعيشُ في أوّل أحلامِنا، وآخِر أحلامنا، ورُؤياك هي مَذاق العُمر، وإشارة السَّبْق.

يسكُن الشَّوق لكَ حناجرَ أهل الجَزائر؛ فلا ينطقون اسمك إلا مَسبوقًا بلَقب (سِي) فيَقولون: (سِي مُحمّد) تعظيمًا وإجلالًا، وإن كان المنادى عليه طِفلُهم الرضيع.

وفي الآخرة أيضًا لك الكوثر

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ (الكوثر: ١)، والنهر من بعض هذا الكَوثر، نهرٌ أحلى من العَسل، وأبيضُ من اللبن، وأبارِيقه بعددِ نُجوم السَّماء.

في الحَشر، يلتَمع صَوتك أبيضَ رقيقًا في مَسامع الخَلق، يهرَعُ إليك العطاشى، كمَا هرعوا إليك في الدُّنيا، مثل نَجمةِ الصّباح إذ تُبشّر بالنّهار، تَبدو أنت يا رَسول الله في بهائِك وجَمالِك!

حافّة النّهر ياقُوتٌ أبيَضُ، والماء بين يَديك يتدَفّق، وهَل يَليق بك إلا صَوت النّهر، وصوت الغيم، وارتواء العطاشى، على كَتِفك، وِشاح الإنسانيّة، وحَوضُك يتّسع لنا جَميعًا، تَهبّ على النّهر روائح الجنّة، وتُرتّل عَلينا ما يتيسّر من السَّلام والدُّعاء في يوم الفَقر الحقيقيّ.

على يَدك الطّاهرة تتَساقط حبّات المَاء كلُؤلؤ منثور، ويرتَشف الصَّحب مع الماءِ لحظة الشَّوق إلى الجَنائن الوارِفة في صَبيحةِ وجهِك، يلتَقيك الشّهداء ويبكُون فرَحًا، فأنتَ بعضُ جزاءِ البَيعة.

مواسمك كلُّها ربيعٌ أبديّ، وكلّ تجارة معَك تُقطَفُ زهرًا ينتَشي نورًا في تُربة الجنّة؛ حيث مُحمّدٌ وصَحبُه.

تنطَفىء العُيون الّتي لا تَراك، وتَشتعِل الأرواح بوحًا بالحبّ إذا هبَّت مِن الحَوض نسائمُ لُقياك.

تتضرَّم العُيون بالدُّموع، وتوَدّ لو أنّها تَغفو عند قدَميك، وتَحكي لكَ: كَم كانت ضَريبة حُبّك عالية!

تمتَلئ عَيناك بألوانِ الحُقول الوافرة، وتتفجّر يداكَ عُيونًا مُنهمرة، وتوَدُّ البشريّة لو أنّها ما زاغَت عن هَديِك خَطوةً واحدة.

بِأبي أنتَ وأمّي! وددتُ يا رسول اللهِ لو يهوي عُمري كلّه قُبلةً على يَديك، فَذاك هو النَّعيم وربِّ الكَعبة!

بِأبي أنتَ وأمّي! وددتُ يا رسولَ الله لو نَسِيَني الزّمان في لَحظة القُرب مِنك، فذاكَ هو الخلود وربِّ الكَعبة!

وددتُ واللهِ يا رسولَ الله، لو أَسبحُ في قُدسِ حَرَمِك، وألقاكَ وأنتَ راضٍ عنّي.

ودَدتُ يا حَبيبي!

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ فأنتَ مُمتدٌّ فينا؛ كأنّك مرج الكون كلّما لامَسَتهُ ألوان الشّفق انتعَش العِطرُ فيه ذِكرًا عَليًّا!

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ إذ قُل لي بِربّك: من يملِك أتباعًا وثوابًا وحبًّا تعجَز عنهُ موازين السّماوات والأرض!

لذا؛ حُقّ أن يتنزّل عَليك ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ (الكوثر: ٢)!

هنيئًا لفاطِمةَ بكَ أبًا، وهنيئًا لنا بكَ والِدًا، ونبيًّا، وشَفيعًا!

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾؛ حتّى غابَ عنكَ كلُّ فسادِ القَول بأنّك مَقطوعٌ، والحقّ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾؛ فقد زُفّت لك ألوان الجنّة في سَعيك، وفي أتباعِك، وفي صَوت الرّايات تَخفِق في المَعارك لأجلِ دين مُحمّد!

وقد قيل: (حين ترحل تأكّد من وجودِ من يضمّ إِرثك بعناية كأنّه بذور الحياة)؛ وقد كان إرثُكَ هائلًا!

آية المِحنة

يقول اللهُ لنا ونحن نتدفّق حبًّا لك: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ﴾ (آل عمران: ٣١)، هذه آية كاشِفة سَمّاها العُلماء: آية المحنة؛ فالدّليل هُنا ليسَ ادّعاءً باللِّسان؛ بل هو سَعيٌ بالأعمالِ في اتّباع خُطى الحَبيب.

ولرُبّما كانَت تِلك كرامة «البُخاريّ» الّذي طافَ الأرضَ ثلاث مرّات وهو يلتَقط كلّ كلمة للحَبيب، ويُسطّرها، ويغتَسل قبل أن يكتبها في صَحائفه، ويعطّر حياته باتّباع كلّ سُنن النّبيّ وهَديه وخُلُقه؛ فرُئيَ في المنام أنّ النّبيّ ﷺ يسير، وكلّما رفَع قَدمه وَضَع «البُخاريّ» قَدمَه بَعدَه.

ومابين الإنسان الأبتر وبين أن يكون العمر كوثرًا، مابينهما مشروع اتباع كامل لنبي كان الجزاء له من جنس السعي؛ فكان الكوثر نعيم من كان هو كوثرًا.

اللهمَّ، فارزُقنا اتباعًا تَرضى به عَنّا، وبلِّغنا به نهر الكوثر.

●●●

اللّبنة الثلاثون

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾

تنطِق الآيات في هذه السّورة إعجازًا غيبيًّا!

وتحكي لنا الكلمات كيف تَكون ملامح الانهيار!

يختارُ القرآن التّعبير بكلماتٍ تُخرجنا من أعماقنا ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ (التكاثر: ١).

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ هذه لغةٌ جديدة، سَيُسطِّر التّاريخ أنّها تحمِل الدّاء والدّواء، وتحكي لك خُلاصة الهزيمة في عدّة حروف.

﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ بضميرِ الجماعة والأمّة؛ إذ القرآن جاءَ كي يوقفنا على مِنصّة القيادة، لا على زَيف التّكاثُر.

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ سورة مكّيّة، تُداهمك فيها معانٍ تجعلُك تتوقّف عند قُيود العبوديّة الجديدة: (التكاثر).

﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾؛ ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ (التكاثر: ٢)، تعبيرٌ يُشعرك أنّ الوقت يسير حتّى تبلُغ محطّة الفنَاء؛ حيث لا مَدًى ولا صَدًى، ولا شيءَ سِوى: ﴿لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨).

تتكاتف الآيات في سورة مكيّة قصيرة لِتوقظ الخَطواتِ الّتي تغفو في رَتابة السّعي اليوميّ، وتنقادُ إلى المقابر.

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ يا الله! عالقٌ بنا هذا التّكاثر؛ يَثقُل الخَطوُ به، ينتَعلنا، ونحن نظنّ أنّه النّعال.

وما أقسى الفَهم!

يوم نرى الحَقائق ﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ ونكتَشف أنّ التّكاثر كان دوّامة انتهت بنا إلى ﴿ٱلۡمَقَابِرَ﴾.

سورة المقبرة

لقد هزّت هذه السُّورة بعضَ الصحابة حتى إنّهم أسمَوها: «سورة المَقبرة».

هل المَقبرة هي الحَقيقة الوحيدة إذن؟!

وهل التّكاثر مثل ثُقب أسوَدَ يلتهم أعمارنا، فلا نومِض إلّا بالحَسرة يوم نلتقِط مشهد الخاتمة، ونَفهم معنى ﴿لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ (التكاثر: ٧).

هل تَعلم ماذا يفعلُ القرآن؟

القُرآن يحمِل إلينا الحَقائق مُبكّرًا قبل النهاية؛ فلقَد كان القرآن في هذه السُّورة يريد للأمّة أن تظلّ فوق سطور التّاريخ، وكان التّكاثر يمحُوها من الحُضور.

كان القرآن يخبرنا أنّ بين ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ (التكاثر: ١) ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ (التكاثر: ٢) المَسافةُ مَعدومة، والزّمانُ صِفر في قِياس الله.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ هو تَوصيف لوضع عقليّ يُسيطر على الأمّة؛ فتسقط في شَرَك الأشياء، وتَختفي من صدور الرجال أصوات الأفكار، وذلك حين تكبُر الزّينة فينا؛ مثل خَراب لا يشبع إلّا من سُقوطنا!

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ هي مُؤشّر قرآنيّ جديد يشهد له التاريخ في الأندلُس، يوم عَجن أحد الأمراء العِطر تُرابًا لمعشوقته فكان ما كان.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ حتّى نترهّل ونحن نتكاثر، ويُصبح الوَسنَ هو رسن الوَهن، ثمّ نغدو كالسّراب الفارِغ من قطرة ماءٍ ترْوينا.

واقع المسلمين اليوم

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ تَصدِّقُها اليوم أرقامُنا؛ ففي مدينة عربيّة واحدة يبلُغ عدد الأسواق (المولات) ٣٦٠ سوقًا؛ تحتاج من عمرك أيّام العام كلّها حتّى تمرّ عليها.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إذ في دولة عربيّة واحدة يصِل الإنفاق على تغيير الأثاث كلّ ثلاثة أعوام ٨٠٠ مليون دولار.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ حيث تبلغ نسبة مبيعات أدوات التجميل في الأعوام الثلاثة الأخيرة أكثر من ٢ مليار في منطقة عربيّة واحدة!

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ نعم إنّ بيوتنا، مساجدنا، دواخِلنا بحاجة إلى أن تَطهُر في جوفها من ذاك التّكاثر الّذي لوثها.

ألا تَلمح كيف ينمو الاستهلاك في فراغ عقولنا؟!

فـَ (ٱلتَّكَاثُرُ) فكرة فاسِدة، تُسجَن الأمّة فيها حتّى تنتهي بلا وزن، وتنتهيَ مُبكّرًا إلى الكفن؛ ففي عالم الاستهلاك، كلّ شيء له تاريخ صلاحية؛ حتى العَلاقات الإنسانيّة تُصبح خاضعة للمنطق الاستهلاكيّ!

ففي عاصمة عربيّة يبلغ ثَمن هدايا عيد الحُبّ ١٠٠ مليون، حيث أصبح الحُبّ يقدر بالأسعار!

تذكُر الأرقامُ أنّ النسوة يستهلكن ٦٤٠ طنًا من أحمر الشّفاه في بلد عربيّ واحد؛ حيث يتجلّى قول الله فيهم: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ (الإسراء: ٦٤).

٦٤٠ طنًا من أحمر الشّفاه يوازي رتلًا من الشاحنات تُساق لأمّة كانت النسوة فيها عالمات!

يُنفَق على موائِد رمضان في مدينة عربيّة واحدة ٢ مليار دولار، يذهَب منها ٦٠٪ في مكبّ النفايات!

لتقفَ أمامنا بعد ذلك آية ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨)، تُريد حِسابها تامًّا غير منقوص.

تحرِق السّجائر في دولة عربيّة من أموالنا ما يقارب ٧٥٠ مليون دولار!

وتصل تكاليف الزّواج لعرس واحد في بلد خليجيّ ٤٥٠ ألفًا!

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾؛ إذ تَتكاثر الزّينة في عوالمنا حتّى تغلق علينا سَعة المبادئ.

يتدفّق التّكاثر في دواخِلنا مثل مَوج يُغرق الأرواح، ويدكّ المعاني الّتي تُقيم الأمم على ناصِية الشّهادة!

تُخبرنا الإحصائيّات أنّ الوطن العربي يتربّع على مِنصّة أعلى استهلاك للعطور والتجميل؛ فالمُواطن العربيّ ينفق خمسة أضعاف المواطن الأوروبيّ، وتسعة أضعاف المواطن الأمريكيّ في هذا الاتّجاه.

أرقام كارثيّة تَحكي أنّ الأمّة تسير في أكفانها!

هل تُدرك يا سيدي ما معنى تلك الأرقام؟!

تلك الأرقام تَعني أنّنا نفقد الحقائق يوم تنعكس في أعيننا أوهام الزّينة، نفقِد خَيْل الفتح، ونظلّ في مرابِض ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾.

تعني أنّنا ننتفخ بالتّكاثر؛ كموجة يملؤها الزّبَد، لا تلبَث أن تُصبح فراغًا عائِمًا، ثمّ نَموت بِداء ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قبل أن نصِل ﴿ٱلۡمَقَابِرَ﴾.

﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ (التكاثر: ٢)، ومعنى الزّيارة: الحلول، ولكنّها زيارة قصيرة للمقابر، ولها ما بعدها.

نفسية التكاثر

هل تراك تنبّهت لرسالة السُّوَر المكّيّة!

إنّها تبدأ بك من حيث لا تنتبه، إنها تُشكّلك حتّى لا تكون ذات يوم مجرّد بقايا.

إنّ الفرد الّذي لا تمتلكه نفسيّة ﴿آلتَّكَاثُرُ﴾ لا يمكن أن يتلاشى؛ إنّه مثل لبِنة وثيقة في جِدار الأمّة.

ولقَد كانَ النّبيّ ﷺ يحرّر أصحابه من خَطيئة التكاثر؛ يوم أطعمَهم أحد الصحابة رُطَبًا وسَقاهم ماء، فقال رسُول الله ﷺ: «هَذا مِنَ النَّعِيم الَّذِي تُسألون عَنهُ».

إنَّ أولَ ما يُسأَلُ عَنهُ العَبدُ يَومَ القِيامةِ مِنَ النَّعِيمِ أن يُقَالَ لَهُ: «ألَم نُصِحَّ لَك جِسمَكَ، وَتُروَ مِنَ الماءِ البارِدِ»!

أستغفر الله وأُعيد وضوئي بعد هذه السّورة، وأتطهرّ من ﴿آلتَّكَاثُرُ﴾ الّذي استقرّ في عُمقي.

أتلو السّورة على سلوكي، أتلوها على أفعالي، وأتفقّد بكلماتها مساحات عُمري قبلَ أن يفنى علَى أسوارِ المَقابر.

السور المكية كانت لبنات في بناء الإنسان، كان القرآن المكي يشكل عقل المسلم ونفسه وروحه وسلوكه، وذاك معنى فقه بناء الإنسان في القرآن.

كان القرآن المكي ينزع عن الروح أغلال الاستهلاك ويحميها من تغول التكاثر ويرفعها إلى مستوى المهمة الحضارية، مهمة الوجود وغاية الحياة، كان يحفظها من الاندثار في عالم الأشياء حتى الموت.

●●●

اللّبنة الحادية وَالثّلاثُونَ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ، فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾

هذه سورة اسمها (المَاعون) سورة مَهمّتها أن تغسِل الظُّنون، وتكتب مَفاهيم العَقيدة بحبرِ الضّياء الّذي لا جِدال فيه.

بكلمات قليلة يُكتَب فكرٌ جديد سينتثر عبر سِجلّات التّاريخ حضارةً رفيعة.

في هذه السّورة يرتبط الإيمان بيومِ الدّين بمؤشّرٍ يُمزّق الحُجب عن أحلام اليقظة؛ أحلام إنّا مؤمنونَ، مؤشّر جديد يجعل إيماننا هشًّا، أو ربّما مَردودًا!

في السّورة، يَحكي لك القرآن أنّ العقيدة تنمو عبرَ السّلوك قبل أن تصاب العقيدةُ بداء النّظرية والبَتر عن السلوك، قبل أن تدخل جدالات تشابه طقسًا فكريًا عقيمًا.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ، فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ (الماعون: ١، ٢) بالفاءِ مباشرة، والفاء هنا بدون تَمهّل أو تَراخ؛ بل فاء تَجيش بمراد الله، وتنحدر مثل سَيل لا يبقي من ادّعاءاتِنا ولاً يذَر، هنا ترتفع آية صَعبة مثل رسالة كاملة بكلمة واحدة: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ (الماعون: ٢).

﴿يَدُعُّ﴾؛ حيثُ تتوالى الحُروف قاسِية، وتشبه حركة الدَّعّ بكلّ جفافها، وتترك اليتيم ملقًى في أغوار الأكدار.

يبدو اليَتيم مثل وُرِيقة تغفو في الهَجير في انتظار المجهول، وتشتهي لو تَستيقِظ على قَطرة النّدى.

في عالم اليتيم دومًا مساحة فارغة يملؤها ضَجرٌ ما، حالة من التشتّت تُوحي بأنّ مرآة كانت تُطلّ منها صورته كلّ صباح قد انكسرت؛ فاليتيم لا يرى صُورته في عيون النساء كلّها، يراها فقط في عينِ أمّه، يظلّ رمادُ الفقد متّقدًا لا يَبرُد، يشتعل في الليل، لذا؛ فإنّ الأيتام لا يستعجلون المَساء.

هل يكفي اليتيمَ أن نمسح على رأسه كي تَتساقط أحزانه؟! وهل يبدو اليَتيم في إغفاءته إلّا مثل موجة انفصَلت عن البحر؛ فلا تنتظر في الصّباح إلّا قدر الجفاف.

لذا؛ جاء القرآن يوقفنا على مهامنا الإنسانية، إذ لم يكن القرآن وهو يتنَزّل يريد منّا أن نجعله حديثًا في صَوامع المتأمّلين، بل كان هو مَلحمة التّغيير، وعقيدة ستُكتب صدى معانيها في بيوت الضّعفاء وحارات المساكين.

﴿أَرَءَيْتَ﴾، ما معنى الرؤية؟

﴿أَرَءَيْتَ﴾، والرُّؤية هُنا بصريّة معنويّة قلبيّة؛ تكشف لك حَجم الحقيقة دون زَيف.

﴿أَرَءَيْتَ﴾، توقفك على روح النهار، وتَجلو عنكَ عَتمة التَّوهُّم بأنّك مؤمن دون ضَريبة.

هكذا إذن، هكذا يواجهنا القرآن بالحَقائق، وتَبدو المسافة بيننا وبين حقيقة الإيمان دمعةَ يتيم.

فهذه هي السلوكيّات الّتي تكشف لنا عن عقيدتنا المقبولة عند الله ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ (الماعون: ٢)، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ (النساء: ١٤٢)، ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ (الماعون: ٧).

فهل يَعني لك «الماعون» في موازين العقيدة شيئًا؟!

كيف يُصبح «الماعون» وهو آنية البيت، ودَفع اليَتيم مقاييسَ التصديق بيومِ الدين؟!

هل هذا إيمانٌ جديد يسطّره القرآن؟!

هل بقيَ اليَتيم في حاضِرنا ولم نعد نلمح القرآن فيه!

لقد بَقي شاهدًا على مدى اتّساع الآخرة فينا أو ضَياعها!

بقيَ كأنّما هو إصبع السبابة الّذي يُشير إلى توحيدنا وتصديقنا بيوم القيامة!

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ (الماعون: ١) يقابلها ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ (الماعون: ٦).

الرسالة في التعبير

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ (الماعون: ٦)، أولئك الّذين يلتَمعون في مآقي النّاس، وينطفئون في عَين السّماء.

﴿يُرَآءُونَ﴾، تُشعرك، ثمّة خيوط من الضوء تَتراقص من حولك، وتَنتشر بالبَريق..تنعكس في المَرايا الأُفقيّة كلّها، لكنّها لا ترتفع عموديّة أبدًا، ولن ترتفع.

﴿يُرَآءُونَ﴾، فَرِحين بأوسمتهم، ولا يدرون أنَّ الموازين يوم القيامة تخفّ فيها الجبال من الحسنات، وتثقُل فيها دمعة يتيم تفورُ في عمق الميزان حتّى تصير شلّالًا، كلّ قطرة فيها حسنة، وكلّ حسنة بعشرِ أمثالها، وكلّما تدفّق الشلّال تدفّق الثواب وتضاعَف؛ حتّى يصبح الفِردوس لك يقَظة الأحلام.

لذا؛ لَم يكن لأميرِ المُؤمنين عُمر ﷺ همٌّ ولا غَاية إلّا أرامل وأيتام العِراق، فقال: (لَئن سلّمني الله لَأدعنَّ أرامل العِراق لا يحتَجن إلى رجل بَعدي أبدًا).

ولقد احتجنَ يا عُمرُ بعدك كثيرًا، إذ غابَت سُورة (المَاعون) عن أمّة الإسلام!

تُرى، لماذا نُبقي بيننا وبين اليَتيم مسافة حذَر، مسافة فقر؛ إذ نعطيه بما لا يأذن له في دِفء مواقِدنا، بينما كانَت الحَضارة الإسلاميّة، تعطيه دِفء الصّقيع كله لو اجتاحه؛ وقد تبدى ذلك في فكرة أوقاف الأيتام؛ فقد ذَكر التّاريخ أنّ الخليفة الأُمويّ «الوليد بن

عَبد الملك» أسَّس مَعاهد لرعاية الأيتام، وظّف فيها الأطبّاء والخُدّام، وأجرى لهم الرواتب، ومنحهم راتبًا دوريًا، وقال للأيتام: (لا تسألوا النّاس). ومِن تلك المَعاهد تخرَّج كثيرٌ من العُلماء.

ولقد بلغنا أنه في العصر المَملوكيّ جَرَت العادة الإسلاميّة ببناء مَكتب لتعليمِ الأيتام وكان بِجوار كلّ حلقة من حلقات التعليم مُدرِّس للأيتام.

وفي الدّولة الحَمدانيّة كانت المدارس مُنتشرة لتعليم الطُّلاب والفُقراء واليتامى من أبناء المُسلمين، وكانَت تَجري لهؤلاء الطّلاب اليتامى الجرايات من الطّعام بمقاديرَ كبيرة، فقد كانَت حضارة لا تَسمح للفَقد أن يَغتال أرواح الصِّغار.

أنشَأ «الظّاهر بيبرس» مَكتبًا وقفا بجوارِ مدرسته، وقرّر لمن فيه من الأيتام الخُبز كلَّ يوم، والكُسوة في فَصلي الشتاء والصيف.

لقد كانت كَفالة اليتيم كفالة بِرقيّ الحضارة الإسلاميّة، وبمذاقِ فَهم العُقول العظيمة لمعاني القُرآن الكريم.

بَل يَذكر التّاريخ أنّ صلاح الدّين الأيّوبيّ -رحمه الله- أوّل من أوقَف الأوقاف في العَصر الأيّوبيّ من أجلِ الأطفال والأيتام؛ فأوقَف قرية (نستروا) كلّها لأجل رعايتهم.

والأعجب، أنّه أوقَف قِطعة أرضٍ على صبيّ يتيم؛ وجَد فيه نُبوغًا ونباهة عالية، فأمَر بوقفٍ خاصّ لتعليمه كي يرعى عقله من الضياع.

وقفَز «نورُ الدّين زنكيّ» بمعنى الأوقاف يومَ جعلَ من الوقف أن يُدَرّب اليتيم على حُسن التّصرف بالمال.

ومن المسلمين من وقف أوقافًا يصرف منها على مُعلمين يستقبلون التّلاميذ الأيتام والفقراء أيّام الجمعة، فيُراجعون معهم دروسهم الّتي تلقّوها خلال الأسبوع، ويَمنحونهم جوائز كأنَّما هم آباؤهم في هذا اليوم.

هنا، نحن نستدعي التطبيق الرفيع للإسلامِ عبر التاريخ، نَستدعي تفسير سُورة (الماعون).

الآية في الحضارة الإسلاميّة تقِف مُكتملة في الأفعال وليس في إقامة الحُروف؛ حيث يُبدع المسلمون في تفسيرِ الآيات؛ فيُقيمون أوقافًا خاصة بالترفيه، أوقافا ليُنزّهَ الفقراءُ والمساكين أولادَهم.

ومن ذلك الوَقفُ الّذي أقامَه السّلطان نور الدّين الشهيد قُرب ربوةِ دمشق؛ حيث جعل مكانًا فسيحًا جميلًا ليتنزّه فيه الفُقراء بأولادهم مثل ما للأغنياء؛ حتى لا يشعروا بالدَّعّ عن مواطِن الفَرح.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ (الماعون: ٣)، تقِف بجانب أختِها: ﴿يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾ (الماعون: ٢) وتُطالب بحقّها يوم القيامة.

يؤسّس صلاح الدين «التكايا»؛ وهي مَطاعم مفتوحة ينضج فيها الطعام بمذاق طيّب، وبنوعيّة نَظيفة، ويُبتغى فيها ألّا يشعر الفَقير أنّه دُون البقيّة.

بل يسجّل التّاريخ أنَّ المُسلمين أقاموا وقفًالم تبلُغه الحَضارات: هو وقف الأفران؛ ليَخبز فيها الفُقراء ما يشاؤون.

ويَكتب التّاريخ أُعجوبة من فَهم معاني القرآن هي: (وقْف الطُّرحاء) الّذي جَعله «الظاهر بيبرس» لتغسيل الفقراء من أموات المُسلمين وتكفينهم ودَفنهم، وهذا من الحضّ العَظيم.

ثمّ نسمع عن وقفٍ لتجهيز الحليّ الذهبيّة وأدوات الزّينة للعروس الفَقيرة.

ويُسجّل التّاريخ أيضًا وقفًا لإرضاعِ الأطفال عند فقدِ أمّهاتهم، ووقفًا لوفاء دَين المَدينين، وفكاك المَسجونين المُعسرين، ووقفًا لتجهيز من لم يؤدّ الحجّ من الفقراء، ووقفًا لمداواة المَرضى غيرِ المُقتدرين.

وكانَ أعجب الوقف وقف السّلطان المملوكيّ الأشرف شعبان؛ وهو تأمين الإبر والخُيوط للفُقراء بمكّة المُكرّمة.

ويَرتفع الوقف رقيًّا لِنشهد وقف الأواني وحاجات الموالي؛ وهو وقفٌ سَنّه رجلٌ أراد أن يلقى الله وهو ليس ممّن ﴿يَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾. يقول ابنُ بطّوطة: (رأيتُ في دمشق يتيمًا صَغيرًا، قد سَقطت من يَده صحفة من الفَخّار فتكسّرت، واجتمع عليه النّاس، فقال له بعضهم :اجمع شقفها، واحمِلها معك لصاحب أوقاف الأواني. فجَمَعَها، وذهَب إليه؛ فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصّحن).

يا لهجرِ القرآن في عمق معانيه! ويا للإيمان البارد في قلوبنا!

ويا للمسافةِ بيننا وبين القُرآن! ما أشد بعدها!

أين نحن من معاني القرآن ومن رعاية الأيتام بالفقه القرآني وليس على مبدأ إطعام الطعام.

أمتنا اليوم تبتلى بكثرة الأيتام ففي حَرب واحدة من حروب غزة «١٣٤٦» يتيمًا، وخلّفت العراق مايزيد عن خمسة ملايين يتيمًا، وفي سوريا لا زالت الأرقام عاجزة عن إحصاء دمعَات اليتامى.

سورة الماعون

ها هي سُورة «الماعون» واقِفة تشهد كلّ مساء أنّها حاضِرة في صَلواتنا، غائبة عن الشّهادة للإيمان بيوم الدين، إلّا إذا كنت تَحمل معَك يوم الدين وثيقة فيها أنّك جفَّفتَ دَمع يتيم، وعلّمتَه لُغة الفرح، وغَزلتَ له بمالِك رداءً لا تَنقضهُ دابّة السنين.

سورة (الماعون) تتنزل في أول التنزل القرآني كي تبني سلوكًا حضاريًا لأمة يراد لها الشهود على الأمم وصناعة حضارة مختلفة عن حضارات البشرية.

لكننا اليوم نبقي القرآن ترتيلًا وتجويدًا ونحرم عقولنا من فقه رسالاتها، من فهم مقاصده الكبرى، ومِنْ إدراك فقه بناء الإنسان في القرآن.

●●●

اللّبنة الثّانِيَة وَالثّلاثُونَ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

نقفُ الآن في حَضرة فاتِحة القُرآن كلّه!

مكتبة
t.me/t_pdf

وفي الفَواتح تتكشّف المَعاني والأسرار!

فاتِحة أرادَ الله لها أن تكون هي مَجموع رسائل القُرآن؛ لذا كانت كلّ آية فيها كونًا مُكتملًا.

سُورة نَسمع فيها صوت الحَقائق مختلفًا، وكلّ كلمة فيها تَحمل رسالة معناها: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ (الكهف: ١٠٩) وما نَفدت مَعاني الرِّسالة.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (الفاتحة: ١)، هي فاتِحة الفاتحة، وبداية البداية، حيث لا مثيل لكلمات الله في دَهشةِ المعاني وتَفتُّقِ المفاهيم في الثَّنايا.

فقه الحمد

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وليس الشكر لله؛ إذ الشكر يكون على العَطاء فقط. والحَمد؛ لأنّ الله مُستحقّ للحَمد في السرّاء وفي الضرّاء، ولو لم ينَلك منه شيء، وحاشا لله ألّا ينالك منه فَضلًا كبيرًا.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بداية تَرفعك إلى سُموّ عالٍ؛ حيث يؤسّس القرآن هنا لفقه جَديد؛ هو فقه الحَمد، فالحَمد هنا، حَمد لا يُشابه ما اعتَادته البَشريّة؛ إذ هو حَمدٌ لله؛ لأنّه الله، حَمد، ليس على ما تقبضه الأيدي من وفرة المَحاصيل؛ بل هو حَمد لأنّ الله هو ربّ المَحاصيل.

وبين المَقامين فرقٌ؛ كما هو الفَرق بين لذّة التنعُّم بالجنّة وأنهارها، وبين التنعّم بلذّة النظر إلى وجه الله العليّ الكَريم؛ وذلك هو معنى المَزيد.

وهذه وربّي قَفزة إيمانيّة، وعلوّ عقليّ بالبَشرية؛ إذ اعتادت النّاس بعدَ النّعمة صوت الشُّكر، ولكنّ القُرآن يعلّمهم تسبيحًا مجدولاً بالحَمد؛ كأنّه خُيوط المطر يعلو بِهم ولا يُعلى عليه، تَسبيحٌ، إيقاعُه يَرقى بالفطرة؛ فالشُّكر فِطرة البشريّة، والحَمد تعليم فاضَت به المعاني القُرآنيّة.

وانظر،كم بين المَرتبتين من مسافاتٍ ومقامات!

نتساوى في الشُّكر مع عامّة البشريّة، فإذا ركِبنا صَهوة الحَمد بلَغنا سِدرة المُنتهى في جمال الذِّكر وعلوِّ الأجر وألوان النعيم على الحَمد.

كي تَفهم المَقصود، ما رأْيك لو تقتفي آثار خطا الحَمد، حيثُ كلمة قَليلة تملأ الميزان؟! تتبَّع الكلمة؛ ستَجِدها مثل انهمار الغَيث، يدندن بها حَملةُ العَرش؛ إذ تسبيحهم هو: لكَ الحَمد على حِلمك بعد عِلمك، ولكَ الحَمد على عفوكَ بعد قُدرتك.

تُردِّدها معَهم؛ فيبلُغ بكَ الحَمد دَندنة حملةَ العَرش.

حملةَ العرش يحمدون الله على صِفات ألوهيّته، وذاكَ حمدٌ مختلف عن الحَمد على الخبزِ وكثرة الدنانير، حَمد بمذاقٍ ملائكيّ، فالحَمد لله على تفرّده بكمال الصّفات التي إن رأيتَ سرَيانها في حياتِك احتجتَ صلاتَك كلّها حمدًا عليها.

أكمِل معي وتابِع خُطا الكلمة؛ ستجِد أجرها عجيبًا؛ فهي أحبّ الكَلِم إلى الله، سُبحان الله وبِحمدِه.

الحمد على ألوهية الله

تابِع خُطا الكلمة، وستَجِدها واقفة بجانب صفات الألوهيّة في القُرآن كلّه؛ حيث تَحكي لك مع كلّ آية أنَّ الحَمد لله؛ لأنّه وحده هو الله!

فماذا يَعني لك أن يكون الإله هو الله؟!

وماذا يَعني أن يكون الحَمد لله لأنّه هو الله؟!

هل تَعني لك، أنّ الضُّر والنّفع بيدِه وحدَه؛ فله الحَمد إذ هوَ من يملك نسيج أيّامك وبساط حياتك!

فلهُ الحمد إذ ارتقى بك من عبوديّة الأسباب إلى الحريّة بين يدَي ربّ الأسباب، له الحَمد إذ علا بك من الذّل للعبادِ إلى العزّ بمَن دانَت له نواصِي العِباد.

يذكُر التّاريخ، أنّه لـمَّا فُتحت مِصر أتى أهلها عمرَو بنَ العاص، فقالوا: (أيّها الأمير، لِنيلِنا هذا سُنّةٌ لا يجري إلّا بها، قال: وما

ذاك؟ قالوا: إذا كانَت اثنتي عشرةَ ليلةً خلَت من هذا الشّهر عمَدْنا إلى جارية بِكرٍ من أبويها، فأرضَينا أبويها، وجعلنا عليها من الحليّ والثياب أفضلَ ما يكون، ثمّ ألقيناها في هذا النّيل. فقال لهم عمرو: إنّ هذا ممّا لا يكون في الإسلام، إنّ الإسلام يهدِم ما قبله. قال: فأقاموا، والنّيل لا يجري قليلًا ولا كثيرًا حتّى همّوا بالجَلاء، فكتب عمرٌو إلى عمرَ بنِ الخطّاب بذلك، فكتب إليه: إنّك قد أصبتَ بالّذي فَعلت، وإنّي قد بعثتُ إليك ببطاقةٍ داخل كتابي، فألقِها في النّيل؛ فلمّا قَدِمَ كتابُه أخذَ عمرٌو البطاقة فإذا فيها: "من عبد الله عمرَ أميرِ المؤمنين إلى نِيل أهل مصر: أمّا بعد، فإن كنت إنّما تجري من قِبلك ومن أمرِك فلا تَجرِ فلا حاجة لنا فيك، وإن كنت إنّما تَجري بأمرِ الله الواحد القهّار الّذي يملك الضّر والنّفع، وهو الّذي يُجريك فنسأل الله تعالى أن يُجريك". قال: فألقَى البطاقةَ في النّيل أمام القوم، وقد خاطب بها نِيل مِصر؛ فأصبحوا يوم السّبت وقد أجرى الله النّيل ستةَ عشرَ ذراعًا في ليلة واحدة، وقطَع الله تلك السُّنّة عن أهل مصر إلى اليوم).

الحمد على أن الأمر له

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (الفاتحة: ١)، هل تَعني لك أنّ بيده مقاليد الأمرِ كلّه؛ فله الحَمد كلّه أن كانت مفاتيح الأمر بيده وحده؛ فأخَذَ بأيدينا فلا نَطرق إلّا بابه، وأكرَم مقامنا؛ إذ جعلَنا نَرنو إلى جنابِه.

مضى بالماضي ليناسب ما بعده عُقبةُ بن نافع -رضي الله عنه- إلى تُونس فاتحًا، فلمّا بلَغها وأرادَ أن يُقيم مدينة القَيروان قال له رجالُه:

(إنّك أمرتَنا بالبناء في غابة كلّها شعاب وغياض لا تُرام، ونحن نخاف من السِّباع والحيّات وغير ذلك من دوابّ الأرض). وكان في عسكرهِ خمسةَ عشرَ رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ فجمعَهم وقال: (إنّي داعٍ فأمِّنوا)، فحَمِد الله بمحامِدَ كثيرة، ثم دعا الله عزّ وجل طويلًا، والصّحابة والناس يأمّنون، ثم سأل الله بقدرته وبصفاته العليا أن يكفَّ عنهم كلّ سوء.

ثمّ قال عُقبة مخاطبًا سكّان الوادي: (أيّتها الحيّات والسّباع، نحنُ أصحاب رسول الله ﷺ، فارتحِلوا عنّا فإنّا نازِلون، ومن وجدناه بعدَ ذلك قتَلناه).

فحدَثت بعدها كرامة هائِلة؛ حيثُ خرَجت السِّباع من الأحراشِ تَحمل أشبالها، والذّئب يحمل جروه، والحيّات تحمل أولادها، في مشهد لا يُرى مثله في التّاريخ. فنادى عُقبة في النّاس: (كُفّوا عنهم حتّى يرتَحلوا عنّا).

فله الحمدُ حتّى يرضى؛ أنَّه مالِك المُلك، وبيده مَقاليد الأمر، وإليه يرجِع الأمر كلّه!

الحمد له على صفاته

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (الفاتحة: ١)، تَعني أنّه المتفرّد بكلّ ذرّة؛ فهو من يبعَثها، وهُو من يجعلها فناء، وبيده وحده مَفاتيح التوفيق والخذلان؛ فله الحَمد على أُلوهيّته وعجائب آثار الصّفات!

ولقَد سجّل التاريخ أنّ سعدًا ﷺ حالَ نهرٌ بين جيشه وجيش فارس، وأراد ﷺ أن يَدخل جيشَ فارس ويتجاوز الجُسور، فقَطعوا الجسور، فاضطرب ﷺ، هل تتوقف المعركة أم لا؟!

ثمّ ألهمه الله عزّ وجلّ وقال: (يا خيلَ الله اركَبِي)، وسمِع الخيلُ سعدَ بن أبي وقّاص ﷺ والخيول لا تفهم كلام النّاس إلّا أنّ الله وهب لهم من الكرامة ما أسمَع الخيل صوتَ سعد، فتوجّهت الخُيول وكأنّها مأمورة تقتحم بأصحابها النهر.

وجمَّد الله النّهر؛ فلا هو بالثّلج فتقع من عليه، ولا هو بالماء فتغرق فيه، ولكن جعله الله سُبحانَهُ وَتَعالى كالتُّراب بقدرةٍ عالية؛ حتّى نفذ الجيش إلى الجِهة الأخرى، ولمّا انتهوا إلى الناحية الأُخرى قال الرّجل منهم: أتفتقِدون شيئًا؟ قال رجل: أفقِد المِخلاة، يعني: المِخلاة، أظنّ فيها خبزٌ كثير، قال: عُدّ إليها، فعاد إليها، فإذا هي متعلِّقة بشجرة في داخل النّهر، فأخذَها وعاد.

الحمد تربية القرآن

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أوّل كلمة في ترتيب المصحف، وأوّل كلمة في افتِتاح القُرآن، وهي أوّل معنًى يواجه العَقل المسلم، ويعيدُ تشكيله.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فقهٌ جديد، ومرتَبة تعلو عن الشُّكر، وتربية إيمانيّة تعلّمك أن تَحمد الله أنّه إلهك، وأنّ له الأسماء الحسنى الّتي إن أبصَرتَها رأيت العَرش بارزًا؛ فأغناكَ عن الدُّنيا وما فيها.

يُسجن الإمام السّرخسيّ في بئرٍ مدّة عشر سنوات لفتوى لم تُعجب السُّلطان؛ فيؤلّف في سجنه كتابه المَبسوط في ثلاثين مجلّدًا، ويقول في آخره: (أملاهُ المَحبوسُ عن الجُمع والجماعات، المُستَقبِلُ للمحَنِ بالإعتاقِ، المَحصُورُ في طَرَفٍ من الآفاقِ، حامدًا للمُهَيمنِ الرزَّاق، وَمُرتَجيًا إلى لِقائِه العَزيزِ بالأَشواق، وَمُصَلِّيًا عَلى حَبيبِ الخَلَّاقِ، وَعَلى آلِه وَأصحابِه خَيرِ الصَّحْبِ وَالرِّفاقِ).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، هي كلمة الوَصل الأولى مع الله؛ حيثُ تفيضُ أسماؤه بِما يعلو بِك إلى أنفاسِ حَمَلة العرش.

●●●

اللّبنة الثّالِثَةُ وَالثّلاثُونَ

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾

لم تكُن قُريشٌ قادرة على نِسيان ذاك التاريخ؛ فقد كان عامَ الفيل، ولن تكون البشريّة كلّها فيما بعدُ قادرة على تجاوز هذا التاريخ؛ فهو عام ميلاد مُحمّد النبيّ!

ودومًا، للأقدار لغات تتحدّث بها؛ فمنها ما هو مَرئيّ، ومنها ما هو مَحكيّ، وكلّما تقَادم الزّمن علا الصوت، حتّى تظنّ أنّ هذه هي لغة الكون.

وفي حادثة الفيل تتوافق لغات القدر كلّها على كلمة واحدة: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ (الفيل: ٢).

هنا في السورة يبدأ القرآن بمشهد الحادثة حيث يطير الرّكبان بأخبار الجيش القادم، وتَبدو مكّة على حافّة الخراب؛ فالبيت العتيق، كان ثروتها وميراثها، وبقيّة حضورها على خارطة التاريخ.

وفي الصمت المشبوب بهلع خفي يتفسّخ العرق ثقيلًا على ملامح وُجوه قريش، وتلتَهب مكّة في الليل بأحاديثِ الخوف، وتبدو محاجر الأصنام حول الكعبة غائرة في بلادة عجيبة.

تتناقل مكّة مشية عبد المطّلب البَطيئة نحو أبرَهة وعَتمة السؤال عن الإبل، حتّى كأنّ الكعبة ليست ميراثًا إبراهيميًا يُقايَض بالأرواح.

«للبيت ربٌّ يحميه»، هكذا إذن تغيب الأصنام فجأة، وتظهر عقيدة إبراهيم مثل سنديانة عَتيقة.

للبيت ربّ، ربٌّ واحدٌ سَيحميه!

تختفي الأصنام من اللغة، فلا اللات ولا العزى ولا هبل، وينسحب عبد المطّلب من المَشهد؛ ويولد في ذاك العام مُحمّد، طفل من نَسل إبراهيم، طفل هو دعوة إبراهيم.

يرتجف الناس ويتنفّسون الحدث ممزوجًا بملوحة مريرة، يكاد يَخنقهم كلّما طافوا بالبيتِ العتيق.

تقف الأصنام حول الكعبة في جُمود ذليل، ويشتدّ في مسمع مكّة وقع أقدام الفيلة، يتكسّر تحته سكون الناس.

تُلملم قريشُ عَباءاتِها، وتركُض النّسوة على الرمال السّاخنة، وتثور الرّيح بِغموض في أزقّة مكّة، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ (الفيل: ١)، كان مُحمّد حينها جنينًا في بطن أمّه المذعورة مع نِسوة مكّة، وكانت تحيطه دعوة إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (البقرة: ١٢٩)؛ فقد كان هذا أوان من يرعى البيت ويحميه.

ثمّة تقاطع غريب بين الطّفل القادم من رحم اليُتم، وبين الجَبروت الصّاخب في هودَج أبرهة!

ثمّة توافق قدريّ مذهل بين ميلاد مُحمّد في عام يراد فيه هَدم الكعبة!

كانت إيماءة قدريّة تَحكي أنّ قريشًا كتبت خطوتها الأخيرة نحو الرّصيف الأخير يوم تخلّت وأعلنت أنّ للبيت ربًّا يحميه.

لتِنْحت الأقدار من ميلاد مُحمّد مصير أمّة تضاريسُها ستمتدُّ حتّى أسوار الصّين وشواطئ فَرنسا، وسيكون للبيت من يفديه.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ومُحمّدلم يرَ شيئًا ممّا جرى، لكنّ الله يُريه بالقرآن مالم يرَ!

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ والسّؤال هنا لتقرير الحقيقة.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾، كيفَ كان يتساقَط الموت من أجنحةِ الطّير الأبابيل! وكيف كانت تَحمل هاوية الجَيش في المناقير الضّعيفة!

فاصلة اللام

تتكرر فاصلة اللام (الفِيل)، (تَضليل)، (أبَابيل)، (سِجّيل)؛ حيث تَنتهي الفاصِلة القرآنيّة باللّام الدالّة على السهولة والليونة واليُسر؛ فقد كان الأمر أهون على الله ممّا نظنّ.

كان الأمر لا يحتاج أكثر من بعض القوى الخفيّة والجنود المَخبوئين في عوالم الغيب.

نحن إذن المُترعون بالخوف والأنينِ من وقع أقدامِ الفِيلة، نحن من تَسودُنا الفوضى إذا رأينا الأبواب مُشرعة للرّيح، وننسى أنّ الله بيده مقاليد كلّ شيء. ننسى، وتظلّ آذاننا ممتلئة بصوت أقدام الجيش.

﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾، وليس كيف عَمل؛ لأنّ العمل مستمرٌّ، والفعل عادة يكون فعلًا نهائيًا ليس ممتدًّا، وقد كان هنا فعلًا قاصِمًا، وَوقع دفعة واحدة.

وفي هذا إيماءٌ إلى أنّ العذاب إذا وقَع كان موتًا، وكان كفَنًا لا عزَاء فيه.

معنى الفاء

الفاء هنا كثيرة ومكرورة ﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾؛ لأنّ الفاء تحمل معنى التفشّي والانتشار؛ فتُوحي لك الفاء بهشَاشة الفيل، حتّى كأنّه هواء تبعثره مناقير صغيرة.

هنا، يتجلّى القرآن بقوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ (الفيل: ٢)، والكيد: كلّ تدبير فيه مكر، وكلّ تخطيط فيه ضرّ.

وأنت بين الكيد والمَكر، تحرقك الأنفاس المُبهمة، وتظنّ أنّك غارق في نار التنّور، وما هي إلّا أَخيلة الخوف تملأُ عالمك سرابًا من الوسوسة، ولو أبصرتَ جيّدًا لرأيت الطير الأبابيل قريبة من كلّ كيد، لكنّها لا تجد من يستنزلها.

ما قيمة الكَيد إن انتهى إلى هَباء، إن انتهى في تضليل!

وحرف الفاء هنا يدلّ على غَمر الكيد بالضياع، على استغراق الخراب، وعلى تخبّطٍ فيه يصوّر ذلك كلّه حرف واحد هو (فِي).

يا الله! كلّ حرف هو رسالة لك، وعالَمٌ من المعاني، وكونٌ من المفاهيم!

أصحاب الفيل

يصِف الله الجيش بأصحاب وليس أهل؛ فقد كان التجمّع ليس بسبب القَرابة، بل كانت صحبة فكرة لنُصرة عقيدة ومبدأ، أصحاب تُجمّعهم راية داكِنة؛ هي هدم بقيّة الميراث.

كم نحتاج أن نتعلّم من سورة الفيل كيف نجتمع على راية واحدة تَحمي بقيّة المِيراث، وكيف نلقي بكل الرايات التي تشتتنا!

كيد يجعله الله ﴿كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾ (الفيل: ٥)، والعصف المأكول يشبه سلوك الحملة؛ فقد كان عصفها هائجًا ولكنّ الله جعلها مأكولة حتّى تنظر فِي الذرّات المتناثرة فلا تدري أيّها كان أبرهة، وأيّها كان الفيل، وأيّها كان قوّة الجبروت، وأيّها كان الجنديّ المغمور، وأيّها الّذي هوت به الريح فِي مكان سحيق.

تبدّد الطير كلّ الهياج العاصف فِي مشهد لا تتقاسم فيه أجسام الطير وأجسام الفيلة، أيّ ملامح مشتركة!

كلّ الكيد ينتهي فِي طَرفة عين، يصبح المشهد أخرسَ من أصوات الفيلة ورعود التهديد، ويغيب أبرهة فِي النسيان!

التعبير بالمضارع

بعض الأفعال في سورة الفيل كانت بصيغة المضارع لأنّ الحدث لم يمت بعدُ، ﴿تَضۡلِيلٍ﴾ (الفيل: ٢)، ﴿تَرۡمِيهِم﴾ (الفيل: ٤)، إذ كلّ كيد له حجارة من سجيل، حيث يستمرُّ الكيد؛ إذ تذكر الأرقام أنّ عدد أجهزة الكمبيوتر الّتي تستغلّها المنظّمات المسيحيّة لخدمة التنصير في تخطيط برامجها وتنفيذها تبلُغ ٤٥ مليون جهاز، وأنَّ محطّات الإذاعة والتلفزيون المَسيحيّة في العالم تبلُغ أكثر من ١٩٠٠ مَحطّة، وأنَّ عدد المُنَصّرين يبلغ مايزيد عن ٣ ملايين و٨٦٥ ألف مُنصّر؛ كأنّه جيش أبرَهة يوَدّ لو يَمحو الكَعبة لأجلِ كنيسة (القليس).

ما غاية المعنى

هذه السورة تعلّمنا كيف لا نرتعش مهما اشتد الكيد، ففعل (ترميهم) فعل مضارع لازال في ذروة قوته لو كنا نستحق تنزله، سورة الفيل تعلمنا أننا نرتعش فقط بسبب فراغ يقيننا، وفراغ جعبتنا من السعي.

تقف سُورة الفيل في أوّل التنزيل القرآنيّ تحكي لنا أنّ الأصوات القَلقة بالإبل والمتاع تنطفئ نجومنا بهم، فيستبدلها الله بمن لا تتعثّر خطاهم نحو البوصلة، بمن كانت أعمارهم معنى (للبيت عِبادٌ تبنيه وتحميه وتفديه)، عِبادٌ على خُطا إبراهيم!

●●●

اللّبنة الرّابِعَةُ وَالثّلاثُونَ

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾

تخطُّ هذه السّورة أبجديّات الهُويّة الحَقيقيّة؛ فهي تتنزّل في بيئةِ الاستضعاف، ومع ذلك تبدو كلمات السُّورة شديدة الوُضوح، شديدة المباشَرة والقوّة، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (الكافرون: ١).

﴿قُلۡ﴾؛ حيث تُشعرك أنّ الله من عليائه يلقّن محمَّدًا.

﴿قُلۡ﴾، فلا صَمتَ يدثّر عُريّ الكفر.

إذ يلمح القارئ أنّه لا ضميرَ مُستَترٌ في الخطاب، ولا ضميرَ غائبٌ في التعبير؛ بل نداء كأنّه الشِّهاب المضيء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

هنا تمنح الكلمات من يردّدها قوّة البعث وقوّة ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ (الكافرون: ٢).

﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾، ولو كنت وحدي!

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ جميعًا؛ فالأكثريّة ليست دومًا هي مؤشّر الصَّواب!

﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾، وما أشقَّ وَحدة السُّنبلة في ليلِ السُّحب السوداء!

﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ في هذه الكلمة تترَجّل البلاغة عن مَناكب البلغاء وهي في إعياءِ اللّحاق بالتّراكيب القرآنيّة،

حيث تتفوّق الكلمة القرآنيّة في تحقيق المعاني.

فالعِبادة: هي الخُضوع والذلّ، وهي عميقة في مَدلولاتها؛ فقد عبّر القرآن بالتعبير بِـ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ (الكافرون: ٢)؛ حيثُ المسافة بين الخضوع المغموس في الذلِّ وبين صَهيل الانعتاقِ أن تعرف من تعبُد.

لذا؛ كان التّعبير بِـ﴿مَا﴾، ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾، ما، الّتي تحتمل كلّ شيء، تحتمل العاقِل وغيره،، تحتمل أن تحصدك الآلهة على اختلافها عبدًا ألف مرّة، تحصدك عبدًا لألفِ رَبٍّ ورَبّ.

لذا قالها مُحمّد: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ (الكافرون: ٢).. فكانت ﴿مَا﴾ تعبيرًا عن آلاف الآلهة.

وختَمها بِـ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦)! ولاشيء سوى التّوحيد يضيء لك ليل العُبور!

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، هذا التعبير بليغ، فهل تراك انتبهت يومًا أنَّه قبل الركوع يَنبت فينا الخُضوع، نعانِق الذلّ، ثمَّ تتدلّى رغباتنا بنا حتّى الرُّكوع.

وفي السورة تشمَخ الكلمات، وتضرِب الوعود بحافرها في المُستقبل، ويُعلن مُحمّد ﷺ: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ (الكافرون: ٢).

التعبير بنفي المضارع

ونَفيُ المُضارع في الآية دلالةٌ على نَفيِ المستقبل أيضًا، حيث تَحكي لك هنا بلاغة القرآن كيف يتوهّج الثبات حاضرًا ومستقبلًا، وكيف ينسِج القرآن لمُحمّد من الكلمات وعد اليقظة؛ الوعد بألّا يأذَن للأصنام أن تتسلّل إليه مهما أنهَكه قَحطُ الطَّريق.

تُسمِعك الآيات وقْعَ خطى مُحمّد ثابتة، وتُسمعك فيها صحوَ أمّة بأكملها، ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ (الكافرون: ٢) حاضِرًا ومستقبلًا وأبَد الآبدين.

﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ هنا الفعل المضارع يوحِي بعبادة دَؤوبة من الطرف الآخر، لا يُشَمُّ فيها إلّا انطفاء الحريّة.

﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾، بصيغةِ الجمع الّذي يخبرك أنَّ عَمائم الكفر تَجتمع دومًا كي تكوِّن فينا جُزر الخذلان.

تنزيه النبي ﷺ

تَحمل الآية تَنزيهًا خفيًّا للنبيّ ﷺ إذْ قال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وليس: "ما كنّا نعبد"؛ فقد كان مُحمّد مملكة من وعي فطريٍّ؛ سبقت فيه روحه حيرة القَوم عند مِيراث الأجدادِ من الأصنًام فلم يعبد يومًا ما تعبدون.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ (الكافرون: ٣)، يُكرِّر المعنى السابق ولكن بصيغة الجُملة الاسميّة للدّلالة على الثبات والرسوخ النهائيّ؛ حيث

تصبح المعاني خُيولًا بيضاء يمتطيها مُحمّد ﷺ، وتصعد به نحو الختام، ختام الكلمات، إذْ طَوى التّعبير القرآنيّ ظمَأ الكفر إلى بعض الحلول العبَثية؛ فقد كانت قريش تتوقع من محمد -عليه الصلاة والسلام- بعض التنازل بعبادة ربه يومًا وعبادة آلهتها يومًا، في قسمة ترضي غرور قريش، لكن المَعاني في السورة والصياغة القرآنيّة كانت أكبر من تَوقّعات قُريش.

انطفاء التوقعات

ها هو الكفر بعدها يترنّح تعبًا؛ فقد كان يبحث مع مُحمّد عن مُنتصف الطّريق، عن نصفِ الفكرة، عن ثوب يمكن أن يَرتدي هَول الكفر ويزدَحم فيه الإيمان؛ لكنَّ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ، لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (الكافرون: ١، ٢)، جعلتهُ يجرّ جنائزَه وآخرَ العروض إلى المَدافن الواجِمة.

معنى التكرار

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ (الكافرون: ٥)، هذه الآية تكرّرت بنفسِ الصّيغة، تكرّرت مرّتان، وكانت تشدّ على المعنى شدًّا وثيقًا؛ إذ فيها دلائل النبوّة وإعجازٌ غيبيّ.

فقد ماتَ كلّ الّذين عرضوا على مُحمّد أن يترجّل عن صهوة الإيمان من سادة الكفر دون أن يُسلَم منهم أحدٌ، مات أبو لهب وأبو جهل ومن أصر على آلهته، دون أن يعبدوا الله، لقد نفى القرآن إيمانهم لمحمّد، وذلك الّذي كان!!

صدّقني القُرآن فقط هو من يكشِف لك عن آخر ما يتبقّى من الحكاية، ويقرأ لك لحظة النّهاية بوُضوح.

﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ بِصيغة المَصدر الّذي يعني معبودي، والّذي يقول لك أنّ مُحمّدًا كان يَعبد معبودًا واحدًا.

فقه السورة

سورة من آيات ستّ تضجّ بالتأكيدات، تتلوّن فيها الصّيغ، وتزدهر حقيقة واحدة: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦).

يتمّ القرآن لك بها الحريّة، ويعلّمك كيف تعلو فوق التذبذب والتردّد، وكيف تنقُش الإجابات مصيريّة على جبين التّاريخ.

يعلّمك كيف تعطي وعود الثبات لله وألّا تُقدِّم نصف خطوة للكفر أو نصف سلوك، يعلّمك القرآن أنّ الغِربان تختبِئ في مطايا الهرولة بين الغسَق وبين الفجر.

يتربّص بك اللّيل دومًا ولا يريد منك إلّا نصف القبول، ثمّ هو قادر بَعد ذلك أن يُبقيك بلا أذان الفجر، لذا كرّرها: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦)، تمايَزْ في الألوان، والخطوات، والكلمات؛ وهيئات الحال، واذكر أنّ الغبَش لا يليق ببصيرةِ المؤمنين، إنّ الكفر يسعى بإعلامه ومناهجه وأفكاره وثيابه كي يقطفك بالهوينا، ثمّ تلتفت فلا ترى نفسك إلّا أشلاءً تمزّقت في مَعركة هادئةِ سلمية.

صدِّقني، بعضُ المعارك نموت فيها من شدّة دَهاء العمل الصّامت فيها، نموت ولا ننتبه إلّا عند آخرِ زَفرة، ونفقد توحيدنا، نفقد ملامح إيماننا، نفقد هويتنا يوم نقارب الكفر ولو بنصف خطوة، والعبودية هي الحرية عن كل خضوع لغير الله!

●●●

اللّبنة الْخَامِسَةُ وَالثّلاثُونَ

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾

هَذِه سُورةٌ قَصيرَةٌ، لكنَّها عَميقَةٌ في سِياجِها وبَعيدة الأثَر!

تَبتدِئ بِـ ﴿قُلۡ﴾، كأنَّ المَشهدَ يَصِفُ لكَ أنَّ مُربيًا أو مُعلّمًا يُوحي لِمَن بينَ يَديهِ بِما يَكفيهِ كلَّ ما وراء أبوابِ الغَيب؛ ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ (الفلق: ١).

فلماذا الفَلَق؟!

الفَلَقُ: هوَ انبِثاقٌ هَادئٌ نَلمَحُهُ في تَفَتُّقِ الزَّهرِ، وانفِتاحِ الصَباحِ، وتَشَقُّقِ الفَجرِ، وتموُّجاتِ الألوانِ في الحُقولِ بعدَ أن كانَت في غَمضَةِ النوم وصَمتِ الظلام.

تَكونُ الحَبّةُ بينَ يَديكَ مُغلقةً فَتُلقيها في التُّربة؛ فَتُعالجُها الطَّبيعةُ بأسرارِها، وتَنطَلقُ منها غَرسةٌ أو نَخلةٌ، وقَد كانت شَيئًا مصمتًا وسَامدًا؛ لا لُغة للحياةِ فيه، فيكون ذلك فَلقَها.

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾؛ لأنَّنا باللهِ نُدرِكُ ما لا يُدرَكُ ونُكفى ما لا يُكفى.

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ، مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ (الفلق: ١، ٢)، تُبدو الاستِعاذةُ باللهِ مِن شَرٌ ما خَلَق هِي استعانة بالقُوّةِ التي تَعلمُ أسرارَ المَخبوءِ في صَمتِ الفَلق.

إذ إنَّ لِمَا خلقَ طَبيعتين، وهُنا نحنُ نَحتَمي باللهِ من المَخفِيِّ عنَّا فِيما خَلق.

إذ ليسَ كلُّ شَيءٍ يَنفلِقُ عن طَاقةٍ خَيِّرةٍ بل رُبَّما انفَلتَ مِنه ما لا يَصدّهُ إلّا سِرُّ الكَلماتِ الإلَهيَّة.

لماذا الكلمة!

أَليسَ بالكَلمةِ كانَ مِيلادُ الكونِ بـ(كُنْ فَيكُون)؟!

وبالكلمات يَقهرُ اللهُ طَاقةَ الشرِّ؛ فلا يمَسّنا ما لا نَرى ممّا انفلَقَ أو انفلَتَ؟!

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ (الفلق: ٣)؛ إذ للأرواحِ وللذبذباتِ وَلحرَكةِ الحياة أوقاتٌ وأزمانٌ يَعجَزُ عقلُنا عن ضَبطِ مواقيتِها، وعن فَهمِ كَيفَ تَنشطُ أرْواحٌ في اللّيلِ، وتَبردُ في أزمانٍ، وتُقيَّدُ في أماكِنَ، وتَصيرُ هَباءً بِفعلِ بضعةِ كَلمات.

يُوقِظُ الفَجرُ الفلَقَ، ويَفورُ بَعضُ الشرِّ في الغَسَق ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي: انتَشَر، لذا؛ رابِطْ كُلَّ مَساءٍ وكلَّ صَباحٍ على: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ (الفلق: ١).

يَغمُرُنا غُموضُ الأمرِ، وتَظلُّ فلسَفةُ المَعنى في السُّورة أنّ الخَيرَ لهُ ظِلٌّ من الشرِّ، وأنّ الأرضَ لن تكونَ الجنّةَ أبدًا.

طبيعة الحياة

إنّ هذا التَنافرَ في طَبائعِ الأشياءِ هو مَعنَى ابتِلائِنا واختبارِنا، إذ به يَكشِفُ اللهُ عن ﴿النَّفاثاتِ في العُقَدِ﴾، وعن ﴿شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَد﴾ وعمّن يَظلُّ ملتجئًا ﴿بربِّ الفَلَق﴾.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ (الفلق: ٤)، هذه الآيةُ تَحكي لكَ أنَّ المسافةَ بينَ قُوى الخَيرِ وقُوى الشرِّ في الأرضِ سَتظَلُّ لا مُتَناهِية.

فَهُنا سَعيٌ بشَرِيٌّ دؤوب لاستِلهامِ أسرارِ المَخلوقاتِ لِصالِحِ فِكرةٍ فاسِدةٍ هي فِكرةُ السّيطرة.

وهنا يَتَبدَّى جانِبُ التوَحُّشِ في الإنسانِ وقد كانَ قادِرًا أن يَبلُغَ التمكينَ بِخَطوةٍ من عَقلِه، ولكنّه آثَرَ نَفثَ السِّحرِ، وعَبَثَ الشَّياطينِ لامتِلاكِ قلبِ حَبيبٍ، أو بُلوغِ مأرَبٍ بَسيط، أو السيطرة على أمر ما.

وما أعظمَ القُرآن!

إذ يُعلِّمكَ أنّه نَفثٌ لن يَعدُوَ قَدرَه، وهوَ من سِعيِ نِسوة، والنِّسوةُ في مَنطقِ الكونِ حَلقةٌ ضَعيفةٌ؛ فهو ضَعفٌ على ضَعفٍ، ثمّ هُنّ يزِدنَ العَقْدَ؛ لأنّ فيهِ نَوعًا منَ التقَوّي؛ فلا يَحتاجُ العَقدَ إلّا الضّعفاءُ.

المعنى في هذهِ السُّورة

في هذه السورة يُقْبلُ اللهُ بكَ على المواجَهة إذ يَقولُ لكَ: ﴿قُلْ﴾ حتّى تَتَضاعَفَ أنتَ في قُوّتِك كلَّما تَلَوتَ، ويَنحسِرَ الشرُّ كأنّما تَسلبهُ الآياتُ بَطشَ قَوانينه.

إنّ الكونَ مَليءٌ بالقُوى الّتي تَكشفُ عن طَبيعة الخَيرِ يَومَ تَكشفُ في ذاتها عن عُمقِ الشرِّ فيها، وتلكَ مَشيئةُ الله؛ أن يَكشِفَ جَمالَ تَمامِ ﴿الفَلقِ﴾ فينا، وقُبحَ الغَسَقِ إذا ﴿وَقَب﴾ فينا.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق: ٥)، هنا الآية تخبرك أننا نَسمُو بالآلام؛ وذلكَ مَعنًى غامضٌ، لكنّه حقائقُ الحَياة؛ إذ كيفَ تُدركُ طَهارةَ قلبِكَ إلّا حينَ تَرى مِرجلًا يَغلي في صَدرِ ﴿حَاسِدٍ إذا حَسَد﴾.

نحنُ نَرى عافِيَتَنا في مُصيبةِ غَيرِنا؛ وفي الشرِّ يَتَبدَّى لكَ جَمالُ الخَيرِ.

تَتكلّمُ عَينُ الحاسدِ بمعاني رُوحِه؛ فَلا تَرى فِيها إلّا سَوادَ القَبرِ، وتَراهُ كأنَّما هُو في هُوَّةٍ وأنتَ في رَفرَفةِ نِعمَتِك.

فَمن المُصابُ أنتَ، أمْ من نَفَثَ الشَّرَ من قَلبِه!

لذا؛ حينَ أُنزِلت المُعوّذتان أخَذَ بهما النبيُّ ﷺ وتَركَ ما سِواهُما مِن التعاويذِ؛ فقد كانَت الآياتُ كافيةً لِحلِّ كُلِّ العُقَد.

●●●

اللّبنة السَّادِسَةُ وَالثَّلاثُونَ

﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾

هذه الآية هي واسِطةُ العقد في فَهم عمل الشرِّ فينا!

في ظلِّها تنبت معانٍ تنقذك من مصيدة الشّيطان، وتبني لك أسوارًا من الفَهم الّذي يحميك؛ إذِ المعوِّذات ليست كلماتٍ سِحريةً مُبهمة؛ بل هي انتصارُ العقل على فلسفة الشرّ؛ حيثُ يقولُ لك اللّه أنّ هذا الشرّ له صفتان: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾ (الناس: ٤).

فعل الوسوسة

الوَسوسة سلوك صوتيّ فقط، لكنّه صوتٌ قادرٌ أن يخرجك من المِحراب ويتملكك.

أتدري كيف؟ الشرَّ دومًا يختار مقعده بعناية، ويكمُن في الإضاءة الخافتة، ويطيل المكث هناك.

يبدأ الشرّ وسواسه بالطَّرَقات الآثِمة على قلبك الموصد، وعلى (صُدور النّاس)، يقدِّم لك فاكهةَ الشهوّة مُزيّنة، يهمِس لك بصوتٍ عاجز كأنّه منبعثٌ من أقصى العتمة، لكنّه على عجزِه لا يتوقّف؛ إذ هو وسواس.

والوَسواس صوته كصوت الصّفيح؛ يبدو صدِئًا، لكنّه مع تواليه يحرِّك سكونك.

قُل لي بربّك: مَن يبقى في مكانه بعد تَطاير نفسه من صَوت الوسواس الشاحب!

تُهرول هاربًا من الوسواس، ولكنّه على هَشاشته كثيفٌ في توالي همسه؛ مثل نُقطة سوداء لايتوقّف تساقطها فينا.

تَرى قتامته بوُضوح، وتدرك أنه وسواس لكنّه يستولي عليك بالهَمس، وبالهمسِ فقط.

أتدري لماذا؟ لأنّه لا يَستسلم، يَخنس حتّى تظنّ أنّك مَحوْت ظلاله عن جدران قلبك، ثمّ يُباغتك ويظلّ بكَ حتّى تَنطفئ.

أين يكمن كلُّ هذا الخرَاب؟ يُجيبك القرآن، فيقول لك: ﴿فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ (الناس: ٥).

تخيّل أنّك تحمل كلّ هذا الدُّجى في قلبك!

إذ تقول دراسة أكاديميّة أنّ أكثر من ٨٠٪ ممّا يثور من حوارات في نفسك سلبيٌّ وضدّ مصلحتك، وأنّ هذه النِّسبة المُرتفعة من الأحاديث السلبيّة تتسبَّب في أكثرَ من ٧٥٪ من الأمراض الّتي تضعفنا؛ ذلك أنّ نصف المرض هو «وَهم» الإصابة به.

ويذكر أحد العلماء أنَّ حديثنا مع أنفسنا في الثماني عَشرة سنة الأولى من أعمارنا يقارب ١٤٨ ألف مرّة؛ كلُّها تَثبيط وعجزٌ، بينما يبلغ

عدد الرسائل الإيجابيّة في داخلنا في الفترة الزمنيّة ذاتها لا يتجاوز ٤٠٠ رسالة إيجابيّة فقط، وأنَّ معدّل الأفكار الّتي تطرَأ على العقل البشريّ تمَّ تقديرها بخمسين ألف فكرة كلّ يوم! بعضُها فقط نافعٌ، والباقي يَصنع ضنَكًا يحيلك ليلًا.

وما هي إلّا الوسوسة، كلّ هذا الكمّ من الأفكار السوداء وسوسة.

هكذا إذن تهدرُ الأرواح ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ (الناس: ٦) طاقتك، وتسحب قوَّتك.

الجِنَّة والنّاس

هل لاحظت أنَّ الآية لم تُفرّق بين الصنفين، بل جمَعتهما بواوِ العطف؛ لاشتراكهما في علّة التأثير، ورُبَّ أناسٍ ارتدتَ أرواحُهم فِعل الشياطين.

صدِّقني، إنَّ بعضَ الناس يَعصِفون بوسوستهم حتّى يدَعوك بِذرةً بلا تُربة، ومَحارة بلا شَاطئ؛ يتركونك روحًا معلقة، أو يتركونك مثل مجموعة حرائق مُشتعلة، وهكذا الوسوسة تفعل حين تسوقك إلى المَعصية، وهكذا كلّ كلمة فاسدة تخلُق فينا أبجديّات النهاية.

إنّ الوسوسة الإنسيّة أو الجنيّة تحيلنا توابيت تسيرُ على الأرض، الوَسوسة إمّا تمنعُك من الإقدام، أو تكسِر منك الأقدام؛ فتظلّ بعدها حبيس خوف قذفه في قلبكِ صوت ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ (الناس: ٦) أو حبيسَ وهم، أو متحرّكًا نحو مَنفى المعصية.

تشغلك الوسوسة بالضّغائن حتّى تجفّ فيك سواقي الحُبّ، وعندها كيف يَعبد قلبٌ ربَّه وهو مُمتلئٌ بكلّ هذا الحِقد؟!

تثورُ فيك حكايات الماضي، وتُسجن فيها، أو تظلّ الوَسوسة فيك حتّى تبقيك في قُيود الذنوب متثاقل الخَطو عن ﴿مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ (القمر: ٥٥).

سورة هي سياج الطاقة

لذا؛ تنزّلت سورة النّاس في العهد المكّيّ مثل سِياج يحمي توهّجك من الاغتيال، يحميك من أن تكون خيلًا ضامرة؛ فالمعارك الّتي تنتظرك تريدك ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا، فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا﴾ (العاديات: ١، ٢).

المعوّذات تنزّلت كي تفكّ العُقد، وتشدّ لك الليل بالنهار غزْلًا لا تنقضه (النّفاثات في العقد) ولا يناله إعصار.

لذا؛ احمِل قنديل الآيات سِراجًا مُبصرًا، ولا يكن عقلك ولا قلبك خاليًا من الكلمات؛ فالآيات غابة من الحُروف المُثمرة.

ردِّدها على روحك ثلاثَ مرّات، وواجِه تكرار الشّيطان بالوَسوسة بتكرارِ الآيات، ثمّ اسْمع حينها تسبيح اليَمام في روحك، وانتبه كيف يغيبُ صوت الغربان.

واعتصِم ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ (الناس: ١) و﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ (الناس: ٢) و﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ، مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾ (الناس: ٣، ٤).

ربٌّ يمنحك مَددًا من صِفاتٍ ثلاث، كيفَ يستبيحك بعدَها وسواسٌ خنَّاس!

سورة النّاس، هي سُورة القوّة العقليّة والمَعنويّة التي تعلِّمك كيفَ تشنّ الضِّياء على الظلام، وكيف تحمي طاقتك النفسية من اغتيال الوسوسة، ومن تبددها فيما بعد الوسوسة.

كان القرآن المكي يعلم المسلم كيف يدخر طاقته وكيف تنتصر روحه على شر ﴿ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

الإنصات للكون والحياة والناس دون حكم ودون رغبة ما، قدرة عالية، الحب والتوقير لكل روح، استمتع بالإحساس بكل شيء، تذوق تفاصيل الحياة، متاع الدنيا ومتاعبها تفقدنا عيش السعادة، نحن نتعلم كيف ندير الحياة ولكننا لا نتعلم كيف نتذوق الحياة.

الحب هو تفاني الأخذ والعطاء في معنى واحد يمتلك محرابه الداخلي.

●●●

اللّبنة السَّابِعَةُ وَالثَّلاثُونَ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾

هذا هو القُرآن في عظُمته، يَحميك من غبُار الحيرة، ويَمنحك فاتحة الحَقيقة، يتنزّل عليَك بأنفاسِ البصيرة؛ فتصرُخ من قرارةِ عُمقك: لقد حرّرني التّوحيد!

هذه السُورة القصيرة مَحفوفة بالإجابات المَصيريّة لأسئلةٍ هبطَت بالإنسان إلى مُنحدراتٍ وَعْرة، ثُمّ رَمتّهُ في ليلِ الشَكّ!

هذه سورةٌ، فيها معانٍ لم تطأها أقدام الفَلاسفة الّذين عَكفوا على عُقولهم يَبحثون فيها عن صِفات الله، كانت البَشريّة يومها في بقايا عَقيدة، والناس كلّهم في غبَش الشكّ يَتراكضون حين انشقّت السماوات عن وَحيٍ؛ هو انتظارُ البَشريّة وبُشرى الأنبياء!

كانت الدُروب كلّها محكومٌ على نهايتها بالشَكّ، وتتناحرُ فيها الأفكار قبل أن تُضيء الآيات في سُورة (الإخلاص)، وتتّسع الشَمس في الكلمات، وتَضيق في الكتب الأُخرى العَتمات.

سر السورة

في هذه السُورة سِرٌ إيقاع الكون الّذي يَعزف لحنَ الوحدانيّة، بينما تَبدو العَقائد الأخرى في عَزفها كأنّها قيعان الخَيبة الفكرية؛ إذ حاوَلت العقائد الأخرى بالمَجاز مُجاراة ظِلال حقيقة الذَات الإلهيّة؛ فضَلّت وأضَلَّت كثيرًا.

انظُر كم هذه الكلمات سَهلة!

إيقاعها يتّكِئ على حَرفِ الدّال؛ فلا يَكبو لسانك، ويَستند على قَلقلة الدّال؛ فيلتصقُ بها صوتك، ويظَلّ هناك، وتستقرّ الرؤيا في حُضن الفَهم المُبصِر.

أربعُ آياتٍ تختزلُ كلّ حوارات العقول وبحثِ الحُكماء، وتُطلعكَ على صَفاء الشمس دون أن يُرهقك التّحديق.

وضوح المعاني

تمُرّ بك ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد﴾ (الإخلاص: ٣)؛ فتولَد بها، ولا تَغفو بعدها في التِّيه أبدًا، تولَد على أحرُف جملة تَكفيك اضطراب السُبل وانثناء الخَطوات؛ إذْ من مِشكاة القرآن يخرُج ضياء المَنطق.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد﴾ ببساطةٍ مُذهلة، وبُلغةٍ يتقبَّلها العقل ولا يَرتبك بعدها في فكرة الأقانيم والتّثليث، لذا؛ جاءَت الآيات بأمرِ ﴿قُلْ﴾.

فحقّك وَحدك أنت يا مُحَمّد أن تقول، فأنتَ السّنديانة الّتي جذورها فطرتها، السنديانة التي لم تهتزَّ لصوتِ أجراس الضَلال في المَعابد التَائهة.

﴿قُلْ﴾ يا مُحَمّد، فأنتَ من سَيسكُن صوتُك الوديان، ويُحمحمُ في الجبال.

﴿قُلْ﴾، فقد بَشّرَ الإنجيل بك (أنْ أضع كلامي في فَمِك).

﴿قُلْ﴾؛ فعقيدتك بَشّرَ بها عيسى -عليه السلام-، وشَهِدَ لها قائلًا: (وإنّ ما يُعَزّيني هو أنّه لا نهايةَ لدينه؛ لأنَ الله سيَحفظه صَحيحًا).

﴿قُلْ﴾: فرَاياتُ التّوحيد هي الّتي ستَسحقُ الواقع المُنحرف عن هداية التَوحيد كما بشّر عيسى عليه السلام: (فإنّه متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسِه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويُخبركم بأمور آتية).

﴿قُلْ﴾: فوَحدكَ أنتَ مَن يملكُ الجواب عن الحقيقة الّتي سيَدخل لأجلها الناسُ المُثقلون بالضّياع في دين الله، تُبدّدهم الطُرقات في العَواصم، وعلى صَوت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص:١) يجتمعون.

ففي ألمانيا وحدها، يدخل مُسلم جديد إلى الإسلام كل حين، وفي فرنسا، أصبحَ المسلمون مايقارب رُبع الشَعب الفرنسيّ.

وتنبهرُ الدراسات، إذْ في السويد ينتشرُ الإسلام -رغمَ غياب الدعاية الكافية له- بينَ النساء من الأكاديميّات والجَامعيّات بشكلٍ عجيب.

وفي رُوسيا، يبلُغ عدد المسلمين ٢٣ مليون مُسلم؛ أي ما يمثّل ٢٠٪ من عدُد السكّان.

حتى إنّ الفاتيكان يُعلنها قائلًا: (للمَرّة الأولى في التاريخ يبدو عدَد الكاثوليك بالنسبة لسكّان العالم ثابتًا تقريبًا بينما عدد المُسلمين يزداد يومًا بعد يوم).

كيفَ لا! ونُسَخ الإنجيل الغارقة في الشّتات تزدادُ كلّ يوم، بينما ظلّت نسخة واحدة للقرآن تصدحُ بمعنًى مُلتئم متماسك؛ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١)، في نصٍّ أبديٍّ لم يفرُغ من مداد الملأ الأعلى، ولم يتلوّث بمدادِ التّحريف.

﴿قُلْ﴾ ماذا؟ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١)، وليسَ: واحد؛ لأنّ الصّفة في أَحد مُتَمكّنة ومُستقرّة وثابتة، فلا تردّد ولا تغيير ولا تَقسيم، بلْ هو الواحد الأحد الّذي ﴿..لَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ (الإخلاص: ٤).

جمال التقابل في المفردات

وانظُر إلى جَمال التَقابل، إثباتٌ لتفرّده في ألوهيّةِ الوَحدانيّة، ونَفيٌ للمُشابهة في أيّ أَحَد.

لذا؛ هو الصّمد الّذي نرتجفُ على عَتباته، فَمنه بذرة التَكوين، ومنه دَيمومة الجَريان، وإليه تَرحل الروح فيأوي عجزها حتى تبرأ ويشفى منها الجِراح.

لا صكّ اعتراف إلّا بين يديه، ولا يُمنح الغُفران إلّا في فَضاء السُجود له.

لكن ما معنى أحد؟

أَحَدٌ أَحَد، كلمة دوّى بها صوتُ بلال، وعلّمنا منها أنّ: (أَحدًا أحَد) هي الحرّية من كلّ طاغيةٍ في ثوب أبي جَهل.

(أَحدٌ أحَد) عُلوٌّ فوق كلّ أغلال عُروش الوَثن.

(أَحَدٌ أحَد) هو التَوحيد الّذي يعتقكَ من السُجود في عُمق روحكَ لغير الأَحَد.

(أحَدٌ أحد) هي لغةٌ تُكتبُ بها أبراج الفَجر الّذي سيُرسل للبَشريّة الأشعة راسيات.

(أحَدٌ أحَد) ويظل يهجمُ الرّمل على فَمِ بلال ويُغرقه الوجع.

(أحَدٌ أَحد) والسّوط يُلهبُ ظَهره، والنارُ تأكُل حَلقه، والوَعي منه مُتّقد!

(أحَدٌ أحَد) يشتَدّ في غناء الجرح ويستميتُ في رَفع الشّعار، ويُحاصر الطُغيانَ بالتواصل مع الصّمد.

(أَحَدٌ أحَد) مُحَمّلة بالشّوق للتَحرير، لصوتِ بلال فوقَ الكَعبة، للحظةٍ سيَصنعها الأَحدُ الفَردُ الصّمد.

(أحَدٌ أحَد) تعلّمنا كيف نلتقطُ البداية من كلمة أحد رغم الصُّخور الثّقيلة؛ مثل بِلال الّذي استحقّ أن يتفرّد بالآذان، فقد دفع ثمن التوحيد كاملًا، وأدرك مبكّرًا أنّ الحرّية تبدأ من (أحد أحد).

●●●

اللّبنة الثّامِنَةُ وَالثّلاثُونَ

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ، عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾

هذه سُورة تُجمعك على الله وتَحملك على منارة النّور؛ لتَرى الحَقيقة.

تَرفع عَينيك إلى مشهد ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (النجم: ١)؛ لِتُبصر ميلاد الرّذاذ المبارك قبل لحظة المَطر في أمسية حنَونة، ها هو النّجم يَلتمع هابِطًا من الفَضاءات البَعيدة، مِن أكوانٍ بَيننا وبينها مَسافات سَحيقة، يَقترِب ويَدنو منك حتّى كأنّ يدك تَلمسُ شُعاعه (إذا هَوى)، فلاشيء في الكون تائه ولا شارد وللحركة قوانينها، وبيد الله مواقع النجوم.

ما الغرابة إذن في أن يَقترب الوَحي مِن مُحَمّد ﷺ ويتنزل عليه؟!

ما الدّهشة في أن يبلُغ بالرُّؤيا سرّ الطّريق، ويَملك الحَقيقة؟!

أن يَخضب النُّورُ يديه، وأن تَنتهي المَسافات بينه وبين التِّيه، وأن يعلّمه ﴿ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ (النجم: ٥).

كانت الحياة تَنكفِئ قدورها، وينطفئ توَهُّج نجومِها قبل أن يتجلى الهُدى ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (النجم: ٧).

كان قلب مُحمّد ﷺ يهمِس لله بلُغة طليقة مِن فَوضى الجاهليّة، وينظُر في النّجوم على هَديِ إبراهيم الباحث عن الحَقيقة؛ فالنّجوم أبعد عن شائِبة الأرض وأوهام البَصيرة.

كانت إرهاصات الوحي تُبصر مُحَمّدًا ﷺ، تَتراءى له في الرّؤى الصادقة مثل انبلاجِ الصّبح، وتَهمس له أنّها بدَت قريبة.

وكان شوق مُحَمّد ﷺ يشهد له أنّه لامس الوحي واقترب من حقيقة ما في الملأ الأعلى، اقترب منه حتّى ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (النجم: ٨، ٩).

للمرة الأولى، يُبصر مُحَمّد ﷺ روحَه في امتداد الصّحو حين بلغ مقام ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ (النجم: ١٠).

يا للقَلب السّاكن! كيف كان يَحتمل هذه الآية وهو يرى فيها كلمة (عَبده)!

تتورّد بالحُبّ الإلهيّ، ويُولد منها زَمن البعثة، ثمّ تليها كلمة (ما أوحَى) طَليقة مِن التّحديد كأنّها سر المحبّة، أو سرّ حديث، أو شيء فوق ما نأمل ونَتملّى.

لقد رأى مُحَمّدٌ ﷺ ذلك كلّه ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ (النجم: ١٢) وهو من اختار أن يَنتهي إلى المُنتهى، واخترتم أنتم ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ (النجم: ١٩، ٢٠)، كان الفارق بين النبي -عليه السلام- وبينكم أن يَمضي الإنسان إلى آخر الأُمنيات حتّى لو كان مُنفردًا، وبين أن يَسهو عن رحلة العُمر، ويَنحني لصوتِ القوم.

وقد كان بين ذلك، أن يملك فؤادًا مُبصرًا، فؤادًا موقنًا، فؤادًا يُثمر وصفًا قُرآنيًّا بديعًا يصف البصيرة كيف تصبح بصرًا، فقال عنه الله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ (النجم: ١١)، إذ الفُؤاد المُبصر لا يَهديك إلى السراب إن كنت على خُطا من ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ (النجم: ٥).

ومن البصيرة القلبية الأولى تولَد الرّؤيا الثانية ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ، عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ (النجم: ١٣، ١٤)؛ حيث تتفتّح عطور، ويغمر الشّذى مقامًا جعل لِمحَمّد ﷺ مَرفأ؛ حيث الزّمان هناك فجرٌ دائم، أو نور تَفورُ فيه منابع الألوان.

ما سدرة المنتهى؟

﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ (النجم: ١٤)؛ حيث تبدو النّجوم هناك مثل قناديل الضّوء في فَيض الضِّياء الباهِر، يكلّل النّدى أجنحة الملائكة، وينهمر التّسبيح في نُعومة ولُطف على ألفِ ألفِ زهرةٍ ألوانها بعضُ النّعيم، ثمارُها شفّافة؛ وهي اللّذة الأزليّة الخالدة، إذ هنا المُنتهى؛ حيث تَنتهي أثقال الطريق، وتنفكّ الأرواح من قُيود الدنيا، وتبدأ لحظة ارتفاع العيون لِما بَعد المُنتهى.

هُنا، يَقظة الأحلام، هُنا تنفجر الأسرار أنهارًا من الحَقيقة، وهُنا تتمّ هالةُ المَجد لمن كانت أعيُنهم معلّقة بالسّماء!

وبدهشة (إذ) الفُجائية ﴿يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ (النجم: ١٦) من الأصوات والجَمال، ونَشوة الأفراح، وأزمنة أزليّة من روحٍ وريَحان.

ومُحَمّد يُبحر في زَخم الروعة، يجتاز بَهاء السّدرة، ويشهد الله له أنّه ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (النجم: ١٧).

وهكذا تصبح البدايات والنّهايات هي الموعد مع المُنتهى، وكلّ بداية لا تَؤول إلى المنتهى مَقطوعة ولو امتدّت أحقابًا. كلّ خطوة ليس لها صَدًى في المنتهى مَبتورة، بل هي مثل نجم (إذا هَوى)، وكلّ عينٍ ترتفع للأفق الأعلى حقٌّ لها أن يقترب منها الرّشد، ويَفيض عليها بتعبير (ما أوحى) الّذي يوحي لك بِخَفاء المُعطى لعِظَم العطاء. يكتمل توَهّج الروح المُحمّديّة في هذا الصّفاء، ويُعلِن النّور انتماء النبيّ ﷺ لِعالَم المُنتهى.

الوحي والمنتهى

هل تلحظ! ثَمّة رابطٌ خفيّ بينَ التنزُّل الأوّل والصعود الثاني، ثَمّة تَقابُل، بين النّجم إذا هوى حتّى كأنّه الوحي (دَنا فتدَلّى)؛ فالتَقط القلب الباحث خَيط النّور، ثمّ إلى سِدرة المنتهى عَلا!

ثمّة معنًى في السّورة يُريد أن يَسكنك، أن يَغمرك، أن يُزيح عنك أسمال الغِياب عن الله.

تنبِض الآيات بالمعنى، أنّ الطريق إلى المنتهى تبدأ مِن خطوة الإنصاتِ إلى (ما أوْحَى)، (ما ضَلّ) سَعيٌ، و(ما يَنطِق عَن الهَوى) فمُّ أحسن السّمع إلى الوحي.

ومن كان على منهج من لا (ينطق عن الهوى)، ما ضل ولا نجمه (هوى)، ويا غُربةَ مَن لم يأخُذه فؤادُه إلى سِدرة المُنتهى!

وقد كان ما أرادت السورة؛ إذ سار الصحب يقتفون كلّ ما أُوحي وعين القلب على موعد هو سدرة المنتهى، كانت السورة تتنزل في عتمة الجاهلية في مكة وتحملهم إلى أفق عال حيث منتهى الأجور ومنتهى الرحلة ومنتهى السعي، سدرة المنتهى، كانت السورة تكتب لهم ألقًا لا يهوي لو ظلت الخطوات على اتباع (ما أوحى)، وقد كان.

وقد كانوا نجومًا ظلت تستمد بصيرتها من منهج النبوة، ممن (ما ينطق عن الهوى) فما (هوى) منهم أحد!

●●●

اللّبنة التاسعة وَالثَّلاثُونَ

﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ، وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ، ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾

كيفَ تنتَظمُ الآيات في سورة النّجم؟!

كيفَ تَنقُلك مِن دُنوِّ الوحَي (ثمَّ دنَا فتَدلَّى) إلى دنُوِّ لحظة الحِساب ﴿وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ﴾ (النجم: ٤٠)، مِن إيقاع الضّوء إذ يَعتلي في (الأُفُقِ الأعلى) إلى صوتِ العذَاب على مَن ﴿كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ (النجم: ٥٢).

كيفَ تتَقابل الصُّور بين التِقاء الشّهوات كأنَّ ﴿لِلۡإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ وبينَ أن تكبُر الحقَيقة مثل زَهرة بيضاء في شُقوق الرُّوح، فتَسبح بوَعي مُرَدِّدةً ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ (النجم: ٢٥)، ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (النجم: ٣٩).

هُنا معانٍ هي الحِصن المنَيع، تَلتئم فيها خَطوتك؛ فلا تزِلّ عند أمواجِ الطُّوفان، هُنا يشتدّ الفَجر والنّجم في الإضاءةِ حتّى لا تدركك نهايةَ معتمة يظلُّ مَوتك يتَضاعف فيها، هنا يخبرك القرآن عن نهاية تَمحو كلّ غُرورنا، وتُخبرك أنّه ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ (النجم: ٢٦).

تميلُ الرِّياح في الأرضِ على آثارِنا، تبُعثرها، ونَشك أنّ الأشياءَ صارت في خانة النِّسيان، لولا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ (النجم: ٤٠)؛ حينها، تبَدو الأيام قِطعًا مِن الألَم ساعةَ يبدأ الحساب، يتصَاعد اللّهاث، ويُصبح النّبض شاهدًا علينا، شَاحبةٌ هي أنفَاسنا، والأرضُ تتلو أخبَارنا.

ترَى كيف تطيق الحَياة البشريّة أن تحَمل كلّ هذا الكَمّ الهائل مِن الأوجاع معَها إلى يومٍ لن ﴿تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (النجم: ٣٨)؟!

كلّ شَي هُناك يُصبح مِن الماضي إلّا ألم الحُقوق؛ فإنّها مُستقبلٌ كامل ينَتظرك هناك، هُناك تتهجّى كلّ كلمة قِيلت، وكلّ حَفنة من العَذاب سَكبتَها على غَيرك أو سُكبت عَليك.

نَهرع باحثِين في ثَنايا الصّحائف، في الأَسطر المُعتمة عن بياضِ الأجر، عن بياض يقودنا إلى سِدرة المُنتهى، نتَساءل في لوعة القيامة: كيف كُنّا نَلتقطُ الذُّنوب من بَعضنا مثل العَدوى؟! نَلتقطها كأنها غَنيمة، ونَنسى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ (النجم: ٣١).

نتمرّغ في الأسَى؛ فقد أصبَح الذّنب فَقرًا وَفاقة، ويا للخسارة إذْ يتضاعفُ السّعي للعَبد حتّى ﴿يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ (النجم: ٤١).

مدنٌ كاملة تُبعَث، يُسمَع صَوتُ الذُّنوب فيها بلا ضَياع، لا فَراغ هنا، فكلّ طَرق في الدُّنيا يلتقطه الصّدى، أزمانٌ رَهيبة ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (النجم: ٥٨)، وحقّ للقرآنِ أن يعَجب إذ ﴿..تَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ (النجم: ٦٠)!

يُريك القرآن ﴿..إِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ (النجم: ٣٧) مثل انعتاق تامّ يُحرِّرك من خسارة يوم القيامة، ثمّ يرتّل عليكَ الحُروفَ نفسَها ﴿.. ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ (النجم: ٤١) في سَعيٍ لإيقاظِ الصُّورة في عُمقك، إذ مَن وَفّى وُفِّيَ له.

يا لله! إذا فَشلنا في بلوغ السّماء من درُوبنا الأرضيّة! يا لله إذا خَسرنا ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ (النجم: ١٦) وكُنّا مثل ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ، فَغَشَّىٰهَا..﴾ (النجم: ٥٣) مِن العذابِ ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ (النجم: ٥٤).

في تقَابُل غَريب تَنثرُ الآياتِ كلّ المُتضادّات بين أيدينا: الحقّ والظنّ، الضلال والهُدى، الآخرة والأُولى، أَضحَكَ وأبكى، أماتَ وأحيا، غشّى تارة للنبيِّ ﷺ بكلّ دهَشة الفرَح، وتارة للظّالمين بكلّ فَجأة العَذاب، الذكَر والأنثى، أعرضَ وتولّى، مُقابل إبراهيم الّذي وفّى؛ لونان لا ثالثَ لهما، مَنطقتان لا وسط بينَهما!

هُنا الرّؤية مُبصرة، ولا شَيءَ في منتصفِ النقطة، لا شيءَ بينَ بين، لا شيءَ إلّا الوُضوح في الاختيار.

لذا؛ كانت هذه السورة سورةَ (النجم)، والنّجم أسطَع ما يكون في العَتمة.

تكرار كلمة يرى

تتكرّر في السّورة كلمة (يرَى) حتّى كأنَّ الّذي يفصلك عن الوُقوع في الخَسارة أن تَرى ﴿..وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ، وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ، وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ، وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ (النجم: ٤٨ – ٥١).

كلّ معنًى هُنا نُقطة ضوء، الكَلمات لا أسرارَ فيها بل عَصف على أنصافِ الحلُول؛ فإمّا اللّات والعُزّى، وإمّا ربُّ الشّعرى!

إمّا نَحيبٌ أزليّ على عثرة رُوحك حين لم تُرِد (إلّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أو أن تَقِف في حَضرة النّجوم على بواباتِ الطّريق إلى (سِدرةِ المُنتهى).

ورغم أنّ كلّ شَيء له نَقيضٍ في السّورة إلّا أن بعضَ النّاس قادرون على رُؤية الخَطّ الفاصل بين الأضداد هُنا؛ حيثُ تُبدع السّورة في رسم أولئك المَعزولين في مَتاهة الظنّ، مقابلَ الّذين التَقطوا خيط الهُدى، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ (النجم: ٢٣)، مقابل الّذين ﴿جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ (النجم: ٢٣)!

قصيرةٌ هذهِ الحَياة مثل ظَهيرة، قصيرةٌ يوم نتمرّغ في الأسَى ونحنُ نُساق بنداءٍ عُلويّ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ (النجم: ٤٢).

كان اللّه يريد لك أن تكون في دائرة ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ (النجم: ٣٢) فكيف كنتَ ممّن ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ (النجم: ٣٤)؟!

كان اللّه يُريد لك بَصيرةً تُبلّغك ﴿الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ فَكيف غرَقت في ﴿مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾؟!

فهل تنبَّهت ما معنى النجّم في السورة، أن ترى الحقائق كأنّها النّجم، ولا يغيب عن بصيرتك موعد ﴿الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾.

النجم! يحمل مَعنى البَصيرة الّتي توُقِظك، قبل أن ينتهي كل شيء إلى قدر ﴿إذا هوى﴾!

●●●

اللّبنة الأَرْبَعُون

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾

سُورةٌ، تكادُ وَحدها أن تقولَ هذا الكتاب مُنَزّل وأنا الدّليل.

تَشربُ الأوراق حبر الأقلام كلِّها ولمّا تَستبنِ المَعاني؛ تقفُ البَشريّة حَيرى في جَلال الله وهو يقولُ مِن عَليائه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ، أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ (عبس: ١، ٢)، فلا تَدري مِن أيِّهما تَعجب؛ من عبَسَ، أم مِن الأعمى؟!

تبدأُ السُّورة بمَطلع تعثرُ فيه الإنسانيّة على قَانونها، تبدأُ بمعنًى يطوفُ الرقيّ البَشريّ حولَه، ثُمّ لا تَنتهي أشواطه حتَّى قيام السَّاعة.

سورةٌ، الضَّمائر فيها خَفِيّة، والمَعاني فيها جَلِيّة.

سُورةٌ، تتَّسع للضُّعفاء، وتَضيق عن الجَبابرة.

فاتحةُ السُّورة تحدّثك عن رَجلٍ أعمى لا رمَدَ في رُوحه، يَخشى أن يَنطفئ على رِمال مَكّة؛ فَيسعى كَي يمَسَّه الصّوت المُبارك، يتَلمّس النّبيَّ ﷺ، يراهُ رَواءً لعطَش قَديم لذا يرتجفُ كلّما ابتَعد الصوت عنه؛ إذ يَخشى عودةَ السراب إليه، تَشتدُّ في سَمعه دوائر الصّدى في امتِدادها، تَمتلئ بِصَخب قُريش، تمتلئ بضَجيج الزَّعامات، وضجيجُ الزعامات يلوِّث المَدى.

تَتَيبَّس خُطى الأعمى على رمال الانتظار، يتيه في ظُلمة العمَى، يعرقُ الظلّ تحتَ الشمس؛ فالهواءُ في مكّة ثقيلٌ وجَافّ!

يطلُّ عليه صَوت النبيّ ﷺ أبيضَ خفيفًا كأنّه سَحابة طَريّة، يَشمُّ الأعمى رائحةَ النبيّ ﷺ، يتحَسَّس ثيابه بأصَابعَ عَطشى كأنّما يُمسك بها شُعاعًا كان مُنتَظرًا، فيُلحُّ في الطلب، وكلّما تحَدّث النبيّ ﷺ طارَ قلب الأَعمى نحوَ النُّور المُعطّر، لَكأنّ كلمات النبيّ ﷺ أوتارٌ مَشدودة بقلبِ الأَعمى دون الحشد الّذي ﴿اسْتَغنَى﴾.

ما أصعبَ الجَفاف قَبلك يا مُحمّد! ما أصعَب الجَفاف!

لقد كان ابنُ أمّ مَكتوم صادقًا (واللّه لا يُعامل إلّا بالنيّة، ولا يكتب في سجِلّ الحَسنات إلّا الأرقام القَلبيّة).

لذا؛ انتَصر له القُرآن فنوّه به ﴿جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ (عبس: ٨) في مُقابل ﴿مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ (عبس: ٥)؛ فهذا ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ (عبس: ١٠)، وذاكَ ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ (عبس: ٦).

يا اللهِ! كيف تَبدو الأرض في مَهبّ الهَباء نُقطة لا وَزن لها!

لكنّ (الأَعمى) هُنا تُضاء لهُ دُروب السَّماء، يَمشي فيها بعيدًا حتّى يبلُغ عِناية الله.

مهمة القرآن

ثَمّة معانٍ تُوقظها آيات القُرآن؛ لترويض القِيَم الّتي شَاخت، لتَصحيح الرُؤية بعد أن عكّرها دُخان الجَاهليّة.

كان زُعماء قُريش يَخدشون بياضَ الصّوت في سمع الأعمى بجِدالِهم؛ حتّى كأنّ عَتمة النّار من سَواد حديثهم.

قومٌ يُريدون أن تُضبط حَركة مكّة بأنسابهم، واللهُ يُريد لمكّة أن تُضبط على تَرتيل حقائق القُرآن؛ لذا كان الله مع الأعمى، ولم يكن مع مَن استَغنى.

هُنا يبدو الكمال في مَعنى الفَتى، وهُناك النُّقصان حتّى لو كان جمعًا مُتكاثِرًا!

هُنا غدٌ تَغزله لُغة عُلويّة جَديدة، وهُناك الأمس كأنّه لم يكن.

﴿اسْتَغنَىٰ﴾ بِصيغة تدلُّ على رَفض الحقّ مُطلقًا؛ إذ هؤلاء جَمعٌ خُطاهم تُبَعثِر السّنابل، ولا تَبذر إلّا الفَوضى، فلماذا أنتَ لهم ﴿تصَدّى﴾؟ هؤلاء كُهولة لا عافِية فيهم، غائبٌ ذكرهم في المَلأ الأعلى، ومَمرّاتهم إلى النّعيم مُعتِمة، عَلِموا الحقَّ، لكنَّهم آثروا جَمر العذَاب؛ فليسَ لهم أن يَنهمر عُمرك عَليهم.

أمّا مَن ﴿أنتَ عنهُ تَلهّى﴾؛ فذاكَ فتًى ارتدى بَصيرته و﴿جاءَكَ يَسعى﴾، فتًى رأى مَصبّ النّهار حتّى كأنّ العَمى وَهمٌ، والبَصيرة هي أحداقُ الحَقيقة.

عتاب النبي

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (عبس: ١)، بِصيغةٍ ليسَ فيها الاسمُ، وفيها الضّمير مُختفيًا؛ كأنّ العِتاب يقتربُ مِن النبيّ ﷺ ثمّ يَنأى، يُشفَق

على القلب البَاحث عن أيمانِ قُريش للبَيعة، قُريش الّتي تُصرّ على أن تبقى اليُسرى في يدِ الشّيطان.

يبدو العتاب للنبيّ ﷺ حانيًا لكنّه واضح، يبدو عامًّا لكنّه حاسِم؛ فذاكَ منهجُ القُرآن؛ أنّ الحَقّ لا مُحاباة فيه.

غاية المعنى

نحنُ نُبصر إذا ظلّ السّهم مُسدّدًا على ناصِية الخَلل، وتَنْدكُّ ثُغورنا إذا أغمَدنا الحقّ وراَوغنا في الاعتراف بإثمِ المَسيرة.

يُعاتب القرآن سيّد الأنبياء ﷺ في تَعبيرٍ ارتَسم على وَجهه الشّريف لم تَلمحه عينُ الأعمى.

أمَا كانَ يُعفى عَن مثل ذلك؟! لماذا يسجَّل في خلودٍ لا ينتهي أنّ مُحمّدًا ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ (عبس: ١)؟!

ترى ماذا يفعلُ القُرآن فينا؟!

كيف يَمنع القرآن الجِراح أن تَتخثّر على الخَطأ!

يفتحها بِحكمةٍ تَسنُدنا، فنحنُ نَتماسك إذا واجَهنا الوجَع.

نَتماسك إذا تَركنا زقاق الهُروب، وتَعلّمنا كيف نَسرد قبل حُلول الليل قصّة غِيابنا.

لا صَبيحةَ لأُمّةٍ تَخشى الاعتراف بأسبابِ أنينها.

لا صبيحةَ لأمّةٍ تُصَلّي لكنّها تتنَفّس الصّمت على عُيوبها.

لا صَبيحةَ لأمَّةٍ لا تَغسل إثمها بقول الحَقيقة.

نحنُ نختصرُ بَقاءنا إذا أبَينا أن نفهم: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ تُقال للمَقام الأعلى دونَ همسٍ؛ فيظَلُّ الحدث عالقًا بذاكرةِ الأمَّة.

تُقال له ونِيّة النبيّ ﷺ في طُهر السّماء، ولكنّ الله يُعلّمنا أنّ الأعمالَ لا بُدّ لها معَ الصَّلاح من الصّواب.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾، هي قيمةُ الإنسان الّذي ﴿يَسْعَىٰ﴾ في ميزانِ الله.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾، هي سَبْقُ القرآن في بيانِ أنَّ دُموعنا تنَمو وتزيد حين نتوقّف عن ترميمِ أنفسنا.

ما هو الخَطأ في التصور الإسلامي؟ هل هو تجربةُ الإنسان؟

لكن ها هُو القرآن لا يَخبِّئ تلك اللحظة، لماذا؟؛ لأنّنا نُضيء بها، نُضيء إذا حَرسنا زَيتنا مِن تَسلُّل العَكر.

ظاهرُ النصّ عِتاب، وفي باطِنه رَحمة بنا، وظاهرنا نحنُ الزَّبَد إذا لم نَفقه أبعادَ السُّوَر.

كان القرآن المكي يعلم الأمة بقيادتها أن لا صمت على الخطأ، وكلما صححنا المسار اكتمل، وما يكون العمى إلا بغض الطرف عن نقائصنا، تلك قيم حضارية صنعت مهمة أمة بأكملها.

●●●

اللّبنة الْحَادِيَةُ وَالأَرْبَعُونَ

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ﴾

مِثل حَبّات عِقد تَنتظمُ الآيات، تندحُ المَعاني فيها بعدَ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ (عبس: ١)، وتَغوصُ في أعماقِ النّفسِ الإنسانيّة حتّى كأنّ الوَحي بابُ الكَشف للخَبايا والخَطايا، وكأنّهُ نافذة وَعي تطلُّ بكَ على المَكنون في عوالم الآخرة؛ فلا غَفوَ، ولا هَفوَ بعدَ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

يُغادر النَّص بكَ في رِحلةٍ هَائلة مِن وجَع لحظةِ ﴿مَن استغنى﴾ إلى ﴿صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ، مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ (عبس: ١٣ - ١٦).

تمَتدُّ عينُ النبيّ ﷺ مِن بَطحاء مكّةَ إلى سَماءٍ فيها الصّباح مَلائكيّ، وفي الأيدي شَعائر التّقديس للصُّحف الجَليلة.

زمانٌ مُباركٌ يَستغرق تَسبيح السَّفَرة وهي تَحمل الصُّحف لِعُلوٌ طَليق، تطوفُ الرُّوح هُناك في طَهارةِ الصُّحف، في إيحاءِ الكَلمات إذ تقولُ لك: ﴿مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾؛ فلا تلمحُ إلّا تَسبيح الحِبر إذ ينسابُ في ﴿صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (عبس: ١٥، ١٦)، **تفتتح مناسك التّكريم، ويَنبلجُ الفَجر مِن يَديها عِطرًا أزليًّا،**

تَفرشُ الملائكة لِحُروفِ الوَحيِ مَدارجها؛ فمِن اللّه الكلمات، وإلى اللّهِ الإياب.

يَتَكثَّف التّكريمُ للصُحف، وتُرفرف مَلائكةٌ كِرامٌ، ويَجفل الخَيال فلا يطيقُ فَهم ما خُبِّئَ مِن المَقامات والأحوال!

فيا هَناء مَن تقَلَّد من جُمانها قَلائدَ تَسُوقه لفردوس درجاتُه مُلوّنة بِطَيفِ الوَحي؛ حتّى كأنّه القبَس البَهيج!

إنها تذكرة

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ فَما يَضيرُها ﴿من استغنى﴾ حتّى ﴿أنت له تصدى﴾.

مَن هذا الّذي يَستعلي على اللّه؟!

مَن هذا الّذي يغيّم مثل غَباش، مثل غبار ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ، مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ (عبس: ١٨، ١٩)!

يا أيّها الإنسان، يا شيخوخةَ الصّلصال!

يا انطفاءَ الذّاكرة!

يا نُطفةً قَذِرة!

وما حَكايَتُك إلّا: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ (عبس: ٢١) **فَلِمَا تَخدِشُ وِعاء العُمر بِوَهم الكِبر؟!**

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ (عبس: ١٧)..!

مَن نحْنُ؟! نَحنُ هُنا ظِلال الحَقيقة، وَوحشة الطُرقات البَعيدة عن الجنّة.

يَمحو الشّيطان مِن أقدامِ أبينا آدَم آثارَ الرُّجوع؛ حتّى تَرِث ذُرّيته قَلَق التّخبّط في الجِهات بلا دَليل.

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ (عبس: ١١، ١٢) هذي المَسافةُ بين تيه المَرء وبينَ إشراق السّبيل، يُشعل لك التّنزيل الرُّؤى واضحة، يُوقِفُ تَساقطك على سَراب الخِداع، ثمّ يقول لك: إنّ الجسد المُسَجّى المنسي﴿إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ (عبس: ٢٢)! لن يَشْرَبك تُراب الأرض، بلْ لك مَع الله موعدٌ؛ ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ (عبس: ٣٣)، وحينها، إمّا بعد المَوت عافية، أو خَيبة وسُوء عاقبة.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ، وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: ٣٤ - ٣٧)، هُنا صَخَب القيامة، اعتراضُ الحقوق، دُخانُ الخَطايا، خوفٌ ثقيل، ظمأُ الأنين، جَذْبُ الصَّحائف، وصَمتٌ تَغصُّ به الحُلوق، عويلُ العَتمة الّتي لا تَنتهي، ولهيبُ الحَرائق الّتي أشعَلَتها الذُّنوب، يذهبُ النّاس إلى النار ولا يَعودون، هل يعودُ الحَطب؟ أو هل يعودُ الوَقودُ؟!

لا نهايةَ قَريبة ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤)، سَفَرٌ يلتقي فيه الجُوع والوَجع، يحطِمان العَبد حتّى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ، وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾، الوجوه شاحبة والزاد زاد الحسنات، تنفتحُ الصّحائف، وتُصبح الحَسنة لُقمة، والحَسنة غَيمة،

والسّيئة جَمرةٌ لا تَنطفئ، تزدحمُ الدُّموع في قلَقٍ لا يَنغلق، تُحصي النّار مَن لها خُلِق، حَشْرٌ كُلّه رَهَق!

يا للرمادِ إذ تفوحُ منه رائحةُ الحَريق!

وياللقُرآن إذْ يَصْدُق وهو يقولُ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: ٣٧)!

مَن يشتري عِتقه؟!

لذا؛ قالَ لك: (إنَّهَا تَذْكِرَةٌ).

مَن يوقف بُكاء قَدميه قبلَ أن تُساق إلى السّعير؟! (إياكَ أن تُبعَث كهلًا عاجزًا يوم القيامة)، إنّ شُحّ الحَسنات باهت، شُحّ الحَسنات قَحْط، وعلى أرض المحشر وُجوهٌ مِن ظُلمة الذُّنوب واهية ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ (عبس: ٤٠) .. وجوه ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ (عبس: ٤١).

فجأة! تَشخَصُ الأعيُن وتَهفو؛ ثمّة تَسبيحُ فَرَح!

صوتٌ كأنّه غِناءُ طَيرٍ على كَفِّ النّعيم يَصطَفِق!

تُلامس تَنهيدةُ الخَلاص قلوبَ السّامعين، كلماتٌ كأنّها قوافي المُستحيل، لقد نَجَوا!

يَتشظّى النّاس ساعتها بينَ الحَسرةِ والنّدامة، هل تَعرف طعمَ الفَرَح المُرّ؟!

هل تذَوّقتَ كيف تَنسَكِبُ في الهَمّ إذْ تَرى رَتلًا كُلُّهم معنى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ، ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ (عبس: ٣٨، ٣٩) وأنتَ تتَناثر بين الخَوف وبين عذابِ صَوت الصّاخة!

تَلمحُ الأغلالَ؛ فلا تَدري لِمَن تُعَدُّ؟!

تلمَح مَراكبَ تَتلاشى في غَيب الشَّقاء؛ فلا تدري أتكونُ أنت مِن بعد؟!

تلمحُ عُمرك يَمُرُّ؛ فلا تدري لماذا كنتُ ممن ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ (عبس: ٢٣)!

مكتبة
t.me/t_pdf

كنتَ تهرُب بعيدًا بالأماني، وكنتَ ﴿تلَهَّىٰ﴾!

لماذا بَذرتَ أيامك في الرِّمال؛ فلا تَرى لها اليوم جُذوعًا!

تُستَهَلُّ السُّورة بقوله تعالى: ﴿عَبَسَ﴾ (عبس: ١)، ويظَلُّ صوتُ العِتاب فيها مَمدودًا!

عتابٌ لَمَن هيّأ اللّٰهُ له: ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا، وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ (عبس: ٢٨ - ٣٠) وصَبَّ له ﴿ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ (عبس: ٢٥)؛ فجاءَ يوم القيامة ظَمآنَ يَستَسقي مِن جِرار النَّاس ماءً، وصَاغ مِن آثامِه وجعًا.

كانت آثامه قَيْظَهُ؛ حتَى ما ارتَوت شَفتَاه ولا بَلّت لهُ ريقًا.

السُّورة عِتابٌ على مَن لا يَستجيرُ بالذِّكر اليوم من الهَجير غدًا، وهي الرُّؤيا الطَّليقة لِمن يُسْرِجُ الضوءَ اليوم بِزَيتِ الدُّمُوع، لِمَن يصنَع مِن حَياته اليوم لُغَةَ المِعراج، ولِكُلِّ ﴿مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ (عبس: ٨).

ما أجمل القرآن المكي وهو يحيي فيك الآخرة وأنت على دروب الأرض!

● ● ●

اللّبنة الثَّانِيَةُ وَالأَرْبَعُونَ

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ، وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾

سُورةٌ، لا وَراء بَعدها، وأمَامها الأسرار!

سُورةٌ، كلُّ كلمة فيها سَنَدُها موصولٌ إلى وعدٍ إلهيٍّ؛ أن تَغدو قفارنا كلُّها أجمل الأَقدار!

سُورةٌ، تُنشئ تَضاريسَ حُدودُها هَرولةُ الفَيافي لصوتِ الآذان!

سُورةٌ، كلُّ حرفٍ فيها يَسكنه كون من نعيم قادِم.

سُورةٌ، هي نُبوءة المُستقبل؛ أنَّ أُمَّة كانت مَغلولة الخُطى ستُصبح هي معنَى القَدْر.

سُورةُ (القَدْر)، هي قَدَرنا الخارج عن حُدود الخَرائط، وحدود التوقعات، قدَرٌ سارت إليه الفُتوحات الإسلامية بجيوشها حتّى بلغَت غَرب أُوروبا؛ فرَنسا وإيطاليا وسويسرا، وكادَت به روما أن تَخضع للحُكم الإسلاميّ، ولولا أنَّ البابا أقَرّ بدفع الجِزية مدّة عشرين عامًا لَارتفعَ الآذان فوقَ أبراجِ الفاتِيكان حتَّى الآن.

ما القَدْر؟

وما سِرُّ هذا المَعنى؟!

القَدْر: كلمةٌ عَصِيَّة الفَهم على عربيٍّ اعتادَ السَير على الهامِش، فما لَه وما لِشَرف الحضور في التاريخ، وأقدار القدر!

ما القَدْر؟

في صَحراءَ تمتدُّ في روح الأعراب، ولا يتَسَلّل منها غير صوت السَبْي، يتأبَّط الأعرابيّ فيها سَيفَه وأساطيرَه وقصيدةً شاحبة ليسَ فيها إلّا أمجادُ الغَزل.

القدْر هو: كلمةٌ في أوّل التّنزيل كانت نَواة مُعجزة ستَنقُش أمّة مُحمّد ﷺ تفاصيلُها، كلمةٌ ستَجعل من الأرض كلِّها للمُسلم سِجّادة صلاة ومسجدًا.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ (القدر: ٢)، حقًّا هذا سِفرٌ سَماويٌّ لا تَعرفه البَيداء، ولا تَعرفه أماني العَرب.

لم يقل النصّ: إنّا أنزَلنا القُرآن؛ بل قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ (القدر: ١) اكتَفى به ضَميرًا كأنّه من قُوّة النّبض مِلءُ السّماوات ومِلءُ الأرض!

﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ بضمير الغائب؛ حتّى كأنّه يخبرك: سيَظلُّ القُرآن غائبًا حتّى تُجَلِّيه أمّة القَدْر؛ فنحنُ أداةُ الله في الكَشْف.

كلُّ كَلمة مَسدولٌ عليها الحِجاب حتَى نُجَلِّيها بالفعل، نحن من نَشُقّ المعاني، ونجعل من الآيات والسُوَر سُطورَ الحَقائق.

﴿القَدْر﴾ هو كلمةُ الله فينا نُبقيها صوتًا وترتيلًا؛ أو نهَبها سَعينا حتَّى تُشرق بالبُرهان.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾، بصيغةِ الجَمع الدالّة على العظمة؛ وهنا يكمن الإيحاء.

كان الفَتح قادمًا من الإنسان وليسَ من مكّة، من عُمق الإنسان الّذي جَمع الوحي وعيًا، ثمّ صار به أسرابًا للهُدى، كان قادمًا من المعاني الّتي وُلدت وقالت للجَاهلية: كَفى للإنسان هدرًا؛ فصارَ المُسلم بعدها أبجَديّة المدَارج لمقامات الرّاسخين في العُلوّ، والعِلم، والسّلام.

لذا؛ جاءت سُورة (القَدْر) بعد سُورةِ (إقرأ)؛ فصَاغتا مَشهد الرِّفعة مِن سطر الكِتاب.

لقد كان القارئ الأوّل يتلَقّف المَعنى بِكرًا؛ فيوقظ فيه الفَهمَ عميقًا، ينتبهُ أنّ للقدْر دربًا يبدأ من: (إقرأ)، الكلمة الّتي بنَت في كلّ بيت مُسلم مكتبة حتّى صار التّباهي بين الناس بقَدَر ما لديها من كتب نادرةً وَثمينة.

يُسافر التُّجار إلى أقصى بقاع الأرض للحُصول على نُسخة من كتاب، يرحلُ الرَجل من بيته فَيحتاج إلى قافلة من الجِمال كي تحملَ كتبه، وتُصبح المدائن مَخطوطة معالمها بالمَكتبات، وتُوزَن الكتُب المتَرجمة بالذّهب.

وتَعرِف الأُمّة أنّ سُورة (القَدْر) هي قمّة الشّرف، وأنّ للقِمّة حبالًا، مَن شَدّها مالت له الشَمس وما مالت عنه، ولا ازّاوَرت عنه ذاتَ اليمين وذاتَ الشّمال.

سُورةُ (القَدْر) تُعلن أنّ اللّيلة في عمر الأُمّة (خيرٌ مِن ألفِ شَهر).

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٌ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٍ﴾ (القدر: ٣)، كلُّ لحظة فيها تَفتح لك ألف باب للفَتح، حتَى تصيرَ الخطوة من عُمرِ الأمّة بُرَاقًا، يَلتقطُ المُسلمون المَعنى، ويتّقدون في صَلاتهم، يتّقدون في عبادة تصنع لنا قدرًا؛ يصنع لبقائنا ألفَ جَذْر.

يُخبرنا التّاريخ، عن البيروني إمام علم الفَلك؛ أنّه قاس محيط الأرض، وأكد كُرويّتها، وفَسّر توالي اللّيل والنّهار عبرَ دورانها، وبيّنَ بدقّة اختلافات المَواقيت والغُروب والشُّروق حَسب مواقع البُلدان فوقَ خَريطة الدُّنيا؛ كان البيروني يَفهم أنَّ القَدْر لا يُمنَح؛ بلْ تَجثو الرُّكَب على كتابته ليلَ نهارَ.

تتوالد الأسماء في محراب العلم؛ الخَوارزميّ، الطّوسيّ، ابنُ سينا، الرّازي، الكنْدي، ابنُ رُشد، والزّهراويّ الّذي ألَّف كتابًا فيه ١٥٠٠ صَفحة، يشرُح فيه أُسُس وأساليب الجِراحة، وعلماءُ آخرون كُثر مثل نُجوم لا تُعَدُّ ولا تُحصَى.

لقد كانوا قدرًا مباركًا لأمة أراد الله لها ليلة القدر، ﴿ليلةٌ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ (القدر: ٤) تَزِفُّ لكَ سَخاء الألواح، وتُغلق لكَ كلَّ جُرح.

﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ (القدر: ٥)، كأنَّها تَستَنبتُ الشّفاء والدّواء وعافية المُتعبين.

سَلامٌ هِي ليالينا، سَلامٌ هِي حضَارتنا، سَلامٌ هي أقدارنا.. سلام نحن للبشرية جمعاء.

ولقد حكَى التّاريخ أنّ الشّرق المسلم كانَ شِفاءً ورحمةً، رحلَ إليه أجناسٌ مِن الأمم؛ مِن مَغاربة وأكراد وأتراك، ومِن الصّين وبُخارى ومِن مَجاهل أفريقيا وآسيا وأُورُوبا، يتلقّون العلم، ويُكرَمون برواتبَ تُجرى عليهم، ومساكنَ وأطعمة في أروقة زاهية بَهيّة، فإذا دخَل عليهم الأُمراء والوزراء خَلعوا زَيّ الإمارة، ولبسوا زيّ الجامعة تواضُعًا لِعتَبات العلم وأعمدة المَشايخ.

وكانَت المَشافي في أوروبا غُرَفًا للضِّيافة مُلحَقة بالكُنائس والأَدْيِرة، تُقدِّم الطعام لعابري السّبيل، أو مَلاجئ للعَجَزة، والعُميان والمُقعَدين.

بينما كانت في ديار الإسلام دُورًا تتّسع بالفَخامة والجَمال؛ كأنّها قصورٌ مُزَوّدة بالحَمّامات والصّيدليّات؛ لتَقديم الدّواء والأعشاب، فيها المَطابخ الكبيرة لِتقديم الطَعام الطبّي المَوصوف للمَرضى.

وفي كلّ مَشفى قاعة كَبيرة للمُحاضرات والدُّرس وامتحان الأطّباء الجُدد، ومُلحقٌ فيه مَكتبة طبّية ضَخمة مَلأى بالمَخطوطات الطبّية، وحَول كلّ مَشفى حدائقُ، من بينها حديقةٌ للأَعشاب الطبّية.

القدَر الرفيع كان قدرُنا

فيا للهِ! مَن يداوي اليوم للأُمَّة جُرحًا يزدَحم بالألام! من يداوي غياب قدرنا بين الأمم!

اللهم إنا نستغفرك من غياب سورة (القدر)، نستَغفرُ الله من خَريطة تَلفح فيها أساطيلُ الأَعاجم، ولا امتدادَ لنا فيها، نستَغفرُ الله مِن مصاطِب العلم إذا خلَت مِن كراسينا، نستَغفرُ الله من زمانٍ رَكِبَ الحُزن فيه إلينا، وطالت فيه الظّهيرة، نستَغفرُ الله من غيابٍ

سُورة (القَدْر)، ومن أمَّة غارقة في التّصحر؛ كأنّ سُورة القَدْر ليست مَسطورة في مَصاحفها.

من نَحن اليوم؟!

وما كلُّ هذه الرّايات الّتي ليسَ عليها حُروف كلمة القَدْر، زَبَدٌ هي الرّايات الّتي تُبقينا أضْدَاد، زَبَدٌ هي الكلمات الّتي لا تَصنع من تاريخنا أذانًا يَطول؛ فلا تَحُدّه أمتارٌ ولا أسوار، زَبَدٌ طافٍ وأصفار.

يا أمّة القَدْر، لا قَدرَ لنا اليوم؛ تَذروُنا الرِّياح؛ كأنّنا وَثيقة كُتِبت بأحرف مِن غُبار!

مَن نحنُ؟!

ومَن طَفِق بِخَيلنا مَسْحًا بالسُّوق والأعناق؟!

وكيف صرنا فِعلًا ماضيًا قيّدَه التَاريخ بالسُّكون؛ فلا مُضارعَ بَعده؟!

نَحنُ اليَوم ومع اصفرار الغَسَق غابت عنّا علامة الدّهشة، وبقينا سُؤالًا ما لَه جواب!

نَحنُ اليوم، أُمّة تسيرُ إلى بُزوغها بلا قَدم!

حدِّثوني، من يسيرُ إلى بِزَوغه بلا قدَم؟!

سُورة (القَدْر) هي إرادةُ الله، وهي ابتلاؤُنا، ونَحنُ مَن نملك أن نجعل مِن فَحواها حَقيقة المَعنى، نحن مَن نملك أن نكون قدر الله، وأن يكون لنا قدر العلوّ لو فقهنا رسائل القرآن.

●●●

اللّبنة الثّالِثَةُ وَالْأَرْبَعُونَ

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾

سُورةٌ، تَضبط الجَواب على سُؤالٍ قَديم: مِن أيِّ سُلالةٍ يَنبعثُ الشَّرُّ والخَير فينا؟

نُوصِدُ أنفُسنا بسذاجة، ونَظنُّ أنّ أشرِعة سُفننا تهتَزُّ من ريحٍ يَبعثها الشَيطان.

لكنَّ السُورة تُعيد تَعريف الحَقيقة، وتَهزمُ سَراب الفَهم، وتقولُ لك: (فألْهَمَها).

تبدأُ السُورة بمهرجانٍ كَونيّ يعادلُ بُركانًا نَفسيًا داخليًا، حركة مَوّارة لا تتوقّف في الفَضاء، تُعادل نَفْسًا تشتعلُ كلّ يوم بتَبعثرها!

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا، وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا، وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا، وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا، وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا، وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ (الشمس: ١ - ٦)، كُلّها مَسبوقة بواوِ القَسَم، تُنصتُ إليها لِترى ما بعدها؛ فلا تجدهُ إلّا أنت.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشمس: ٧، ٨)، أكانت كلُّ هذه الأقسام تُزرَعُ مِن حَولِك لأجلك؟!

آيةٌ واحدة فقط تَسرد لك الحكاية؛ كي تنكفئ على داخلك، وتُحَدِّق طويلًا.

أنصت إلى المَعنى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشمس: ٧، ٨)، هذه النفس هي معركتك الداخلية، ومَن لا قرار له مَع نفسه لا فِرارَ له إلى ربِّه، لذا؛ قيل: ابلُغ حدّك تُدرِك خَطوتك.

وإنَمّا العِرفان الحَقيقيّ يبدأُ من ذاتك، وَبعدها تبدأُ مَقامات الترقّي، لذا؛ أوصِد الخارج، وانتَقل إلى الداخل.

هنا سَفرٌ غيرُ مألوفٍ تَصنعه لك السُورة، وكلٌ عبد يعرف طريق البَدء في السفر (يكاد يضيء)، لذا علمك البداية فقال لك: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس: ٩، ١٠).

فما هي التزكية؟ وما هي التدسية؟

التَزكية: طهارةُ الكَشف.

والتَدسية: إدخالُ السّوء على السّوء، وهنا تتجلى بلاغة المفردة القرآنية حيث تبدو كل كلمة كونًا من المعاني، ويضيء لك القرآن بها طريق الفهم؛ فكل إدخال للسوء على السوء مآله الخيبة، وكل تطهير وتنمية مآله الفلاح، بين لك بين منهج الإصلاح وطريق الضياع في كلمتين، التزكية والتدسية.

وبينَ التَطهير والدسّ كما بينَ القُرب في ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ (النجم: ٨)، وبين الهاوية في ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (النجم: ١).

وَقَدْ خَابَ، ما الخيبة؟

الخَيبة: هي فَوت الطلب، كأنها المَقبرة المَنصوبة في خاتمة الشّهوة.

فما هو مراد السورة، وماذا تريد السُّورة إذن؟!

اعرِف قلبَ القَلب مِن قَلبك؛ هذا نداء السُّورة، وهذهِ قاعدتك الّتي لا تَنهدم، وسَكينتك الّتي لا تزِلّ.

هذه السُّورة، تَمنحك كثافة الرُّؤية للحَقيقة؛ حيثُ الآية هُنا معنًى مُضيءٌ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشمس: ٨).

فانظر بعَينِ قلبك إلى قَلبك، ثُمّ انظر مِن قلبك إلى بقيّة الطّريق.

كلُّ واو قَسَم في السُّورة واوٌ مضيئةٌ تُمسك بناصيتك، وتُعَلّمك أنّك قادرٌ أن تقودَ حَركة التّاريخ؛ إذِ النّفسُ فيضُ الهَزيمة أو فيضُ الانتصار، ونحنُ مَن نكتُب حدود المَدافن أو حُدود الفُتوحات!

وكل ذلك يبدأ من ذاتك، من انتصارك الداخلي، ﴿فألْهَمَها﴾، دَلَّكَ كَي يَدُلّ بِك؛ فألهمَك الإقبال، وألهمَك الإعراض والإدبار؛ حتّى كأنَّك الشَمسُ في ضُحاها، وكأنّك القَمرُ في الظُلمة إذا تَلاها!

فاختر أن تكون ما تشاء، واذكر أنّه مَن ألهمك كيفَ تُلاحق خَيط الضّوء حينَ قال لك: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ (الشمس: ٩)، وفي اختيار كلمة الفلاح معنى عميقًا، إذ تعلمك المفردة القرآنية أن التزكية تحتاج بذرًا وسقاية ورعاية حتى تؤتي أكلها زكاة ونماء.

معاني التّمازج في السُّورة:

يبدو التّمازُج في السُّورة بين الضّوء والعَتمة، التّمازج بين النّهار واللّيل، كما التّمازج الدّاخلي فينا بين الفُجور والتّقوى، كل هذه المعاني تحتشد في السورة حيث التناقضات كلها في سياق واحد،؛ كأن السورة تقول لك: نحن مثلُ عَجينة تَجمع الشّقاء والسّعادة؛ وتلك مُعجزةُ الاختيار فينا؛ إذ نَحتوي الأضداد؛ القُرب والبُعد، ولا مسافةَ بينهما إلّا قَرارك.

هُنا، اللّغة فضاءٌ مِن المَعاني يُشعلُ لكَ الجِهات؛ فتَرى الحَقيقة أنّه لا نِصف تَسبيحة، ولا نِصف صَلاة.

هُما لونَان لا ثالثَ لَهُما: إمّا اليَقظة، وإمّا سَهو الحَياة، ونحنُ إنما نكتَمل بالاختيار، نحنُ دلالة السّواد أو البَياض، وفينا معنى ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ (الشمس: ٣)، ومعنى ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ (الشمس: ٤)، وفي الحياة بكل اختباراتها وتناقضاتها نحتاجُ إلى وعي مُؤمِن يَمتدُّ في شِعَاب القَلب، بَعدَها، القلب قادرٌ أن يَلتقط الضّوء، ثمَّ يَكمُل لك مَدار الطّواف، ويبلغ بك البيت المعمور.

انظُر إلى جَلال المُفردة، وعَظمة المَعنى، الشّمس والتّزكية، واللّيل والتّدسِية: ظَواهر طبيعيّة لها صِلة بأحوال النّفس الإنسانيّة؛ حيثُ لا يَشتَدُّ عَويل اللّيل إلّا بغيابِ الشّمس.

الحقيقة أن هذه السُّورة خَيطٌ في محاولة الشُروق، وربما لذلك ابتدأ بالقسم ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ (الشمس: ١).

فهل السُّورة خطوة نحو البصيرة!

ربما تبدو هذه الآية هي واسطة العقد ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشمس: ٧، ٨)، ومنها نفهم أن السورة منهجُ حياة، وكلُّ آية فيها سَخيّة بالحَلّ، تُخبرك السورة، أنّ هذه الشُّقوق الّتي في طُرقنا هي بداية الأخَاديد إن لم نُرَمِّمها.

لونُ خَطواتنا، هو لونُ قُلوبنا، لِذا قالوا: (ما تَسترهُ القُلوب تُعرّيه الأحوال).

والسُّورة تؤكّد أنّك مَن أظلَم على نفسه مِن نَفسِه، وأنّك مَن اتّسع في النُّور مِن عمقه، لذا!، لا تُعاتب نَجمة خافِتة في الطَّريق؛ بل عاتِب بَصرك وبصيرتك ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ (الشمس: ٩)، هذا هو السَبيل، ومَن خرج عن الدّليل ضَلّ السَبيل.

ما أبيَضَ الحَقيقة في كتاب الله!

وقد علَّق السّلف على هذه الآية بقولهم: (وعلى قَدرِ المُزاولات تُعطي المَلَكات، وكلّما كان القلب أتمّ في السّعي كانت الإعانة له أعظم، وعلى قدر اشتغال العَبد بالله يكون اشتَغال الله به).

ثمّ ماذا؟ ثم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ (الشمس: ٩).

فلماذا التعبير بالفلاح؟

لأنّ الفَلاح يتطَلّب شَقّ الأرض وبَذرها، وانتظار المَطر، وهذا يعني دوام الطَّلب!

فأَعِن بذارك بالدُعاء، وردّد: آتِ نفوسنا تقواها، وزَكِّها أنت خير من زكّاها.

ويَكفيك مِن رَوعة السّعي قولُ السَلف: (انتَهى سَفرُ الطّالبين إلى الظّفر بأنفسهم).

وذاكَ يكفي كي تَلتقط شَهقة الفَرح، وتقولُ: فُزتُ وربِّ الكَعبة.

سورة (الشمس) تحمل الإنسان مسؤوليته الكاملة في نتائج اختياراته، تخبره أنك مزود بكل الخير والشر وأن الفلاح أو الخيبة قرار ذاتي، وتمنحك منهجًا للتزكية عبر مفهوم (الفلاح)، كما تخبرك أن إدخال السوء على السوء يبلغ بالمرء خيبة المآل.

في السورة تتألق المفردة القرآنية في ثراء معانيها وبلاغة دلالتها وسخاء ما فيها، وفي السورة المكية يتضح مراد القرآن عبر بناء جديد للإنسان.

●●●

اللّبنة الرَّابِعَةُ وَالأَرْبَعُونَ

﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾

هذه السُورة نَضِرةٌ حُروفها، تَفيءُ إليها رُوحُ بلال، وسُميّة، وَعمّار، وَزنيرة، وكلّ الذين احتَرقوا من بعد!

فَفي حُضن هذا اللّحظة تاريخُ أُمم مِن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، صَوتٌ رَويٌّ، يَحكي لك القصّة؛ ثمّ يقولُ لك: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ (البروج: ٢٠)؛ فتَبرأُ الرُّوح مِن جراحها، وتبرأ الأحزان من آلامها، يَقتربُ منكَ الصَوت ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (البروج: ١٢) فتَرى في الأُفق مَوجة، يغيبُ الحطَب، وتُصبح (قابَ قوسَين أو أدْنى) مِن صَوت الماء في الجنّة.

يبشرهم الله بـ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ (البروج: ١١).

فيا لَصوت الأنهار في ظَمأ غربة الدّين!

ويا للّه! كيفَ تَرتدي الكَلمات هُنا رَعشة الجَمال في وَسط الحَريق؟!
﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ، ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ، إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ، وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾ (البروج: ٤ – ٧)، رغم النار ثمّة

عُرسٌ سَماويّ يتوهّج في رَماد الشُهداء، تَضحك أطيارُ الجنّة، ويَنجو الشُهداء رغمَ الأخاديد، رغمَ القبور.

هنا يُنشئ القُرآن لكَ البَوصلة، ويُلغي لك فَوضى التّفكير والظنون والاحتمالات؛ إذ يُعلنها: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ (البروج: ٨).

هُنا، نهاية الأسئلة؛ حيث الحقيقة لا تُصالح مع الّذين يَحملون للحقِّ المَعاول.

يُحفَرُ الأُخدود عميقًا، وتُهَيَّأ للمَآقي مَشاهدُ الدُّموع، تَنتقل أمٌّ بطفلها مِن بُقعة ذَاوية لأُخرى خَاوية؛ علَّ النَّجاةَ تكونُ بَينهما؛ تَضمّه بِهَلعٍ، وتَستجيب لِما تَبقّى مِن الحَياة بنظرةٍ فاترة.

يتَقاذف أصحاب الأخدود الحَطب؛ فَتشرُد عينُ أب حانية على صَغير، ويخوضُ اللّهب في قَلبه، يتَهافت المَوت مِن كلِّ نَاحية، تُومض النّار بقوّة؛ فيَجفُّ المِلح في الحُلوق، وتكفّ الذّاكرة عن النَّبض، يتعثّر في سُقوطه، فتَدفعه يدٌ ظالمة إلى ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ (البروج: ٥)، ترتعشُ الشَمس، وتوَدُّ لو أنّها تتَوارى عن وجه الظَّهيرة؛ لأجلِ أن تَرحمهم، يسقُطون؛ فيقتَسمون إرثَ النُّجوم ويُحَلِّقون، يسقُطون؛ فَيزدحمون بالنَّعيم.

تحطُّ فراشاتُ الجنّة عند كلِّ كلمة من السُّورة، ويبتسمُ النّعيم ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ (البروج: ١١)، تُسافر الملائكة إليهم؛ مثل أسرابِ الفَرح، تنزعُ عنهم ثياب الفقد!

يُهَدهدون صغيرًا تعثّرت به أمُّه في ﴿ٱلنَّارِذَاتِ ٱلْوَقُود﴾ (البروج: ٥)، وبين عَثرتها وبين تأرجُح الصّغير في قَلبها قرارُ أمٍّ أن يَنتهي خَيال أحلامها عند الله!

يراها الطُّغاة؛ فيبقونَ متَبعثرين، كيف تقذفُ بنفسها في النّار؟! وعلى طَرف العَباءة طفلٌ ينهمكُ في السّلام كأنّه في بستانِ زهور!

فَسِّرْ لي: لماذا يبتَسم الشُهداء وهمُ يَنزفون! حتَى كأنّ الجنّة قائمةٌ على الشِّفاه تُغَنّي!

هل لأن الآخرة هي مآل الرحلة وفيها يرتاح المتعبون؟

تتّقد النّار، ويتَوالى المَغيب مع كلّ روح تشهقُ في الحَريق، يتأوّه الألمُ، ويقفُ الزَّمان مُنذهلًا أكانَ هذا عبورًا للغَوغاء؟!

يرتفعُ الدُّخان، ويَضبطُ المؤمنون دقّاتِ قلوبهم على المَوعد مع الله.

إنّ غيابَ الله عنك، هو اتّقاد الجَمر في الحياة، والصِّلة به، هي انبثاقُ زَمزم بِعَذبِ الأُمنيات.

فيا للهِ! كيف يُصبح كلّ قلب فيهم قَطرة نَدى، كلّ عينٍ تَبكي هي زحمة سَحاب تنسابُ بالمطرِ، فَيَنطفئ بها الجَحيم.

ليس من خطوة تائهة بينَ الجُموع؛ فقد أحبّت الأقدامُ طَريقها، وكانوا هُم (قُعودٌ)، بصيغةِ المُبالغة الّتي تَعني الإصرارَ والثّبات على الفعل الظالم؛ فتنبّه ولا تتنازل، واقعد على الحقّ قعودًا، ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ (البروج: ٦، ٧)، شهودٌ على زَبد الوُجوه إذ يَموج ويَفور.

﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾ (البروج: ٧)، شهودٌ على لحظةِ ذوبان طفل في البركان.

(قُعود) وأنينُ الحَطب يَعلو كأنّه روحُ الطّبيعة، يبكي فقرَ الإنسان، يبكي مَن اعتادوا الظّلام.

ثمّة تشابهٌ بين أصحاب النّار وعذاب النّار؛ كلاهما تَسكنه العَتمة.

في قاصِية من اليُمنِ كانوا، كُتِبَت ذكراهم بحبرِ السّماء؛ فقد قدّموا مُحاق الأعمار لله صَداقًا.

في الرِّحلة إلى الحَريق لم يكن الصّدى قويًّا، لم يسمعهُ الناس؛ لأنّ صَخب النَار كان عاليًا..

وحين همدَت كانت أحرُف الحكاية تسكُن في اللّوح المَحفوظ، وتُتلى إلى يوم القيامة.

لو يعلمون أنّ النار كانَت دافئة، ومع أوّل تَماس بها شَعّت الجنّة بِضَحكة مُلوّنة، وانتَهى العَذاب!

هو ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ (البروج: ٩)، شهيدٌ على سُجود الرُوح عند البَوح لله بالحُبِّ على رغم أنّاته.

شهيدٌ على مَن كان يلهث بالشَّوق إلى الله، على مَن كان يبوحُ لله بملءِ وحدته، بملءِ اغترابه، شهيدٌ على الآفاق؛ تحفظ صوت قَسوة النار وهي تُسكتِ تَرتيل الشُهداء، شهيدٌ على رَقصة رُوح على الجُرح؛

إذ صار النّعيم لها يلوح، شهيدٌ على الرؤى تَهطل مِن الغيب عليهم، شهيدٌ على المَلائكة تقطفُ أروحهم وتَطير بها؛ يُصبح كلُّ واحدٍ منهم زمنًا فوقَ الأزمان، وخلودًا لا مُنتهى له، في الكَون أمكنة مَخفيّة؛ لا يَلمسها إلّا مَن كانت أعمارهم قَرابين لله.

كانوا (قُعود) على النار، كلّ شَيء في الأُخدود يبدو مُعْتمًا، ويمتلئ بأسرارٍ مُحرّمة على الظّالمين، أسرارٍ تَقي المُؤمنين حرّ الجَحيم، أسرارٍ مِن معانيها (لا خَوفٌ عليهم ولا هُم يحزنون).

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ، وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ (البروج: ١-٣)، بكلِّ هذا الاتّساع في القَسَم، بكلِّ هذا العُمق في المَشاهد، يرتَدُّ جواب القَسَم إلى الجَمرات المُشتَعلة في الأُخدود، ويُصبح المُحترقون مَصابيح المَشهد، يلتَحفون بوعد الله ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ (البروج: ٤)؛ يُذيب لهم كلّ الرّهَق، ويَحظُون بِهَيبةِ الرُّؤية.

هيبةٌ، يَعرفها الشَهيد؛ حتى إنّه يَشتهي بعدها الاحتراق لله ألفَ مرّة!

والغاية في خاتمة السُورة:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ، إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ، وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ، ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ، فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (البروج: ١٢-١٦)، اسمَح لِصوتك أن يرتاحَ على الكلمات، تأمّلها بِسَكينةٍ، ودَعها تطولُ في عَينيك، ورَدّد: (فَعّال) بِصيغةِ المُبالغة، ثمّ ارجِع إلى أوّل السّطر، وكَرِّر: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ (البروج: ١٣)، واسنُد بها إيمانك.

وقُل كلّما رأيتَ ضِفاف الجَمر تَشتعلُ: سيَطلُع مِن العَتمة قمرٌ ونَجمة.

قدَرُ الشّهيد أن يكونَ لنا الدّليلَ في زمَنِ المَتاهة.

مهجورٌ في السّماء، مَن علِق برمالِ الأرض وانتَثر عليها.

مهجورٌ في السّماء، مَن احتَضر في رِحاب السّراب، وماتَ دون أن يَدري عن أنهارِ الجنّة شيئًا.

مهجورٌ في السّماء، مَن كان كفَنَ الحَقيقة، ولم يَكُن عُمره كلّه لله لافتةً ودَليلًا.

ومذكورٌ في اللّوح المَحفوظ، كلُّ من احتَرق عُمره لله.

تلك كانت المعاني بعضًا مما فاضت به السورة، تلك المعاني كانت تحرر بلالًا وسمية وكل المحترقين من بعدهم، تلك المعاني المكية كانت تصيغ روح المؤمن في مكة كي يعلو على كل تهديد، وكانت تمنحه رؤية الجنة في يقين فؤاده.

لقد كان القرآن المكي يعلو بالمسلم على صوت الخوف، ويكفيه بطش الطغاة بيقين ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

●●●

اللّبنة الخَامِسَةُ وَالأَرْبَعُونَ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ، وَطُورِ سِينِينَ، وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾

يا لَبساطةِ القسَم! ويا لَقوّةِ مَراميه!

تَبدو الكَلمات خَافتةً في أوّل التّلاوة، فإذا أَرجَعتَ العَقل مَرّتين ينقلبُ إليكَ العقلُ مُحَلِّقًا في رُؤًى زَخرَت بها مُفرداتُ القَسَم المَهيب!، فإذا الكَلمات ثَقيلة الظِّلال!

في السُّورة، صوتٌ دافئ ينقلكَ إلى مُروج التِّين والزِّيتون، وضَوءٌ قدُسيٌّ فوق (طُورِ سِينِينَ)، وكَثيبُ رملٍ عَشِقَ الوَحي في البَلد الأمَين، وهبط عليه جبريل.

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ، وَطُورِ سِينِينَ، وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ (التين: ١-٣) رباعيّةٌ توقِفك على ناصيةِ الرُّؤيا.

أسرار القسم:

ما هي أسرارُ هذا القسَم؟ وما الّذي يغشاكَ من مَعانيه؟

هذا قسَمٌ، يمتدُّ مِن الشّام إلى موطنِ شريعةِ إبراهيم -عليه السَّلام-، وَيعبُر بك إلى مِصرَ، ثمّ مكّةَ.

فلنرحل معه، خطوة خطوة، والتِّينِ، هُنا رائحةٌ تُصبح وحيًا نشتمّه في ذكريات الأَنبياء.

وقد قيلَ أنّ ﴿ٱلتِّين﴾، رمزٌ للجَبل الّذي استقرّت عليه سفينةُ نوح -عليه السّلام- يومَ شاخَت البَشريّة، واحدَودَب وَعُيها حتَى استَحقّتَ الطّوفان.

و ﴿ٱلتِّين﴾، قيلَ إنَّه رمزٌ لجَبلٍ في دِمَشق، وقيلَ: هو التِّين في خَمريّة ألوانهِ الّتي اشتَدَّت حتَّى السَواد؛ مثل مؤمنٍ لم يَسلب الشّيطان مِن لونه ولا من معناه شَيئًا.

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ (التين: ١)، هذا الارتباط يحكي موطن تاريخ النبوة، وفي الزيتون مدًى يتّسع في جُذوره لكلّ الخضرة الّتي انبثَقت من أُمنيات المُصلحين حتّى أضاءَت كلَّ بلاد الشام.

وقد كاقدر الزَيتون أنّه يحتَضر وينوحُ إذا ظلَّ خاويًا من صوتِ نَبيّ، ويَغدو طليقًا في تَدفُّقه إذا مسَّته نارُ شَهيد، ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، رمزية تحكي تاريخ فلسطين وتاريخ أرض ثرية بأسرارها.

الزَيتون! لماذا الزيتون؛ لأنه رمز لذاكرةٍ تهزمُ النِّسيان، وفي عُمره سِجلُّ الحَقيقة، سِجلُّ التاريخ، وفي كلّ جذرٍ تلمح عذاباتِ نَبيّ.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ (التين: ٢) حيثُ خلَع موسى على أعتابه ذاتَه وتلقَّى التجلِّي، وخلع كلّ وزرٍ يُثقل العبد حتَّى يتَساقط، وهناك تسامى حتى بلغ التكليم، وفي (طُورِ سِينِينَ) اتصلت الروح ببارئها.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ (التين: ٣)، الّذي انكسَر فيه العَطش، وفارَت زمزمُ بمعنى النُور بعدَ شدّة الغسَق!

تنهي الرّمضاء وقسوتها ومُحمّد ﷺ يكتُب التَضاريس الجَديدة، ويغسل عنها أوزارها، ويضَع عنها إصرها وعُبوديّة الأغلال.

في السُورة، يلتقطُ القسَم رموزًا تربِط لك عُرى المعاني؛ حيثُ تُرخي الكَلمات معانيها، وتَمنحك لحظة جمال أُسطوريّة؛ فالرّمل في ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ يَقِظٌ، لا غَفوَ بعد اليوم يُدْرِكُه.

﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ مَلكوتٌ مِن خُضرة الجَمال.

ورائحةُ التّين تَعبقُ في الرُوح، والأشواقُ تُسَبّح للهِ في طُورِ سيناء.

رُباعيّةٌ يَرتحلُ إليها الأُنس، ويبدأُ بها قسَم، يتنزّل في صَحراء مكّة، سلسلة مترابطة في مسيرة الوحي.

خارطة الإيمان:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ، وَطُورِ سِينِينَ﴾ (التين: ١، ٢)؛ حيثُ نَسجت خَطوات الأنبياء خارطةَ سالَ الهُدى فيها، خارطة كان قد غشاها اللّيل طويلًا.

تُصبح الخَرائط هي الحُدود الجديدة للرُوح، حيثُ تمتدُّ مِن غلالِ الأَنبياء، من النّار المُتّقدة في طُور سيناء بلا حَريق، مِن انتظارِ الفَرج في لحظةِ نُوح، ومِن السّكينة الباردة الّتي تَجري تحت سَفينة نُوح -عليه السلام-.

ومِن رائحةِ التّين تُسافر عبرَ العُصور، ومن جذور الزيتون الممتد في تاريخ الحقيقة، هُنا تَرفّ أجنحةُ الوَحي، هنا لحظاتٌ لا تُكتَب.

يَسعى نهرٌ مِن النُّور بينَ العِراق والشّام، ومِصر ومكّة، ويَرتوي الوادي مِن زَمزم؛ فلا يظمَأ، وتَغدو مكّة ثغرًا يضحك، ويقولُ لك القَسم، تكونُ الأرض عَجفاء حتّى يمرّ عليها نَبيٌّ؛ فتُصبح تينًا وزَيتونًا.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤)؛ حتَى تَحسب بعدَ جواب القَسم أنّه لا انحناءةَ فيه، وليسَ فيه نَشيجُ العِوَج.

فكيفَ يَهوي هذا الاعتدال إلى أسفلِ سَافلين؟!

كيفَ يُخدعُ الإنسان عن ذاته؟!

كيف يُثخنُ بالجِراح حتَّى يَعجز عن تخَطّي الظَلام؟!

﴿فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ حتّى تظنّ أنّ مفاتيح اليقَظة في يَديه، وأنّ العِوج أوهَنُ مِن أن يَطرق عليه الأبواب.

ويا لَلتّقابل! بينَ علوّ طور سِنين، وصُورة الإنسان في ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

وبين ثباتِ شَجرة الزَيتون، والمَرء إذْ يهوي إلى ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

وبين رائحةِ التّين الناضجة تَعبُق في المَدى وذبوله في ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

سؤالٌ يضجّ، ويَلحقهُ سؤالٌ: كيفَ ألقَى الإنسانُ بِذرتَهُ في قاعِ بئرٍ مُعتِم؟!

كيفَ؟ والخارطةُ تتوهّج بوحيٍ عتيق، وَهذا توقيعُ الأنبياء على خارطةِ الطَريق!

كيف تذرف خَرابك أيُّها الإنسان؟! كيفَ يحومُ الخَواء عليكَ مثل غُراب؟!

كيفَ تَنثني، وتتعَجّل الانحناء؟!

وكيفَ لا تمدّ جَذرك في الأرض مثل (الزَيتون)، ولا تُشرق مثل (طُور سنين)؟!

استثناء النَّجاة:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ (التين: ٦)، فلا انحناء، ولا انكسار، ولا ارتِداد، ولا هاويةٍ إثرَ هاويةٍ في وَقْعِ خطَواتهم.

هُم النّاجون فقط من السُقوط، تتَدلّى أعمالُهم (دانيةً عليهم) مَليئة بزيتونِ الأنبياء؛ ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ﴾ (التين: ٦) يُفضي إليهم مثل: (لؤلؤٍ مَكنون)، تهبّ رياحُ الجنّة على سَنابلهم؛ فتظلُّ لَواقح.

العيُون غارقةٌ في سَرمديّة التّسبيح، وقد تجلّى لها اللّه بالرُّؤية!

يُوغلون في القُرب، ويُدركون مَعنى: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ﴾ (التين: ٦) تلك عاقبةُ مَن تجذّر في نصوصِ الوَحي، وتلَوّن بصبغة النبوّة في مسار (التّين) و(الزّيتون).

تلك عاقبةُ مَن تعوّذ باللهِ مِن خَلَل في الخُطى، وكانَت حَياته عُلوًّا مثل (طُور سنين).

تُختتم السُّورة بقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ (التين: ٨)، فلَا تَشُدَّك المَرافئُ عن سَفر الاستقامة، ولا تُثقِلكَ شَهوةٌ تَهبُط بكَ على غَفلةٍ إلى ﴿أسْفل سافِلين﴾.

هذه السورة تريك خارطة الوحي مكتملة ثم تخبرك أن النجاة من الهاوية، من السقوط في ﴿أسفل سافلين﴾ إنما تكون على منهج الأنبياء الذين ظل ﴿لهم أجر غير ممنون﴾.

●●●

اللّبنة السَّادِسَة وَالأَرْبَعُون

﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ، ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفِۭ﴾

تُفشِي مكّة كُلّ خافية فيها مِن الألم بعدَ أن اجتاحَها الفَقر وغزَاها لَظى الأسى؛ فقد بلغَ النَاسُ في مكّة أن يَدفنوا أولادَهم ونساءَهم، اضْطِبارًا.

تَذكُرُ مكّة كيفَ كان الرَجل إذا طالَ عليه الأَمَد ولم يجد أهلُ بيته طعامًا حمَل رَبُّ البيت عِيالَه إلى موضعِ مَعروف، فضرَب عليهم خباءً وبَقوا فيه حتّى يَموتوا جُوعًا.

مشهد من العَجز يَرى الرجل فيه النُّسور تَغفو على الخباء تنتظرُ الوَليمة.

فيا للهِ! كيفَ تَفقدُ قُريش ذاكرة السَغب؟!

كيفَ تنسى صُورة خِيام الرمَق الأخير؟!

خيامٌ، لَفَّها سُكون المَوت مثل الفَاجعات تصْطَفُّ أسرابًا، حتَّى كادَت المآتم أن تكونَ عادَة قُريش؛ فقد أخذَ الجوعُ أرواحها، وصارَ في كلِّ قبرٍ جُثّتين.

كان أهلُ مكّة يتساقطون في الصَمت، ويَرون بعضًا مِن بَعضهم يَرحل، كانوا للصّحراء مثل فرائِس مُنهَكة.

مَن كان مِن العَرب حينها يُصغي لهمسِ الدمع في مُقلةٍ تَدفنُ كلَّ عائلتها جوعًا.

مَن كان؟! تَشهدُ الجُفون بالدُّموع للحَادثات المُرهِقات، شاحبةٌ وُجوه القَوم خَشية الموت وخَشية الفِراق.

لقد كانَ الجوعُ يَمضي بهم من دربٍ مُقْفِرٍ مُوحِش إلى دربٍ أشَدَّ فقرًا وقفرًا، وكانت الصَحراء تَحولُ بينهم وبينَ رَغَد العَيش، وكُلّما نَبَت فيها غُصنٌ رَطيب أضناهُ غُبار الأعاصير؛ لكنَّ مكة كانت تَنجو كلّ مرّة ببركةِ الكَعبة.

وهُنا نِصفُ المَعنى، ومِن هُنا تبتدئ مسافة الرُؤية؛ إذ مكّة بِلا الكَعبة رَجفةُ الخَوف مِن عَراءٍ لا يَنتهي.

فكيفَ نَسيتِ يا قُريش؟

رُويدًا يا قُريشُ رُويدًا، فكلّ القَبائل تذكر أنّ كفَّك كادَت أن تَفرغ لولا ربُّ البَيت!

ثمّ ماذا؟ ثمّ ها هِي مكّة تلتحفُ الأمن، ويكشف اللهُ عنها جُوعها، وتَطوي مكّة سَغبها، وتَفتح إشراقة أمنِها بالكَعبة.

وذلك بأَمنٍ لم يَتأتَّ لغيرهم مِن العَرب مِن عدوان المُعتدين في السَّنَةِ كلِّها؛ بما يسَّر لهم الله مِن هيبة الكَعبة وشَرعة الحَجّ، وبما

جَعلهم عُمّار المَسجد الحرام؛ فجعلَ لهم بذلك مهابةً وحُرمةً في نفوسِ العرب كلّهم.

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ (قريش: ١)، هنا عنوان النِّعمة؛ إذ تحَرّكَت القوافل التجاريّة على فِكرة أن تجعل قُريش جَعلًا لرؤساء القَبائل وسادات العَشائر يُسمّى: الإيلاف.

يُعطونهم شيئًا من الرِّبح، ويَحملون إليهم مَتاعًا، ويَسوقون إليهم إبِلًا مَع إبِلهم؛ ليَكفوهم مَئونةَ الأسفار، وهُم يَكفُون قُريشًا دَفع الأعداء؛ فاجتَمع لهم بذلك أمنُ الطَريق كلّه إلى اليَمن وإلى الشّام، وانزاحَ الهَمّ عنهم بالنّعم؛ وكانت ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ (قريش: ٢)؛ حيث تتَهادى الجِمال بالكرم الربّانيّ مثل عُروشٍ تزهو بالفرَح، تَشتعل نيران مكّة بمليون أُمنية، ويَبتسم لها الرّزق، تتوهّجُ الأجساد بالعِناق، ويلتفُّ الناس بضوء العطايا، وتَهمي ظُهورُ الجِمال بلُطف الله؛ كأنّ القوافل كلّها سَحابًا.

تَمضي القوَافل مثل خَرز مؤتلق، يلتمعُ بالخير في أشعّة الشّمس كأنّه عقدٌ طَليق أنيق، ويَنتهي صوتُ الحُزن في الرِّمال المُوحشة، وتُصبح مكّة في ظِلّ النّعمة، ولا رَماد بعد اليوم للأَماني.

﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ (قريش: ٢)، تُجلَب إلى مكّة السِّلع من جميع البلاد، ثمّ تُوزَّع إلى طالبيها في بقيّة البلاد؛ فَيستغني أهل مكّة بالتّجارة؛ إذْ كانوا (بوادٍ غَير ذي زرع) وَصاروا يَجلبون أقواتَهم من بلاد اليَمن حُبوبًا من بُرّ وشَعير وذُرة، وأَديم وثِياب

وسُيوف، ومن بلاد الشَام يجلبونَ التَمر والزَيت والزَبيب، والثِياب والسُيوف المشرفيّة.

لقد كان الله هو مُوردهم، وهو الّذي نفَى عن مكّة زِحام الجُوع في ثناياها.

فسبحان الله! كيف كان الحُزن له الدُروب تُفسحُ، ثمّ صارت النِّعم في الدُروب تَسرح!

وصارت مكّة لا تتّسع للقَوافل بعد أن كانت عالَمًا من فراغ الفَناء؛ أُقيمت الأسواق في الحجّ، ووردت السُفن من الحبَشة في البحر إلى جدّة تحملُ الطعام ليبيعوهُ هناك، وغَمر الله مكّة بنعمٍ؛ جُذورها الأمنُ والشَبع.

سورة (قريش) نداء لقُريش ومَن بعدها:

إنّ النِّعم تُلمسُ بالقلب، وعصيانها يبدأُ باللّسان، ثمّ في النّسيان، ثمّ تبلغ بالجاحِد مَرتبة الكُفر؛ ينقلكُم الله مِن كامل النُقصان إلى زمن الامتلاء، ونصفُ شُكر النّعمة تَذَكُّر بداياتها.

النِّعم تخلُق لك جُذورًا، ثمّ تَبني لك أسبابًا لتَبقى، ولا يفعلُ ذلك لك إلّا ربٌّ مُحِبّ.

لذا؛ كانت سورة (قُريش) هي عِتاب ربٍّ على مَن غُمروا بِيَقينِ النّعمة، كيف تَعرجُ أقدامهم نحو الأصنام؟!

﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ (قريش: ٢)، لكنّ قريشًا تُجَرِّد النِّعمة من صاحبها، وتنتكسُ عن السّماء.

وكان الأصلُ أنَّ النّعم رَحِمٌ بين أهلها، والشُّكر وصالُها.

يُصيبهم الله بَعدها بِسنين كَسِنِي يوسُف، ويَختنقون بالجُوع والدُّخان، وتُصبح تلك الأيّام الوافِرة مثل طَيف تُرَتِّله الذِّكريات.

وكذلك هي النّعم إن لم تُشكَر؛ تأبى شَتاتَ القَلب عَنها، وترحلُ بالنّسيان.

لذا؛، قال الخليفة عمر بن عبد العزيز: (قيدوا نعم الله بشكرِ الله)، وقد قيل: (إنّ النعمة موصولةٌ بالشكر، والشكرُ يتعلّقُ بالمزيد، وهما مقرونانِ في قرن)؛ فلن ينقطعَ المزيدُ من الله حتّى ينقطعَ الشكر من العبد.

لذا، تجاوزت النعمةُ قريشًا لمّا عصوا، وما لبثَت فيهم إلّا يسيرًا.

كانت سورة (قريش) تذكيرًا بتاريخ الفضل والرحمة، تذكيرًا بكرامة البيت على الله، تذكيرًا بالنعم ورب النعم، تذكيرًا بالقبلة في العبادة لمن حمى البيت وأفاض على أصحابه أن لايرتدوا عنه.

سورة (قريش) هي تلويح بتهديد خفي أن رب البيت يملك الأمن والإطعام ويملك الجوع والخوف، ويملك أن يفعل مايشاء.

اللّبنة السَّابِعَةُ وَالأَرْبَعُونَ

﴿ٱلْقَارِعَةُ، مَا ٱلْقَارِعَةُ، وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾

يظَلُّ القُرآن يُحَضِّرُ الآخرةَ للنَاس؛ لأنَّ السّير بمُحاذاة القيامة يَجعلك تَستقيم، يُحَضّرُ صَوتها حتّى يَنتهي الزلل، وحتّى ينتهي الوَهم.

﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ (القارعة: ١)، ذاك صَوتٌ ليسَ يَبلى، ذاك صوتُ انكشافِ الحُجُب عن الغَيب.

﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ، وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ (القارعة: ٢، ٣)، يومٌ أنفاسُ البَشريّة فيه مَغموسة في الخُوف، الحُشود تصيخُ السّمع، وصَدى القارعة في الأرواح يَطْرُق، يُوقظ الصَوت العَدَم، ويُوقظ مَعه النَّدم لِخَطواتٍ تاهَت في مَعبر الدُنيا؛ فصارَت الآخرة لها مَواسم فَقر؛ فقد كانت حَياتهم قبل القَارعة مثل تَوابيت المَوت، فارغة من زادها.

﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ (القارعة: ١)، إنّه يومُ حَجٍّ لا إيابَ فيه.

الحال في القارعة، ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ (القارعة: ٤)، يكون الناس حُشودًا فارغة لا ثقَل للكَثير منهم، خَفيفة أوزَانهم، خَفيفة آثارهم، ورُبما بلا صَدى، تَاريخهم يُشبه اللّيل في كَثافته؛ لكنَّه لا يُضيء، ووَزنهم مثل فَراشٍ مَبثوث، مثل صَفير الخَريف.

يا اللهُ! مَن يَذكُر عُبور الفَراش!

مَن يَذْكُر! ﴿فَرَاشِ مَبْثُوثِ﴾؛ مبثوث، كلمة توحي بأنّ الأعمار كانت على موعدٍ مَع ألفِ ميقاتٍ واتّجاه إلّا مِيقات الآخرة.

هل تَدري!

أنَّا نُبعثُ على هَيئةِ خَياراتِنا في الحَياة الدُنيا!

حينها مَن يسند قَلبك في القِيامة لو شفَّ الميزان عَن وزنك؛ فكانَ مثل فَراشٍ مَبثوث!

مَن يسند قَلبك لو هَشّت المَلائكة على السّعي؛ فكان هباءً مَنثورًا!

مَن يسند قَلبك لو كانَ السَعي أنقاضًا وغُبارًا!

مَن يسند قَلبك لو تَثُلَت الجِراح والخَطايا، وكانَ عُمرك خَفيفًا مثل سَحابٍ خِفَاف!

مَن يسند قَلبك لو نُودي: فقد ﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ (القارعة: ٨)، فلَيس فيها وضَاءةُ القَبول، ولا فيها إلّا عَقباتٌ كؤُود!

مَن يسند قَلبك إن عَلا الصَوت فقال: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ (القارعة: ٩)؟!

ياللهُ! هذا يُتمٌ لا تَعرفه البَشرية، يُتمُ مَن يشتاقُ اليَابسة حتَّى يقول: ﴿أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ (فاطر: ٣٧).

مَن يسند قَلبك يَومها وهذا الإرثُ إرثُك، وأنتَ مَن جَنى الرَّماد؟! تتجرَّع حُطامك، وتَشتهي لو يُواريك التُراب.

قُل لي: مَن يُواري سَوأتَك والأمرُ صارَ عَلانية؟

والقَارعةُ كلّها هَاوية حتّى كأنّك تَسمع صوتَ السُقوط في نارٍ حَامية، وتَسمع الحَطب يَصطفقُ بالعباد.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ (القارعة: ٨)، تبدأُ المَتاعب في القَارعة لِمَن كان رهينَ الفَراغ، تُنصَب لهم المَواجع، وعُيونهم جَائعة لحَسَنة، وعلى سُطورِ السِّجلات يَشتَدّ العَطش، يزيدُ الانتظار لِحسنة تُعَبِّئُ كلّ هذا الفَراغ في المَوازين.

يُضني المنتظرون سرابَ الأمَل؛ هذا زمنُ الحَقائق، وهَيهاتَ هيَهاتَ حينها للطُرق العَمياء أن تقودَ لغيرِ النَّدم.

السُّورة تمتلئ بمعاني الخفّة والفراغ، ولكنّ أشدّها فراغُ الخَيال مِن تَخيُّل مَعنى بَوار المَوازين!

فراغ الخَيال مِن تخَيُّل مَعنى السَّير حافيًا!

فراغ الخيال مِن تَخيُّل مَعنى العُمر خَرابًا أبديًا!

وفي المقابل: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ (القارعة: ٦)، ما أثمنَ كلَّ ذرةٍ في ذلكَ اليوم!

ما أثمنَ الحَسنات الّتي تَعافَت مِن صَخَب الضَّجيج!

ما أثمنَ الأسرار المَخبوءة في يدِ الرَحمن!

ما أثمنَ الكلمات الّتي لم يَنلها صدأُ الرِّياء، ولم تهدرها ريحُ النيّات المُختلطة!

ما أثمنَ كلَّ خيطٍ غُزِلَ لله، وكلَّ لُقمة لم يعلَم بها إلّا الله!

في القارعة، خَفيفٌ مَن سعى للنَاس، خَفيفٌ مَن اشتهى ظُهورًا للنَاس!

يطوفُ النُور حولَ المَوازين الثَّقيلة، تَستنشقُ المَلائكة الإخلاصَ، ولا يَبقى في الميزانِ ما يَخدُش البَياض!

ذاكَ يومٌ عَظيم، يتَرنَّح النَاس مِن جراح أعمَالهم؛ كأنَّهم زَغبٌ في الهَواء، يَقبضونَ على لا شيء ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ (إبراهيم: ٤٣)، لكنَّ بعضَ القَوم في عافية؛ فقد جاءَ إلى الله مُتزمِّلًا بالقيام، مُتَوشِّحًا بنَبضِ الرُّوح، في كلِّ لحظةٍ لِسَعيهم المخلصِ في الأرض دوِيٌّ كأنَّه القَارعة!

تَخفق الحَسنات في احتشادها مثل أجنحَة تَطير، وتُولَد مع كلّ حَبة سنابل، وتفيضُ المَوازين، يغمسونَ أيديهم في المَوازين، يتقافزُ النَعيمُ مِن حَولهم، ويقطفونَ الحَسنات نُورًا.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ (القارعة: ٧)؛ حتَّى ترى الجنّة تُريقُ حَفيفَ النَّعيم في مَسامعهم، وحتَّى ترى الأنحاءَ تغدقُ بردًا وسَلامًا؛ فقد كانَت النّوايا كلّها للّه مُورقة!

السورة صوت اليقظة

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ (القارعة: ٣)، يا أيُّها العابِرون للقيامة بشَهواتكم، بِجراحكم، إنَّ الحسَنات الصَامتة أيدٍ مُضيئة تَنشلكم مِن قاعِ الهاوية.

ذاك يومٌ، يَشتهي المَرء فيه لو تُستعاد الخُطى، لو تَتعافى المَوازين مِن الأعمال الحافية، لو تُوقف الملائكة النَّظر فيما تحتَ الحسنات مِن

خَفِيِّ الشَهوات، لو تَطهُر الصَدقات من رِيائها، لو تخلُص حَسنة مِن لَوثَةِ الذّات؛ لرُبما ثَقُل المِيزان.

يَشتهي المَرء، دَمعةً مُختبئة في وقتِ الغَلَس، سَعيًا لَم تَلمحه سوى عينُ السَماء!

يَشتهي المرءُ، لو أنَّ العُمر أودعَ في خطواتٍ لا غياب لها.

ترى! هل كانَت الأعمار أعمارًا اقتاتَ عليها الهَوى، واقتاتَ عليها الفَراغ؛ فذَهبت في الأرضّ جفاء؟!

يا لَلهول! إن بُعِث العُمر زَبدًا، وبُعث المَرء فَراشًا مبَثوثًا.

تَتراءى للناس ودائعهم في المَوازين؛ بعضها داكنٌ كأنّه الغُروب، وَبعضها في قاعٍ سَحيق، وبُعضها مليءٌ بالنّدوب.

فيا شَهقة الخَوف إذا نادَت الملائكة: ﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾.

إنّ الميزانَ هو عَتَبة الطّريق، إمّا (عيشة رَاضية) أو (نارٌ حامية)!

ويا دمع العيُون يَومها إذا لَمحت الرّحى وَهُو يُعَدُّ لَها!

سورة (القارعة) سورة مكية تتنزل في زمن التشكيل الأول، تبعث السورة مشاعر الإحساس بالآخرة حتى لا تضل الخطوات عن غاياتها.

سورة تنبئك بأن الموازين ثقيلة أو خفيفة ولا بين بين ذلك، سورة تحمل المسلم إلى الآخرة وتسمعه صوت الهاوية، صوت فراغ السعي، وتقول له الطريق إلى عيشة راضية يبدأ من هنا.

●●●

اللّبنة الثَّامِنَةُ وَالأَرْبَعُونَ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾

هذا الإيقاعُ القُرآنيّ، كيفَ صَعدَ عاليًا في لُجّة كلِّ هَذا النّشاز الأخلاقيّ في العالم؟!

هذا الصّوت العُلويّ، كيفَ ارتَفع وَسط هذا الضّجر، وهذا الضّيق، وهذا الوَحل الأخلاقِيّ؟!

وهذه البِداية المُرَوّعة، لماذا استُهلت بها سُورةٌ تُنافح عَن حقِّ الإنسان في مَشاعره، وعِرضه، وسَلامة رُوحه؟!

كلمة ﴿وَيْلٌ﴾ مُفردةٌ واحدةٌ كانت قادرة على حَمل كلّ هذا التَهديد، وإبلاغِه للبَشريّة.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ﴾ مُفردةٌ واحدةٌ تَحمل فكرة الإنصاف لكلّ الّذين اضطُهِدوا عبرَ أسِنَّة اللّسان!

مُقدّمةٌ قرآنيّةٌ، تُطَهِّر الإنسانيّة مِن سقَم التّنابز، ونِفايات الهَمزِ واللّمز، ومَصرع الإنسان في مَعاركَ لا مناصَ مِن نَجاته منها.

لقد كانت النَاس تَسرح مثل قَطيع لا تَلويح فيه للإنسانيّة، وكانَت الأخلاقُ تُطَبطِبُ عليها القُوّة.

أمّا الضُّعفاء، فلهم وَحل الكَلمات والتّعابير، يَنزلقون فيها، وتَنطبع أرواحهم بالقَهر من قسوة الهمز والغمز.

والناسُ في جاهليّتهم لا حظّ لهم إلّا ألسنةٌ حِداد، يتأوّه الناس مِن حرّها، وبها تَنمو المعارك الخفيّة.

ينسى الناس أنّ الأصوات لا تَغفرُ لبعضها، وأنّ الكلماتِ فيهم مثلُ أيد تُعيد تَرميم الخَراب، لكنّ النّاس رغم ذلك مُنشَغلون بالهجاء والسِّباب، واللّمز والغَمز، يتصدّعون بشَقاء صَنعوهُ بينهم حتَّى صارَ القلقُ في عَلاقاتهم؛ وتلك كانت صُورة الجَاهليّة الأولى.

صُورة سُعال الكَلمات تقتلعُ جذورَ الإنسان بلَمزٍ وهَمزٍ، وتَجعلُ منه روحًا مُهيّئة للانتقام؛ إذ بعضُ الإشارات والكَلماتِ حطب للنّار، بعضُ الكَلمات تفشي رَنينَها في الرُوح ولا تُفارقها إلّا باحتراقٍ يحتَلّ كلّ الزّوايا.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (الهمزة: ١)، فكلُّ الهَمز تعاسةٌ للإنسان، ثمّ تعاسة للأمّة، ثمّ تعاسة للحَياة، وحطام مركوم لإنسانٍ يريد الله له صناعة الحياة.

لذا؛ قال القُرآن: ﴿وَيْلٌ﴾ بتَعبيرٍ يُوحي بوادٍ في جهنّم؛ إذ تلك الحَياة الّتي تَخدِشنا حتَّى ننهار لا تُشبه إلّا جهنّمَ.

ما قيمةُ الحَياة حينَ يَتراشقُ الناس الأَذى، حينَ يَنبشونَ بالثَرثرةِ عَذاباتهم، حينَ يتسلّطُ الإنسانُ على أخيه الإنسان، حتَى يسقُط، حينَ يَنتشي بالعَزف على النقائص حتَّى يستقرّ الإنسانُ على مَقام الذُهول، وتَسمع مِن بعدُ صَوتَ حُطامِهِ!

ربّما لأجل ذلك كان العِقاب ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ (الهمزة: ٤)، وقد قالها ﷺ: «بحَسبِ امرئٍ من الشرِّ أن يحقرَ أخاهُ المُسلم».

ثمّ تَرى هذا الّذي يَحقرُ الآخر قائمًا قاعدًا فقط لذاته، مُنشغلًا بالصّلاة لذاته، وُجوده أشبهُ بنَدبةٍ بائسة في جسد الأمّة، أو مَقبرة مَليئة بالزّينة، إذ لا هَمّ له إلّا الجَمع والعَدّ ﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ﴾ (الهمزة: ٢).

والحقيقة أنّ الأنانيّة في الإنسَان مثل الأَغصان اليَابسة؛ كلّما كَثُرت كلّما كانَت مُناسبة للحَطَب!

لكن، ما هو الخَيط الرَابط بين اللّمز وبين المنع للمَال؟!

الرَّابط، أنّ كلِيهما تَعبيرٌ نَفسيّ عن رُوح عَازمة على تَحطيمك، على جَعلِك ناصِعَ الألم، وعلى جَعل ذَاتها عاليةً بأكوام المَال.

وهذا كَشفٌ قرآنيٌ لنَفسية تتشَرّب روحَ قابيلَ، وليسَ فيها مُقدَّسٌ إلّا ذاتها!

فالأنانيّةُ ببيانِ القرآن، هي المساحة بينَ تضخيم الأنا بالجَمع والمُكاثرة، وبينَ احتقارِ الآخرين بالهَمز والانتقاص.

الأنانيّةُ، سرٌّ في خَوابي الرُوح، ينسفحُ ويتكشّفُ في احتقارِ الآخر، وتَضخيم الذات؛ حتّى ترى صاحبها يَودُّ لو أنّ له ألفَ مملكةٍ ومَدينة، ولِسانُه مبسوطٌ بالنّبذ لكلّ مَن حوله.

﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ (الهمزة: ٣)، إنّ العالِق في ماله وقدُرته وإمكانيّاته ومَواهبه وجاهِه يظنُّ دومًا فيها الخُلود، لكنّ القرآن يُسمعُه

إيقاعًا مختلفًا ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ (الهمزة: ٤)؛ حيثُ أنت هناكَ مَنسيّ، لا صوتَ للدَراهم المَعدودة، مُوغلٌ في وَحشة الخَيبة الخالدة، الخيبة الأزليّة، الخَيبة النّهائيّة؛ فقَد كنت مَحرومًا من سَيل الخَير على شَفتيك، مَحرومًا من سَيل الخير في يديك!

النبذ عقاب نفسيّ، ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ (الهمزة: ٤)، وهذا عقابٌ نَفسيّ؛ حيثُ يبقيك الله في عزلة أبديّة، يتجرّع فيها المرء صوتَ الحُطام وَحده، وَحشةٌ فيها رقٌّ لا عتق منه، وخفقٌ وحيد في أسرِ الدُجى.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾، في عزلةٍ أبديّة؛ بعدَ أن كانَ المال سببَ احتشاد الجَماهير حولَك.

فيا لَشَماتةِ الحَطب!

ويا لَشماتةِ المُضطهَدين من لسانك ومَالك!

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ. نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ. ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ (الهمزة: ٥-٧)، أفئدةٌ من البَدء كانت مليئة باليَباس بعُسرة الإنفاق، بِعَثرةِ النُور.

فقه البناء في السُّورة

إنّ الله يريدُ إنسانًا تُفَسّر يَداه كلماتِ الله، تُفَسّر خطواتُه مرادَ الله، يتنفّس؛ فتَلمح في أنفاسِه معاني الوَحي، يزرعُ وعود الغَيب في آثاره وفي كلماته وفي تعابيره، ليسَ في إيماءةِ عَينه هَزيمة لرُوح أخرى، وليسَ في إشارة يَده إلّا مَعزوفة الشَفاء، إنسان يبني ولا يهدم الآخرين.

واللّمز والغَمز، وجَمع المال للذّات؛ كلُّها مظاهر الشُّحّ، أعراضُ وباءٍ عتيق؛ جاءَ القُرآن كي يُحاصره ويَنفيه.

ولقد كانَ الله يعلَم أنّ في كلّ إنسانٍ صِراعًا بين النّفَقة وبين المَنع! لكنّه يعلّمنا أنّه كلّما أنفق العَبد اتَّسع!

وأنَّه كلّما ضاقَ لسَانه ويَده ضاقَت عليه آخرته؛ حتّى تُحاصره كَلماتُه، وجبالُ دَراهمه المَمنوعة، ويُنبَذ في (الْحُطَمَةِ)!

هذه سورة تحمينا من عذابات تهدمنا، فالله يريدنا أمة منهمكة في البناء لا منهمكة في الهدم.

اللّبنة التَّاسِعَةُ وَالأَرْبَعُونَ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾

بداية مُفزعة لِمَن اعتادوا أن يسدلوا على الحُقوق سِتار الضَياع، لمن كانوا ينتهكون بعناية أطباقَ الآخَرين، ويَترُكونها مَثقوبة!

لمن يَركضون باتّجاهِ ذَواتهم، ويُقيمون لِحقوق الآخرين مآتم النُقصان، ويلٌ لهم، دعاءٌ في صيغة الوعيد والتهديد.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (المطففين: ١)، والتَطفيف: كلّ نقصٍ عَن حقّ المِقدار في المَوزون أو المَكيل!

وتلك حالةٌ نَفسيّة؛ تَكشف عَن شُحٍّ في الأخلاق؛ فالمُطَفّف بصيغة التّفعيل هُنا: هو شخصٌ يحملُ في سَعيه معنى التَكلّف والمُحاولة، إذ يُحاول أن ينقصَ الكَيل دون أن يَشعر به المُكتال.

يُكدّر صفوَ الحُقوق، ويَمتلئ بما طفَّف عليك، يَجتمع في ميزانه ما شتّته مِن حقّك!

تتصدّع أنتَ لصالح ألّا ينهار هو، تعيشُ أنت على الكَفاف لصالحِ أن ينعطفَ له المِيزان.

التعبير بالتطفيف

ولقد سمّى القرآن الفعل تطفيفًا؛ لأنّه يكون في الشَيء الطَفيف الّذي لا يَهتمّ به الناس لِقلّته وخفائه؛ تلك لحظةٌ شائكةٌ مشبعةٌ بجشعٍ خفيّ.

ثم يكشف القرآن بعد الفعل عن حرف مليء ببلاغة عالية؛ إذ هم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ (المطففين: ٢).

معنى الحرف (على)

في الآية إضاءة قيّمة إذ يتعدّى الفعل: (اكتَالوا) بحرف (على)؛ لِتضمين اكتَالوا معنى التّحامل، أيّ: إلقاء المَشقّة على الغير وظُلمه، إلقاءً يَحتجزك في النَقص، ويُبقيه هو في الوَفرة!

ثمّ أيضًا في الآية معنًى في حَرف (على) وهو الاستعلاء، إشارةً إلى أنّ (اكتَال على) بمعنى ألزَمَ البائعُ المشتري أن يُقدِّم له حقّهُ كاملًا بسُلطة القُوة والنُفوذ وَجبروتٍ ما، بِسلطة لا تُنصف المُبتاع.

والسُورة في مُقدّمتها إنّما تُوقف ميلاد الاستبداد، توقف ميلاد الخُضوع.

ربّما تَبدو لك الأشياء طَفيفةً في مُقدّماتها مثل قَشّة أو قَشّتين، لكنَّها تتّسع في المآلات مثل تاءِ المَوت، حتّى تَبتلعنا، وتَبتلع كلّ حُقوقنا، لذا؛ كانت هذه المَعاني في أوّل التّنزيل.

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ (المطففين: ١) فمَن هُم المُطَفِّفون؟ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ (المطففين: ٢).

والاستيفاءُ: أخذ الشَيء وافيًا. فالألف والسّين والتَاء: حروف الطلب؛ لبيان المُبالَغة في الاستيفاء دون نُقصان لهم.

والتَعبير القرآنيّ يُشعرك بصوت الجُوع في عمقهم لما في يَديك وبركاكة هذه الأرواح، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين: ٣)، حتّى تَنفرط أنت من النُقصان المستمرّ لحقوقك، ولا تَلتئم من كَثرة خساراتك.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (المطففين: ١)، الّذين تَذوب حُقوقك في مَوازينهم، وتَنعطب المَراكب معهم؛ مثل زوجة أو زوج يأخُذ من كثيرِ العمر، ويُبقيك في نفايات القَليل.

مثل مَن يَستوفي وَهم الثَناء لنفسه، وهو الفَقير في نَفقة لسانه، يوَدُّ لو يكون هو الضَمير الظّاهر، والباقي ضَميرٌ مُستتر أو غائب.

مثل من يَستَردّ كلّ التَفاصيل في علاقاته مع الآخرين، ولكنّه ينسى أنّ في يده أتعابًا صامتة تكاد يوم القيامة تَثور.

مثل مَسؤول شَحيح على قيامك، شَحيح على نَزيفك، ويَخشى الفُتات أن يَبلغك، مثل تاجر يقفُ على حافّة الاستيفاء للأرباح الجَشعة، ولا يدع للفَارغة أيديهم إلّا ازدحام الخَراب في جيوبهم.

مثل كلّ مَن يَسرق من أجنحةِ حلمك كلّ يومٍ ريشة؛ فينتهي بك العُمر جناحًا مَقصوصًا.

مثل كلّ مَن يَسألك العَسل، وهو في عمرك شَجر الحَنظل!

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين: ٣)، مثل من يُتقنون عدّ الثُقوب في ثيابك، ولا يَرون لك فَضيلة.

مثل الّذين يَنتبهون لقليل الصّدأ فينا؛ فَيغضون من قيمتنا لبعض الاهتراء فينا!

ما الكَيل؟

الكيل: هو عَدالة المَوازين إذا وُضعت فيها الحِنطة، أو المَواقف، أو الأشخاص، أو الأحداث، ولا يَعدل إلّا أهل التَقوى.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ، يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (المطففين: ٤-٦).

يا لَثقل الحَقيقة؛ إذ تكشِفُ قاع الرُوح لكلّ من يُطفّف!

يا لَثقل الحَقيقة؛ إذ تكشِفُ فَراغ القَوم من الإيمان!

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (المطففين: ١)، أولئك الأنَانيّون؛ الّذين يستلّون تفاصيل الجَمال من حياتك، ويَدعونك خاليًا إلّا من الآمال المُحَطَّمة.

تبدأ أيديهم في سرقة المَوازين، وتبلُغ في نهاية المَطاف كلَّ القَمح في سِلالك.

الطَبيب والمُوظّف وأمّ زوج والحَاكم.. كلّ مَن يُطَفّف عليك فيستوفي منك ولايستوفي لك؛ هو مثل من يَغترفُ من بِئرك دَلاء خفيّة، ويَظنّون أنّهم إذا نَسوا ذلك يغلق الله عنهم أسرَار الصَحائف.

كُلّ حبّة مَنقوصة، كُلّ كَلمة حقٍّ تُخفى، كُلّ واجب فيه شرخ، وكُلّ رَغيف سُرقت حفنةٌ من طَحينه،

كُلّ ذلك، مآله في ﴿سِجِّينٍ﴾، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ، كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ (المطففين: ٨، ٩).

لذا؛ ورَد في الأثر: (رَكعتان من وَرِع خيرٌ من ألف رَكعة من مُخَلِّط).

العَدالة، هي مَقصد السُّورة!

ينسِج التاريخ بَعدها تأويلًا كأنّه حكاية الخَيال، تبتلُّ أطراف الأرض بأسرار السَعادة، ويُخبرك القومُ أنّ المَعنى ابتدأ مِن آية، آية لم تَجعل العَدل تبرّعًا؛ بل جعَلتهُ قانونًا، وبَنَتْ به حضارة عَجيبة، تجلت في عجائب فكرة الوقف؛ حين كانوا يجعلون للخيول المقاتلة أراضيَ ترعى فيها إذا عجزت حتّى لا يكونوا عند الله ممّن استوفى منها ولم يستوفِ لها، حتّى لا يكونوا من (المطففين).

صناعة العدالة واستيفاء الحقوق مهما قَلَّتْ، وعدم غض الطرف عن كل ظلم مهما قَلَّ، كان ذلك مقصد السورة المكية، وتلك معان صنعت النفس المسلمة وأوقفتها على باب ضرورة المرابطة على استيفاء الحقوق وعلى إعطاء كل حق للآخرين مهما قَلَّ في الميزان البشري.

●●●

مكتبة
t.me/t_pdf

اللّبنة الْخَمْسُون

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾

لكأنّي باللُّغة العَربيّة تتَردّد كثيرًا قبلَ أن تَسكُب حُروفها لمُقاربة مَعاني هَذه الآيات!

بعضُ المُراد هُنا ظاهر، وبَعضه تَستبطنه المُفردات؛ حتَّى كأنَّ في عُمقها تَكمُن حَكايات (ما لا عينٌ رأَت، ولا أذنٌ سَمعت).

نقفُ نحنُ على مَشارف العِبارات مثل الغُرباء؛ نبتسمُ للمعنى، ولكنّ المَذاق مِيلاده في الجَنّة، يقينًا ميلاده في الجنّة.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ (المطففين: ١٨)، تشتاقُ لو تَفهم المعنى رُؤيةً، لو تُصبح الأُمنية أُغنية في مَسمعيك، تتَدفّقُ من فمِ المَلائكة إليك!

أيّ كتابٍ هذا الّذي ارتَوى بالفَرح حتَّى بلغَ (عليّين)؟!

تُجيبك السُورة: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ، يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ (المطففين: ٢٠، ٢١)؛ تنغمسُ في غنى المُفردات ونَدى المعاني؛ (الأَبرار)، (نَعيم)، (عليّين)، (عليّون)، (المُقَربون)، كلّها أوصُاف رِفعةٍ وعلوّ لا يتَناهى، وكلّ وَصفٍ يَكتمل به صباحُ الجنّة.

تُطَوِّقك السُورة بمَقصودها وهي تقول لك: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ (المطففين: ١٨).

والأبرارُ: هم المُكثرون من الخَير، وعلى أسطُر كتابهم تولَد السَعادة، ومِن همس السِّجل ينبعثُ النُور في (عليّين).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ (المطففين: ١٩)!

ارتفاعٌ بعدَ ارتفاع لا غايةَ له، تُدرك حينها أنّ العلوّ له كتاب، أنّ العُلوّ لُغة السرِّ، السرِّ الّذي لمَسَه الأبرارُ وغابَ عن النَّاس.

تحرُس المَلائكة الكتاب في اللّوح المَحفوظ، كتابًا يُشبه ما فيه باطن الجنّة؛ غلافه يَفوح بِالطُهر، وتَتنفّس فيه نَوايا الأعمال، ويُقال: هذا حِبر السّعي.

وعلى أبوابِ (عليّين) تنتظرُ بقيّة المَلائكة.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (المطففين: ٢٢)، بكلّ أدوات التأكيد، وبحرفِ الجرّ الّذي يُوحي بوَطن لا يَمسّه الرَحيل، بِوَطنٍ يتكاثرُ فيه الدّلال، ومُدنٍ لا ينامُ فيها الجَمال.

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ (المطففين: ٢٣)، دون تَحديد، ينظُرون إلى عُمرِ المَسافات الّتي لا تَنتهي في النَعيم، إلى غيابِ الخَطوات في (مالمْ يخطُر على قلبِ بشَر)، إلى سَريان الأصوات فيما وراءَ الغَيب تُناديهم إلى المَزيد.

طَلاقة العِبارة تَشي لكَ بازدحامِ المَلذّات لِمَن تَركوا الملذّات العَابِرة، لِمن لم يُغَلّفهم ليلُ الشَهوات.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ (المطففين: ٢٤)، مُفعمةٌ بما تَجلّى لهم، قد سَكبت لهم (عليّين) مِلء ما فيها؛ حتّى ترى الحُور حُسنًا ما له شَبَهٌ!

لاشيءَ هُناك يتسرّب من مَسامات الصُّحف، كلّ شَيءٍ ينبعثُ لك؛ لحظة الشَوق إلى الله، تَسبيحة اللّيل، نَشوة البُكاء بين يديه، ورُوحٌ لم تنفرط؛ لأنّها خطّت جِراحها بكَلمة منك!

يتبدّى لك ذلك في السُّرر الوَثيرة، في المَصابيح الّتي يَرفلُ فيها النَعيم.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ، خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ (المطففين: ٢٥، ٢٦)؛ فقد صَامت الأعمارُ عن لُوثة العَتمة حتّى أضاءَ أهلها!

﴿مَّخْتُوم﴾، مثل سرّ مُغلق؛ لِمن أغلَق باب الشَهوة، وقد كانَ به لها عطَش!

﴿مَّخْتُوم﴾، مثل دَهشة مَخبوءة؛ لِمَن بلّ الثَرى وهو يَخشى أن يَنثني عَن الهُدى!

﴿مَّخْتُوم﴾، لِمن يحتضرُ وفي كفّه أُمنيات الهَوى كانت تَخطو إليه؛ فيَمحو منها في السرّ ما لا تبلُغه العُيون.

ما هي الدنيا؟ الدُنيا اختبارُ الرّشفة، إن عاقَرها القلبُ وتشرّب الإناء؛ خسِر المُتّكأ، وإنّ لكلّ مُتّكأ ثمَنًا ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ (المطففين: ٢٣).

﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ (المطففين: ٢١)، كيفَ لا يُدرك النّاس أنّ النيّات جُذور الحسَنات؟!

وأنّ الصَحائف تُختَم على نبرة البَواطن؟!

﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يَشهدون الأوقاتَ الخفيّة الّتي اكتظّت بالقُرب، ولم يَلحظها أحَد، يشهدُون لحظات كأنّها دُهورًا من الرِّضا.

الكتابُ في ﴿عِلِّيِّينَ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ كأنّ المَخزون كانَ هائلًا في تَوهُّجه، في قَبوله، في انتَهائه إلى الله؛ فاستحقّ أن يشهُده المُقرّبون من الله!

وَالمَاء: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ، عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ (المطففين: ٢٧، ٢٨)، يمرُّون على الأنهار، تتفتّح لهم مثل الأحلام، يتمدّد النّعيم، وتُومض المُعجزات مِن عُيون الماء، يُمزَج الرّحيق بالتّسنيم، يُزهِر التَّعب دَهشة، ويَبرؤون بالتّسنيم.

وهناك يَنتهي ضَباب الفَهم، ويُدركون معنى التّسنيم مَذاقًا، لا غُموضَ في مَعنى الأسماء، لا تَشابهَ في الرَوائح، يُعانقون المَقامات، ويَبلغون أطرافَ (عليّين)، ويَمتلئ المَدى بسَعيٍ أصبحَ حصَادًا.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ (المطففين: ٢٦)

تطوفُ الحَقائق بهم، يَستيقظون كلّ لَحظة على رَعشة الجَمال، يَستغرقون في تفاصيل اللّقاء، ويسيلُ النّعيم عارِمًا مثل (رَحيقٍ مَختوم).

يَجمعون حُروف الآيات مثل قَطرات المَطر، ويَرون عنَاوينها مُفسّرة فِي الخَمائل، يرون المعاني أزهى من الفيروز، ويوقنون؛ لا شيءَ هناك يوقِف التّدفق.

وعلى قَدر ما تركوا لله يَقبضون ثمنَ ما فات، وتَبدو الدُنيا مثل جُرحِ سُرعان ما انكَتم، ينسدلُ الزَمان على كائناتٍ كأنّها ما خُلِقت، ويتَواثبُ الخلود، ويَعبُر ريحُ المِسك إليهم.

تتعلّق أعيُنهم بغيوم تُسفر عن المَزيد، يتَجاوزون الحُزن ويَضحكون؛ ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ، عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ، هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ (المطففين: ٣٤-٣٦)

●●●

اللّبنة الْحَادِيَةُ والْخَمْسُون

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾

آية مثل نَجمة تَتوسّط سماءً مُتلألئة، تتوسط سورة (الطارق)، تَقفُ عبرها تُراقب شُروق المَعاني، وتَغيبُ في المَلكوت، تَنمو بالكَلمات إلى الأعلى، وتَفوق العظَمة عينيكَ وأنتَ تتأمّل آخرَ النظر!

تَلتقطُ نَشوة الأسحار، وتَهبّ عليكَ فتنة الجَمال من صَفحة السّماوات، وإلى الله ترحل رُؤاكَ لتَنحنيَ تحتَ العَرش، وتَشهد بعَظمة القَسم: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ (الطارق: ١).

كانَ الأعرابيُّ يعرفُ السَماء في بحثِه عن الطَريق، فما للسماوات اليوم ترحلُ به إلى صَوتٍ كأنّه إيقاع الحَقيقة؟! ترحلُ به إلى عُقلة الوَعي، حيثُ يُصغي السَمع لجهةٍ تغرَق فيها الجهات.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ (الطارق: ١)، يتَغلغلُ الصَوت في المَدى، ويبدأُ أوّلُ الطُّرق نحوَ عُبورٍ جَديد، نحوَ الله! يقتسمُ القلب الدَهشة مع السّمع، وعلى أقاصي السَماء يخشع راكعًا لله.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ، وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ، ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ (الطارق: ١-٣)، تلك وَمضة الرُؤية؛ حيثُ يعترفُ الإنسانُ بضَآلة

حجمه، يعترفُ أنّ صَوت (الطارِق) في فضاء الكون أعلى مِن صوته، ويرتجفُ لِشُعاع (النَّجْم الثَّاقِبُ) يخترق الظُلمات.

فَمن ذا الّذي يكترثُ بالإنسانِ في هذا الفضَاء الرَهيب؟!

حجم الوجود الإنسانيّ:

ماهوَ الوُجود الإنسانيّ قياسًا لهذا الفَيض من الأصواتِ، والأنوار، والألوان؟!

كيفَ تُسمَع همسةُ هذه الهَباءة في كونٍ فيه الطارق؟!

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ (الطارق: ٢)!

يبدو الإنسان مثل شَتات مُبَعثر في هذا السَيل الهائِل من المُجرّات والنُجوم، ولولا ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ (الطارق: ٤) لانسَاق الإنسانُ نحو هُوّة الضّياع.

تمتَدُّ يدُ الله لهذه الذَرّة النائية في البعد بالحماية، يشفُّ اليَقين عن مشهدِ المَلائكة؛ يتعَاقبون في اللّيل والنَهار، يهبطون من بين النُجوم، ويَكتنفونَ الرُوح من الحيرة، من التّيه، مما لا تعرفهُ الحَواسّ، من مجهول الغيب حافظين؛ لأنه لا يمكنُ لأعزلَ أن يُواجه الطُوفان!

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ (الطارق: ٤) يَحفظها، ويحفظُ لها.

(حَافِظٌ) فلا شيءَ يتَسلّل إلى النّسيان ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم: ٦٤)، الشَهوات الفَضفاضَة، الحُقوق المَتروكة، والهَفوات الغَليظة، والنَوايا الّتي احتَشد فيها اللّيل، النَفسُ المُغلقة على حِواراتِ فادحة السُوء!

كلّ ذلك في مواجهة ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ (الطارق: ٤)، لا تَحايُلَ على السّجلات؛ فثَمّةَ سُؤال دَقيق يُنتَظر.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ (الطارق: ٥، ٦)، ناء أنتَ أيّها الإنسان في عَجزك، ناء أنتَ أيّها الإنسان في فَقرك، وضَامرٌ لولا تلك الدّفقة (مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ)؛ هذا سببُ وجودك؛ ماءٌ يسيلُ، فلِمَ تَمتَهِنِ الكِبْر؛ وأنتَ محتاجٌ إلى اللهِ من الوَريد إلى الوَريد.

تُرى! ما حجمُ تلك الدّفقة في مساحة الكَون؟!

وما قُوّة صوت الدّفق بجانبِ صوت (الطّارق)؟!

وكَم هو البَريق الّذي تَمتلكه بجانب (النّجم الثاقب)؟!

تلك هي بطاقةُ الميلاد، وتلك هي بطاقةُ الاعتراف، فكيفَ نتعاطى كلّ هذا الغُرور؟!

تُوقفك الآيات على نَشوةٍ أنتَ أثرها.

كم عُمر النّشوة؟! لحظةٌ خاطفة، لقطةٌ سَريعة، حُلمٌ مُشَوّش، هل نحن نَغمة في اهتزازة سَريعة الانطفاء؟!

يا الله!

ما أقوى رائحة الحَقيقة وهي تُخبرك عن أصلِ التَشكيل كلّه!

فهل كان هذا هو المَغزى؟ أم أنّ القُرآن بكلماته يُطهّر تِلك الدّفقة من شَوائب الغُرور؟!

(الطّارق)، (الثّاقب)، (دافق) تتَوالى الحُروف في قُوّتها، في جَرس الشِّدة تمامًا مثل الطّارق؛ كأنّها إيقاعٌ يوُقظ الرُوح من خِدرها، من غَفوة الوَهم قبل أن يُصيبها مرضُ الامتلاء الكاذِب.

تلك خَرائب تسكن الإنسان، خَرائب يقبعُ فيها، ويظنُّ ذاتَه مِحور الكَون، ويسقُط في فخِّ الذّات، وينسى أنّه قطرةٌ ملوّثة.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ (الطارق: ٨)، حتّى كأنّ المسافة بين الميلادِ وبينَ الميعاد، كالمَسافة بين شَطرَي قَصيدة لم تَكتمل.

عقدة المعنى ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ (الطارق: ٩)، في خِضَمّ هذا المَوج الكونيّ اللّامتناهي ثمّةَ خَفقٌ خفيّ، شعورٌ معَفّرٌ مَستور، أسرارٌ مثل عابر سَبيل لم يَرها إلّا الله، ظِلالٌ لأعمال في مِحراب مُنزوٍ، خرائطُ لذُنوب سارَ فيها القلبُ، وما رأى الآثارَ إلّا الله؛ مثل دَبيبٍ صامت بلَغ سَمع الله، فِتنةٌ طاغية صنَعت خَطوة مُحرّمة،

يدٌ تحسّست في الظلام، ثمّ تورَّط النّبض في شُؤم الخَطيئة.

كلُّ ذلك يبَدو يوم القيامة جانحًا ومفضوحًا، يفوحُ كأنّه ليسَ سَريرة، يفوح في العلن، يُطلُّ من كُوًى مَنسيّة، وتُعلنهُ القيامة على المَلأ؛ فتُكشَفُ صُدوع الطّين فينا، تُكشَف شُروخ الرُوح، تُكشَف تأجُّج الخَبايا، وتُكشَف ما ادّخرناهُ عند الله من خَبيئة، ويبدو العَبد مَقطوع الأواصر.

يا لَلخَواء! ويا لَلقرآن إذ يصفه ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ (الطارق: ١٠).

فِي القيامة، الصوتُ كأنَّه (الطَارق)، والحَقيقة ستَخترقُ المَستور مثل (النَّجم الثاقِب)، وكلّ السَرائر سيكونُ لها صوتٌ صاخِب.

فيا اللهُ! هل سيَنجو إلّا مَن جعل العُمر كلّه للّه (دافِق)؟! فتَحسّس قَلبك؛ عسَى ألّا تكون السَرائر غدًا أسبابَ الهَزائم.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ، وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ (الطارق: ١٣، ١٤)، كلّ معارك الإنسان، كلّ حركة الخَير والشرّ، كلّ سِياقات الزّهوّ والعُجب، كلّ مظاهر الزِّينة، ستغورُ فِي لحظة!

السُؤال حاضِر، وما تَمّ تجاوزه لا عوَدة لتَداركه، ومع كلِّ انهيارٍ عابث مضَى انهيارٌ خالدٌ آتٍ.

ما هو مراد السُورة؟

هل السُورة تَحكي عن العُمر الراكِض حتَّى كأنّه نَجمةٌ لاحَت بقوّة، ثمّ انقَضت؟!

تبَدو الألوانُ والأصوات فِي السُورة قَويّة؛ لكنّها فِي هُنيهةٍ تُصبح فِي عُمر الدّفقة، وتَنتهي.

رُبّما لذلك خُتمت السُورة: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ (الطارق: ١٧) كأنّ الفارِق بين البداية والنّهاية مثل الفارق بينَ نارٍ تتّقدُ ثمّ عَبرَ نفخة تُصبحُ رمادًا أسوَد، ويُصبحُ الاشتعالُ، ثمّ الانطفاءُ فِي عُمر المهلة، فِي عمر (رُوَيدًا).

السورة ترتفع بالإنسان إلى حقائق الكون الواسعة وتعطيه حقيقة مكانه فِي هذا الوجود وتشده لكل ما يبقي له ألقًا حقيقيًا.

بدون الله ماله من قوة ولا ناصر وماهو إلا دفقة عابرة في كون فيه من الطوارق ما لايدرك كنهه ولولا حفظ الله لتبعثر وانتهى.

تلك معان تخلق قيمة التواضع عبر رؤية الحقيقة الكلية، عبر الفهم للكلمات واختيارها، عبر تواصل السياق، وعبر استنباط المعاني من المفردات والجمل والإيقاع.

●●●

اللّبنة الثّانِيَةُ والْخَمْسُون

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾

تبتدئ السورة بـِ(إذا) الشرطية ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ، وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ، وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ (الانفطار: ١-٣)، وتظَلّ (إذا) الشّرطيّة تَتكرّر؛ كأنّه لا مَهرب منها إلّا بجَوابِ الشّرط ﴿﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (الانفطار: ٥).

يَرتبكُ الكون فجأة في خَرابٍ نهائيّ، ويَنحسرُ المَشهد عن وَهن السّماء وهي تَنفطر، تَخبو النُّجوم في غيابة أبَديّة، يَنضبّ الضّوء، ثمّ تَنتثر، تتأهّب البحار لِنَبأ لَم يتَسرّب تَوقيته، وتَنفجر، تَتلقّف القبور أثَر القيامة، ويَفيقُ المَوت، ويَتبعثر غَيب القُبور، ولا يَندثر، وكلّ مَوصودٍ على الظَلام يَنكشف.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ كلّ قَميص ابتَلّ في خَطيئة، كلّ ذَنب مُتعِب، كلّ دَربٍ ظِلُّه احدَودب على خَفيٍّ من المَعاصي مُنزوٍ، كلّ سَعيٍ في السّفوح أوِ الجبال مُتبتّل، كلّ سلالات الأعمال تَمتدّ، وفي القيامة تكتمل.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ كلّ مَن توضّأت أعمارُهم لله، وكلّ ما اعشوشب من الخَراب، وكلّ الذي تعلّق في قَبضة الشّيطان من خَطواتنا، كلّ ذلك ممّا ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

ما تَناثر في السّنين وانتَسى، ما ارتَكبناه في فَلاةٍ، وظَنّنا أنّ الرِّمال محَت آثارَه وانتَهى، وما ضلّت به المَراكب، وغِبنا به عن الله، كلّ ذلك ممّا ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

تُعجَن الرّوح يوم القيامة مِن جديدٍ بماء الأعمال الّتي انتَعلَتها طوال الطَريق، يُبعَث المَرء وقد فَنِيَ فيه الحَمأ، يُبعَث المَرء وقد فَنِيت فيه الشّهوة، يتعرّق بالخَطيئة، تَجري في عُروقه، يَشتمّ ريح الشَيطان في العَرَق، تَلوحُ له الذّنوب شَاخصات، ويُدرِك زَيف ما مضى، يَرى الصّدأ جليًا في صُورته الجَديدة، يَتوارى خَلف ضَياعه، ولكنّ النِّداء يُلاحقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ (الانفطار: ٦)؟!

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ حتّى راوَغْتَ طويلاً؟!

﴿مَا غَرَّكَ﴾ حتّى لَقّنتَ طِينك اليَابس جِدالًا مع أمر الله طَويلًا؟!

﴿مَا غَرَّكَ﴾ حتَّى خُضتَ في كلّ الاشتهاءات، وارتادَ دَمُك الضّلال والمَعصية كثيرًا؟!

﴿مَا غَرَّكَ﴾ حتّى سابَقتَ اللّذة في عَبث؟!

أَكُنتَ تظَنّ أنّك لن تَرتدّ إلينا؟!

ظَللتَ تَقترفُ العَتمة، حتّى جَعلتَ من مَقامك العَدَما، كان عمرك إيمَاءةَ قَلب للخَطيئة، ثمّ صَوتَ قَبول لها، ثمّ قدَمًا تُخادن الشّيطان ونَسيتَ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ، فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار: ٧، ٨).

جَبهةٌ هُيِّئت للصَلوات، وقامَةٌ عُدلَت للقيام، وصُورةٌ ليسَ فيها شُحوب الأوزَار؛ قد هيّأكَ لِسَلالِم الفرِدوس؛ فهبطت نحو غواية الأرض.

يَمّمتَ نحوَ التُّراب؛ وتَيمّمتَ بالأرض، وتَركت الأباريق فارِغة على أنهار الجنّة تَشكو الفَقر من حَسناتك، لماذا؟

لماذا تُبعَث مِن رَمادك بِمَلامِحَ مَغموسَةٍ في نَزق الذُنوب؟ ملامحَ قد بَذرصاحبها بينَ يديه مَعصيةً، وجاءَ في القيامة يأكل قُوتَها شَوكًا وزَقُّومًا.

يَحبو على ظَمَأٍ، وفي الزّحمة هو غُبارٌ ضائع، وبقيّة مِن غَبشٍ لا وزنَ له ولا أثَر!

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ، كِرَامٗا كَٰتِبِينَ، يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ (الانفطار: ١٠-١٢)، كلّ ما تَلعثمَت به النيّات والقُلوب، كلّ غَزَلٍ آثِم، وكلّ جُوعٍ للحَرام، كلّ هبُوطٍ نحوَ ما توَهّج من الشَهوات، كلّ ما نَفضنا الثياب عنه من بَقايا الغمَرات، وكلّ ما تَبقّى من كلام، فأدركنا الوقت، وفي النّية أن نكمل السّهو إذا واتت الرِّياح.

يا لَلفضيحة! إذ تَستبيحُ الملائكة كَنه الطّريق، وتَلتقطُ كلّ ما يَحومُ في الخَطوات ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾ (الانفطار: ١٠).

ويا لَلفَقيرا في تَضاريس القِيامة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ (الانفطار: ١).

يا للفَقيرا في تَضاريس الأُجور ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ (الانفطار: ٤).

يا للفَقيرا في تَضاريس الجنّة حينَ يُنادى ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ (الانفطار: ٥).

يا للفَقيرا في تَضاريس الفَرَح إذا نودي ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (الانفطار: ١٣).

يَتَلوّن الأبد المُبارك بحَسنات كأنّها الخيال، يَرتدي الأبرارُ إيمانهم، ويَستَلمون النّعيم؛ لقد كانت المَلائكة تحرُس لهم غَيب الجَمال وتشتاقُ إليهم، أولئكِ القادمون من ميلادِ أعمالهم، تهتزّ لهم سَنابل الجنّة، ويهتزُّ طَربًا لها يَقين الأبرار، تَنتَثرُ الدّهشة حَولهم، يَلُمّون ذاكرة الدُنيا، ويَفترشون الحَقيقة.

(لَفي)، اللّام: للتّأكيد، وفي: حَرفٌ يغيبُ في سِرّه مَعنى الغمس؛ حيث إنّهم يُغمَرون في النَعيم حتّى يُقسِموا: (واللهِ ربّنا ما ذُقنا شَقاءً قطّ)!

﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الانفطار: ١٤)، يَمتدّ الحطَب في زَفيره، تَصرُخ النَار في شَهيقٍ أبديّ يَبتلعُ نَشيجَ المُتهدّمين، تَتسابقُ ألواحُ النّار إليهم، وتَقتلعُ من عَتمةِ الحَشر وُجودَهم، يَسيرونَ مع الألواحِ خلفَ إثمِهم، يَشتدُّ أوارها، وتتّقِد بأصواتهم، ولا أحدَ يواري كَبواته المُستديمة.

لا شُقوقَ في الجَحيم، لا عدَم، ولا مَوت، والكلُّ يتَبعُ نبتَهُ وما بَذرَ للخُلود.

تُطبِقُ عليهم ويُنادى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الانفطار: ١٤)، وشَتّان، بينَ طَلاقة الفِردوس، وبينَ عذاب يتَقيّأ أهلُهُ أعمارَهم فيه حَسرة وصُراخًا، ويَفيقون على وعد ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ (الانفطار: ١٦).

ماذا تخبرك السُّورة؟

تلك حياةٌ نَقَشتها الغَفلة، عاقَرت الشّهوة، وبذَرَت الأيّامَ لِغير الله، أعمارٌ أَفنَت في الذُّنوب شبابها ووقتها، وتأرجَحت بينَ السّهو واللّهو والخَيبة.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ، ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ (الانفطار: ١٧، ١٨)، إذا مَثُل الطين للحساب، والتقطت الصحفُ كلَّ غيبِك، وأُربكك الفناء من الحسنات.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ، ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ إذا تسوّلت الأكفُّ بعض النور، وبعض الظلّ، وبعض الحسنات.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ، ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ إذا أنكرَ النَاس أبناءَهم، وعلى الصّراط اشتدّ العطَش، وبَدا الشّقاء في ملامِح القَوم إذا تأجّجت النَار، ولا شيءَ سُوى العريّ وشِدّة الجُوع والوَهن، تَستلُّ الأعيَن مَشهد السَاقطين عن الصّراط، يَمضون في غُيوب النار، يَنطفئُ المكانُ، ويُصبح النُور على قَدر أُنمُلة، تَمحو الظّلمة مَواطن العُبور، ويُرهق العَابرون، أفولٌ يلوحُ، ويَصطَرخون، يَنزفونُ جراحَ الخَوف، وتَتيبَّس الحُلوق.

يمرُّ رجلٌ مثل البَرق؛ ويتَنـادَون: ذاك رجلٌ لم يسجُد لشَهوةِ الطِّين.

يسكُب آخرَ النُور في خَطوته على الصراط، ويَمضي مثل الرِّيح؛ ويُتَمتمونَ: ذاكَ لم يتأخّر يومًا عن الله.

يَعلَقُ البَعض ويَتذبذَب، وتُشبه الخَطوات على الصّراط خطوات الأرضِ تمامًا.

يقولُ أحدُهم:لم يَكن الوَحي لدينا يَقينًا، ذاكَ سَفَرٌ طويلٌ، لم نَقطعه في الدُنيا؛ يُصبح الصِّراط مثل كونٍ من المَآتم، وعلى أرض الحَشر العريّ، ذاك ﴿**يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ**﴾ (الانفطار: ١٩).

فكُن يقينَ الآخرة، ولا تمح عُمرك في توابيتِ الطِّين، لا تمح عُمرك في تَوابيتِ الشّهوة.

سورة تصف لك الآخرة كأنها رأي العين ثم تقول لك إما أن ينادى عليك من أبرارها أو تكون من فجارها، اليوم تملك قرارك قبل أن يأتي يوم ﴿**يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ**﴾ .

●●●

اللّبنة الثّالِثَةُ والخَمْسُون

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾

هُنا البِدايات الّتي لن تَنتهي، إذ قال الله ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ (الانشقاق: ١)، تشيبُ السَماوات، وَتغيضُ حُقول الأَرض ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾؛ حيث لا نَجمةَ آمِنة، ولا نُشوب للفَجر مِن بَعد، لا شَيءَ سِوى احتِدام الظّلماء، لا شَيءَ سِوى لهاث المجرّات، لا شَيءَ سِوى صَوت انشِقاقٍ في أعالي الكَون، في عين السَماء.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ (الانشقاق: ٣)، تَنتهي الأرضُ، ويَنهشُها التِهام المَوت، وتَمتدّ في استواءٍ يَحكي مَعنى الاستسلام الكُلّيّ لإيقاعِ الخَاتمة؛ فهَذا زمَن الفَوات.

تنصت في السورة لإيقاع قافية التاء فتلمح صمتًا عَميقًا يَتلوه صَوت أجراس القِيامة مثل دَويٍّ أزليّ، ولا تَملك السَماوات إلّا أن تصغي للأَمر ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (الانشقاق: ٢).

تُوازي الأرضُ السَماء في تَناثُر الحُطام، مَنهوبة أطرافها، يَنهمرُ اللّهب مِنها في رَعشة غسَق نِهائيّة، تَنداحُ البِحار إذِ الأرض (أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ)؛ حيثُ اندلاع الحَقائق حِينها معناه احتِضار الوُجود!

يُتَوِّج أنينُ النِّهاية قَسَماتِ الكَون، يتَّسِق المَشهد، وتَرجُمُ حِجارة السَماء بقيَّةَ المهدوم.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (الانشقاق: ٢)، وما تملك السماء سوى الانصياع التام، تراها خائفة مِن هذا التفسّخ، ومِن هذا الفَراغ، لكن أمر الله يَمحو ما تبقّى من القَوانين؛ حيثُ تَنتهي خارطةُ الكَون، ولوحةُ الغَيب تَستعدُّ للبُروز.

ومِن أقصى المَاضي المَنسيّ يثقلُ الدّرب إلى اللهِ بالحَسرات، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ (الانشقاق: ٦)، يكتظُّ الطَّريق بكلِّ القديم المنَسيّ، ويَنسدلُ الصَّمت على مَسرح الحَياة، تُنيخُ البَشرية حَكاياتها أسرابًا مُمتدّة إلى مِنَصّة الحِساب.

في كلِّ قصّة حَتفُ بعضهم، وفي بعض الحكايات ظِلُّ الشّيطان قائم!

(إنّكَ كَادِحٌ)، ياللأسى! أعمارٌ كانت مثل طَواحين تُهدَر بلا قَمح، وصَوتُ خِصام الدُنيا يَنبعثُ من بعضِ السّجلّات، يتراكضُ نَزيف الذُنوب في أعمال بَعضهم، وتَلتهبُ الأَقدامُ مِن شدَّة الخَوف، تفوحُ رائحة النَار من كتابِ أحدهم، ولا تَتَراخ الأحمالُ عَن كَتفيه، يَنشب النَاس في أرضِ المَحشر مَحنيّة جباههم بكل الهَمّ، يتأرجَحون بينَ المرار وبينَ الآمَال المُقفرة، يعضُّون أيديهم الّتي امتَدّت إلى الشَجرة؛ يُلَملمون فَوضى أوقاتهم، وتَملأ الخُدوش السّجلّات، تَلوح لهم الرَغبات خَافتة، لكنّها تَتكدّس في الصّحائف مثل وَقود النَار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ (الانشقاق: ٦)، فيا لله! كيفَ انسَكب الكدح في النُزوات؟!

كيفَ تَلاشى الكَدح، وما ثَبت الأجرُ، وهرِم العُمر في رَفرفةٍ عابِثة؟!

لا مَؤونةَ في هذا الكَدح للسِّنين العِجاف.

هل يَكفي القَمح الجَافّ لِخُبز القِيامة؟

لو تَفقّدوا أقدامهم لما كانَ بعض الكَدح مُفردات السُّقوط.

في القِيامة، تَنكشفُ ثُقوب الضّوء، ولا تُقبل أنصَاف الدُّروب، ولا فَوضى النّوايا.

في القِيامة، إمّا ماء الرُّوح زُلالًا، أو مَاء الشهوة ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ (إبراهيم: ١٧) .

تَهبطُ الحَقيقة في أرضِ المَحشر على الأكفّ العارية، تَتلو المَلائكة على المَلأ ضوء الحَسنات مِن السِّجلّات، وتَتلو ما خَفِي مِن فتنة السيّئات، ويَبدو البعضُ كأنّه آتٍ مِن ليلٍ بَعيد.

في القِيامة، لا رَمَدَ في العُيون.

في القِيامة، تمَسُّ البَشريّةَ حُمّى القَلق، حَرارةُ البَصيرة اليوم تَكشِف كلّ ما تُخفي السَريرة.

يفوحُ صَوتٌ ملائكيٌّ بالبُشرى، ويَتحرّر أحدُهم مِن قَبضة النّار؛ فقد تَناول عتقَه!

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ (الانشقاق: ٧-٩) ، لحظةٌ حُبلى؛ تشعّ بمعنى النَجاة، يَفيضُ الصَوت بِسُقيا الفَرح.

يتَفيَّأ كتابه، وتُصبح كلّ حَسنة عُمرًا من النّعيم!

يُصبح عُمرُه ضوءًا مُمتدًا ينهمرُ في شُروقٍ شهيٍّ لا يَغيبُ، يَلتقطُ خصلة نورٍ من غَيب الجنّة، تَنحدر من العَين دَمعة الوَعي، وتناولُه المَلائكة الفَجر، ويَمتزجُ في الخُلود حَفيًّا، يَرتشفُ من جِرار الخلد رشفةً؛ فيُروى، يخلعُ الدُّنيا، ويَقطفُ سَقَم الصّبر، ويَرى على سُور الجنّة ألوان الخيال، ويَنسى اصطِخاب التَرقُّب في يوم القيامة، ويُصبح الحَشر زَمنًا طَريًّا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ، فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا، وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ (الانشقاق: ١٠-١٢)، يَحثو الهمّ، ويتَوغّل في الوجَع، ويَنوحُ أَمسُه على يومه، يسمعُ صوت اللّظى يَتهيّأ، فَينفلتُ الدَمع، ويَودّ لو أنّه رَمادٌ.

يَرى عُمره هباءً في هَباء، يرى السّنين بينَ يديه جثيًّا، ويَرى الجَفافَ في الصَحائف يُهيّجُ النار، كانَ عُمرًا يموجُ بلا غاية!

هنا سرُّ المعنى ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ (الانشقاق: ١٤)، يا لَنسيانِ الوَعد! يا لَنسيانِ (فَمُلَاقِيه)!

تتقدحُ النار، وتَشفّ عن صَوّانها، تشفُّ عن وَقودها، لا سَعفَ يُظلّله، يتَحسّس مَعنى النار بجِلد الرُوح، ويَشمُّ رائحة نَفَسه في الحَطب، يَرشفُ مُزن الحَريق تَغشاهُ سَدفُ الجَحيم، ويَذرفُ جَوفه دَمعًا.

عارِيًا مِن عُمره، عارِيًا مِن كدحه، عارِيًا مِن سَعيه، قد أسالَ الحياة لغير ربّه، يجوسُ في السّعير في ذُهول النَدم، يتَرسّب في كثيبِ

النار كما تَرسّب في كثيبِ الشَهوات، وما عَلا ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ (الانشقاق: ١٥).

ما كانَ ينقصه لو شذَّب الرُوحَ لِربّه؟!

لو لمَّ شَعثه، وهاجَر كادِحًا إلى رَبّه؟!

لو شدّ أزرارَ القَميص على امتلاءِ القلب بِرَبّه؟!

لو مَشى على حَوافّ الصّراط مُستقيمًا؛ كي يُطفئ رَمضاءَ القيامة بِسَعيه؟!

لو ثَبت على الخَطوات؛ فإنّ الله (مُلاقِيه)!

ما ضَرّه؟! لو ظَلّ في الشّفاه ترتيل الوَعد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ (الانشقاق: ٦).

يا لَيته جَعل اللّقاء بالله أوّل الأُمنيات!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ ذاكَ قانون الابتلاء.

وبعضُ العَابرين إلى ربّهم يَحتفي الفِردوس بإيقاعِ أقدامهم في الأرض!

كلّ خطوة تَخلق هناك يَنبوعًا، كلّ جُرح يُدنيهم من التَفرّد، جانحٌ كدحُهم للعُلوّ، يتَساقطُ العَرق منهم فتَخضرّ الجنّة به.

سَلامٌ على الكَدح الّذي تُقايضه السَماء!

سَلامٌ على مَن ظلّ دُعاؤهم في الطَريق: اللّهمّ أنتَ الصَاحِب في هذا السفر الطويل، وأنت الصاحب في الصّبر.

هذه السورة كانت تشد البصيرة على الآخرة وتخبرها أن الدنيا دار كدح ومآلها (فملاقيه)؛ فلا يغيبن عنك المعنى فتفقد قيمة السعي وينتهي هباء منثورًا.

●●●

مكتبة
t.me/t_pdf

الخاتمة

بدون فقه القرآن،«أنتم يومئذ كثير، ولكنّكم غُثاء كَغُثاء السَّيل»؛ حيثُ يَجرِفُ السَّيلُ بقوّةِ فَيَضانِهِ كلَّ فُتات الأرض وكلَّ القَشِّ الّذي لا وَزنَ له!

يومَها جَزعت الصَّحابة، أَنبلُغُ يا رسولَ اللهِ أن نكون ذلك القشَّ الهَشَّ المُتهالك على قارعةِ الأُممِ؟!

أنبلُغ أن نكون «غثاء كغثاء السَّيل» إذ ينتَفِشُ فيهِ الورق البالي؛ فَيَتضخّم ويَطفو على موجِ السَّيل من

شدّة الانتفاخِ، لكنّه لا وزنَ له؟!

غُثاء كغثاءِ السَّيل، إذ يجتمِع في مَوجِه كُلُّ ما بَعثَرَتهُ الحَياة ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ (إبراهيم: ١٨)؛ فالتقى على السّيلِ ولا رابِطَ بينه!

ها نحن اليومَ نَفهمُ المَشهد تمامًا يا رسول الله، نفهمه ونحن نرى آثار غياب فقه القرآن عن واقعنا إذ تبَدو مساجدُنا خاليةً من قُبّة النّسر؛ حيث كانت تُسمّى القِباب بأسماءٍ تشتعل فيها معاني العَظَمة والكبرياء، ويستوطنُ العِلم تَحتها، وينتهي عندها التَّرحال بالعلماء.

قُبّة النّسر في الجامع الأمويّ بدمشق، تلك الّتي ازدحمت فيها أنفاسُ الغزاليّ والنوويّ وابن تيمية، وتخرّج منها عشراتُ العُلماء، وفيها صَرَخ ابن الجَوزيّ يومَ اعتُديَ على النّساء في الأندلس: مِيدي يا أعمدة المسجد مِيدي؛ فقد كُشفت ضفائرُ الحرائر في قُرطبة.

وكنّا يومَها يا رسول الله لسنا غثاءً!

ها نحن نفهم المشهد تمامًا اليوم؛ حيث تبدو بيوتُنا اليومَ بِكلّ فُرشِها فقيرةً ليس فيها إلّا رفًّا أو رفّين للكتب، يوم كانت خزائن البيوت في العراق تَبلُغ الكُتب على رُفوفها أربعين ألفَ كتاب، وتُنقَلُ على قافلةِ الجمال من كَثرَتِها، ويتباهى الآباءُ كم أنفقوا في تعليم أبنائهم آلافَ المجلّدات.

وكنّا يومها يا رسول الله لسنا غُثاءً!

كان عددُ النِّسوة العالمات في حيٍّ واحدٍ من أحياء الأندلس يبلغ ١٧٠ عالِمةً، وكان البُخاريُّ وكذا الشافعيّ يَعُدّون شَيخاتهم كما يَعُدّ أحدُهم قِطع الذّهب النادرة؛ فقد ذكر ابن عساكر وحدَهُ أنّهُ تعلَّمَ على يدِ أكثَر من ٨٠ عالمةٍ وفقيهةٍ؛ كانت النّساء يومَها يُشرِقنَ مع الشَّمسِ على الأُمّةِ كُلَّ صَباح.

وكُنّا يَومها يا رسول الله لسنا غُثاءً!

كانت المشافي في مصر تُجهّزُ فيها أَسِرّةُ المَرضى، وبِجانِبِ كُلِّ جَناح مَكتبةٌ هائلة؛ حيثُ بَلَغت الكُتبُ في مَشفى ابن قولون في القاهرة مِائة ألفِ كتاب، وذلك حتّى لا يضيعَ عمرُ المريض دونَ علم؛ فقد كانت الأُمّة يومها تَطلُبُ المعرفةَ وهي على فِراش الاحتضار.

وَكنّا يومها يا رسول الله لسنا غُثاءً!

نشأ الأوزاعيُّ يتيمًا في حُضنِ أُمِّه؛ فَجَعلَت منهُ علَّامةَ وقتِه، وأدَّبَتهُ أدبًا قيل فيه: (عجِزت الملُوكُ عن صَنيعِ أمّ الأوزاعيِّ في ابنها).

وكذا فعَلَت أُمُّ الشّافعيّ إذ تَجَشّمت عَناءَ الحياةِ، وخلَقت في صغيرها ما يَعجَزُ رِجالُ اليوم عنه، وهكذا كانت النِّساء.

وَكُنّا يومها يا رسول الله لسنا غُثاءً!

ثم تبدّل المشهد، وصار الخير فينا قلّة، و«كَثُرَ الخَبَث» وصرنا في موازينِ السّماء كَلُفافةِ قُطن، وصِرنا يا رسول الله في موازينِ البَشريَّةِ (غُثاءً (وما كنا لنبلغ ذلك لو أدركنا أن فقه القرآن هو فقه المهمة وبه ننال شرف الشهادة وثقل الحضور

●●●

شُكــر وتّقدِيــر..

لولا الله؛ لجفَّ الزَّهرُ..

وكَـان الهامِشُ هو مَوطِـنَ كل أعمالـي.

فلله الحَمد كلّه حتى يبلُـغ الحمد مُنتهاه!

ثُم إليكَ يـا مَـن تعجَـز الكلماتُ أنْ تشُقَّ دروبها؛ لو أنَّك لم تكُن في مِيلادِها.

كنتُ أراكَ تُبصرني وتؤمِن بي..

وتَحتمل لهيبَ الكتابةِ؛ عسى أنْ تشتعلَ المعاني نورًا يَهدي به اللهُ مَن يشـاء.

فكلّ الشُّكرِ لكَ يا رفيقَ الحرفِ!

ثُم التقديـر مَوصولًا؛ لِمَن وقفَ حارسًا أمينًا على هذا الإنتاج..

يُنسّقهُ ويرعاهُ؛ مُنذ أنْ كَـان بذرةً في عالَمِ المَجهول.. حتى صار غِراسًا.

فكلّ الدُّعاءِ لكَ أستاذ فـادي الشَـلالدة؛ ما دامتْ الحياةُ تنبضُ فينا!

ثُم أراني أسكُب مِدادي كلّه ولا أَفِي أُمِّــي وأَبــي؛ شُكـرًا وثناءً وحُبًّـا.. فلولا صَـلاة السَّحَر؛ لظلَّت الأُمنيات فِي قَيدها!

وأخيرًا..

كُـل الدُّعاءِ لِمَن في محاريبهم؛ يَرفعون الدُّعاءَ بالسَّـدادِ والقَبول، وبِهم تشتدّ الكلمات في آثارها!

الموضوعات

مَدْخَل ١٣
اقرأ، بوصلة التغيير الأُولَى ٢١
وعلم آدم، الخلافة مهمَّةَ جِسرُها العِلمُ ٢٧
اقرأ باسم ربك، الفريضة الغائبة ٣١
علم الإنسان ما لم يعلم، أمانة العلم ٣٥
يا أيها المدثر، قم فالبشرية تنتظر ٣٩
وثيابك فطهر، التطهير قبل التعمير ٤٣
والرجز فاهجر، الهجر سبق الهجرة ٤٧
يا أيها المزمل قم الليل، أول الابتداء خلوة المتعلم........ ٥١
قم الليل، القيام مدرسة الإرادة........................ ٥٧
ن والقلم وما يسطرون، الاختيار الإلهي لأداة التغير . ٦١
أصحاب الجنة، الشح جفاف ٦٥
وإن لك لأجرًا غير ممنون، فقه العمر الممتد ٧١

تبت يدا أبي لهب، ما يتوهّج في ملامحك هو مآلك ...٧٥
وإذا الموؤدة سئلت، أول ميثاق لرفعة المرأة ٨١
علمت نفس ما أحضرت، عمرك بضاعتك غدًا ٨٧
إنه لقول رسول كريم، سلسلة الوصل ٩١
سبح اسم ربك الأعلى، الطريق إلى العلو ٩٥
قد أفلح من تزكى، الفلاح مآل التزكي ٩٩
ونيسرك لليسرى، اليسر وليس التشدد ١٠٣
إن سعيكم لشتى، تباين الطرق ١٠٧
والفجر، الفجر قدر الأمة ١١٣
ياليتني قدمت لحياتي، الآخرة هي الحياة ١١٩
يا أيتها النفس المطمئنة، النداء الأخير ١٢٥
ما ودعك ربك وما قلى، للمطر مواعيد ١٣١
ولسوف يعطيك ربك فترضى، لا حزن مع الوعد ١٣٧
وأما بنعمة ربك فحدث، وثيقة العهد (دوام الحمد) ... ١٤٣
ألم نشرح لك صدرك، الطمأنينة سلاح الثبات ١٥١
إن مع العسر يسرًا، سكينة الوعد ١٥٧

والعصر، قداسة العمر ١٦٥

إنا أعطيناك الكوثر، امتداد الأجر ١٧١

ألهاكم التكاثر، قيود العبودية ١٧٧

فذلك الذي يدع اليتيم، الإيمان سلوك ١٨٥

الحمد لله، فقه الحمد ١٩٣

للبيت رب يحميه أم جيل يفديه ١٩٩

لكم دينكم ولي دين، لا لأنصاف الحلول ٢٠٥

قل أعوذ برب الفلق، السياج ٢٠٩

قل أعوذ برب الناس، الحصانة العقلية ٢١٥

قل هو الله أحد، وضوح الرؤية ٢٢١

عند سدرة المنتهى، غاية المنى ٢٢٧

وأن سعيه سوف يرى، من وَفَّى وُفِّيَ له ٢٣١

عبس وتولى، قانون الإنسانية ٢٣٧

إنها تذكرة، بين تِيه المَرء وبينَ إشراق السَّبيل ٢٤٣

وما أدراك ما ليلة القدر، قدرنا رفعة القدر..................٢٤٩

فألهمها فجورها وتقواها، مسارك اختيارك ٢٥٥

ذلك الفوز الكبير، الآخرة مآل الرحلة ٢٦١
وهذا البلد الأمين، مسيرة الوحي.......... ٢٦٧
فليعبدوا رب هذا البيت، ذاكرة النعم ٢٧٣
وما أدراك ما القارعة، صوت اليقظة ٢٧٩
ويل لكل همزة لمزة، أدوات الهدم ٢٨٥
ويل للمطففين، قيم العدالة ٢٩١
وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، السفر إلى المزيد ٢٩٧
علمت نفس ما قدمت وما أخرت، كن يقين الآخرة ... ٣٠٣
إنك كادح إلى ربك فملاقيه، الموعد الله........ ٣٠٩
الخاتمة........ ٣١٥

مكتبة
t.me/t_pdf

فقه بناء الإنسان في القرآن

فقه بناءِ الإنسان في القرآن مُحاولةُ لإضاءة قنديلٍ في فقه المُدارَسة، بعدَ أنْ ذبل زيت القناديل في صحون مساجد الأُمَّة!

مُحاولةٌ لاكتشافِ كيف صنع القرآن إنسانَ الرسالةِ؟ كيف بنى قامات شيَّدت حضارة إسلامية باهرة؟ وكيف كانت الكلمات تُعِيد تشكيل العقل والنفس والسلوك؟

لذا كان كتاب: (فقه بناء الإنسان في القرآن) مُحاولةً لاستجلاءِ لَبِناتِ الصياغة الأولى، لَبِناتٍ فاضتْ بمعانٍ هايِلة عبر سوَرٍ قصيرة وبضعِ كلماتٍ.

فاضتْ لهم وفاضتْ بهم، وتشرَّبوها حتى صار معاشهم بها جِنَانَ الذاكرة البشرية.

telegram @t_pdf

9 789779 921242

عصير الكتب

www.booksjuice.com
contact@booksjuice.com
Book.juice1
books.juice
Books_juice